الثقافة العربية اليوم وغداً

- ٣ -

العلم والفلسفة

للدكتور ابراهيم مدكور

تختتم هذه السلسلة بإلقاء نظرة على موقف الثقافة العربية من العلم والفلسفة، وموقفها منهما اليوم لا يختلف عنه بالأمس إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، فقد اتسع صدر هذه الحضارة لعلوم الشرق والغرب، وأخذت منها ما أخذت، وأضافت إليها ما أضافت.

وكان لها شأن فى إثارة البحث العلمى فى الغرب إبان القرون الوسطى والتاريخ الحديث، والثقافة العربية المعاصرة تؤمن بأننا نعيش حقا فى عصر العلم والتكنولوجيا، وتسلم بأنها تخلفت فى معالجتهما بعض الشىء، وتحرص اليوم على أن تستحث الخطى وأن تتدارك ما فات.

١ — ولقد قفز العلم والفلسفة فى البلاد العربية قفزة ملحوظة، وهى بلاشك وليدة تحرر وانفتاح، ووعى ويقظة. تحرر مهدت له دعوة النهوض والإصلاح التى نادى بها أمثال جمال الدين الأفغانى (١٨٩٧) ومحمد عبده (١٩٠٥)، وهى دعوة تعتد بالإنسان، وتفسح المجال لعقله وتفكيره. وانفتاح على الغرب وعلى ماحقق فى ميادين البحث والكشف والاختراع ورغبة صادقة فى محاكاته والسير على نهجه ووعى يدرك مدى التخلف الطويل، وينشد نهوضا وتجديدا يسابق بهما الزمن.

وقد أدرك العالم العربى ماللعلم من شأن فى هذا كله، فاتجه فى القرن العشرين نحو نشر التعليم ماوسعه، وعد ذلك من أهم أهدافه. فرصد له فى ميزانيته مبالغ زادت عاما بعد عام، واستعان بالعلماء والخبراء العرب أو الأجانب كلما دعت إلى ذلك حاجة، وأوفد البعوث إلى الخارج استكمالا للدرس والبحث: ولنلق نظرة على نمو التعليم الجامعى، وإنه لنمو سريع ومطرد. فقد عرفت مصر الحياة الجامعية فى بدء القرن العشرين، وأسست عام ١٩٠٨ جامعتها الأهلية التى كانت تسمى «الجامعة المصرية القديمة»، وفى أقل من عشرين سنة تحولت إلى جامعة حكومية هى ما يسمى الآن «جامعة القاهرة»، وتلتها فى نحو خمسين سنة سبع جامعات جديدة، وهناك أخرى

فى طريق الإعداد والتكوين : حيث يكون لكل محافظة جامعتها الخاصة . ومنذ عشر سنوات لم يكن فى العراق إلا جامعة واحدة وتوفر لديها الآن أربع ، وعلى هذا النحو سارت سوريا ، وانتقلت من جامعة واحدة إلى ثلاث . وفى لبنان على صغرها أربع جامعات ، إذا تركنا جانبا بعض المعاهد الأجنبية ، وجامعاتها قسمان : اثنتان عربيتان واثنتان من أصل أجنبى . وفى نحو عشر سنوات توفر للجزائر ثلاث جامعات وللسعودية والكويت جامعاتهما فى المشرق ، ولتونس والمغرب جامعاتهما فى المغرب . وربما اجتمع فى المدينة الواحدة عدة جامعات ، كما هو الشأن فى القاهرة وبيروت . وبالجملة فى العالم العربى الآن مايزيد على ٤٠ جامعة على رأسها اتحاد ينسق بينها ، ويربط بعضها ببعض ، وفى هذا مافيه من تعاون واتصال ، ولاشك فى أن فى هذا النمو مايبعث على الأمل وينشر ألوية النور والعرفان . وقد أسهم الأستاذ والكتاب المصرى فى ذلك ، وعليهما وحدهما عولت بعض الجامعات العربية الناشئة .

٢ — ومن بين هذه الجامعات مااستوعب أبواب البحث كلها ، فاشتمل على كليات للدراسات الإنسانية ، وأخرى للعلوم الرياضية والطبيعية ، وفى كل كلية أقسام وفروع متعدد . ولم تفقد الدراسات الإنسانية منزلتها وبها بدأ معظم هذه الجامعات ، ولايزال بعضها مقصورا عليها . والعلوم الإسلامية من تفسير وحديث ، وفقه وأصول ، جزء منها ، وفى كثير من الجامعات العربية كليات وأقسام متخصصة فيها . وقد اضطلع بها أساتذة أعلام طوروا وجددوا ، كشفوا عما فيها من عمق وأصالة ، وبرهنوا على أن فيها مايلائم العصر ويسد حاجاته . كتبوا وألفوا ولهم إنتاج لايقل عن إنتاج الشيوخ السابقين. وفى التاريخ عنى الأساتذة العرب بالحضارة الإسلامية عناية خاصة ، فوضحوا كثيرا من جوانبها ، ومحصوا بعض مارميت به أو أخذ عليها ، وجاءوا بإضافات لها وزنها. واضطلع مؤرخون آخرون بحفريات حول الحضارات القديمة من فرعونية ورومانية ، أو بابلية وأشورية ، وأسفرت أبحاثهم عن نتائج هامة . والفكر الإسلامى فى نصف القرن الأخير مدين للباحثين والجامعيين العرب ، قاموا بجمع تراثه ، وحققوا منه ماحققوا ، ونشروا مانشروا . وحاولوا أن يترجموا منه قدراً إلى لغات أخرى ، وكم نود باسم التبادل الثقافى أن تنشط هذه الترجمة وأن يتسع مداها . وحاول مؤرخو الفكر والفلسفة أن يعرفوا بمدارس إسلامية غفل الناس عنها ، وأن يترجموا لرجال بقوا مستورين فى غياهب التاريخ. ولايفوتنا أن نشير إلى أن من بين علماء الاجتماع العرب من قام بدراسات حقلية هامة ، ومن بين علماء النفس من اضطلع بدراسات وتجارب مقنعة .

٣ — ويحس العالم العربى إحساسا صادقا بأنه يعيش فى عصر العلم والتكنولوجيا ، فى عصر الملاحظة والتجربة ، فأعد لذلك عدته

من معامل ومراصد ، من محطات تجارب ومراكز بحوث ، من معاهد ومؤسسات ورغبة في تشجيع العلم والسهر عليه ، خصصت وزارات للبحث العلمى ، لها أجهزتها ووسائلها ، لها توجيهاتها وإشرافها واستكمل بعض الجامعات العربية فروع الدراسات الطبيعية والرياضية على اختلافها ، من طب وفسيولوجيا ، وكيمياء وصيدلة ، ، ونبات وحيوان ، وجيولوجيا وبترول ، وطبيعة ورياضة ، وهندسة وميكانيكا ،وكهرباء وإيلكترونيات .وفى كل فرع من هذه الفروع أساتذة متخصصون لهم تجاربهم وأبحاثهم بالعربية أو الإنجليزية ، ومنها مانشر فى بعض المجلات العلمية ، أو ما كان محل تنويه وتعليق فى المؤتمرات الدولية . وكان طبيعيا أن يبرزوا فى بعض الميادين الخاصة بهم كالنباتات الصحراوية والطبية ، أو فى بعض أمراض البيئة وأعراضها ، وبينهم أعلام يعدون فى مصاف الأطباء والعلماء العالميين ، ولكل مادة من هذه المواد جمعياتها وهيئاتها التى تشجع عليها ، وتتابع نشاطها، وتنظم لقاءاتها ومؤتمراتها، وتنشر أبحاثها ، وتخرج صحيفة باسمها . وفى مصر وحدها مايزيد على أربعين جمعية علمية ، وعلى رأسها الاتحاد العلمى المصرى الذى يربطها بالاتحادات العلمية فى العالم العربى . وفى هذه الجمعيات وتلك الاتحادات تبادل وتعاون ، وربط وتنسيق.

٤ ــ ولم يبق إلا أن نقول كلمة عن الثقافة الجماهيرية ،وهى ظاهرة هامة من ظواهر المجتمع المعاصر فى البلا النامية والمتقدمة على السواء ، ولاشك فى أن البلاد النامية إليها أحوج . إنها ثقافة شعبية تخاطب الجميع وتنزل عند مستواهم السائد ، ويراد بها أن تكمل نقصا ، أو أن تضيف جديدا فى عالم نفاجأ فيه كل يوم بالجديد . وكانت الثقافة بالأمس وقفا على الخاصة، ينعمون بها وحدهم ، ويعلنون باسمها تفوقهم ولاتقر الدمقراطية ولا الاشتراكية هذه التفرقة الظالمة ، ولا هذا التمييز الذى لاأساس له. والحق أن الثقافة ملك للجميع وقدر منها ضرورى للحياة ، ويزيد هذا القدر كلما تنوعت وسائل الحياة وتعقدت . وعلى الدولة أن تيسر أمر هذه الثقافة وأن تسهر عليها.

وقد أدرك العالم العربى مالها من شأن حياتنا الحاضرة ، فوقف عليها وزارات خاصة، وليست مهمتها بأقل من مهمة وزارة التربية والتعليم ، ترعى الكهول والشيوخ فى حين ترعى الأخرى الأطفال والشبان . لها مراكزها ومعاهدها ، وفى هذه المراكز تكافح الأمية، وتيسر القراءة، وتقدم المعلومات النافعة، ولابأس من قدر من وسائل الترفيه والتسلية . ويدخل فى اختصاص هذه الوزارات مراقبة المسرح والسينما ، وتتبعها وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة . فتعددت وسائلها ، وتنوعت سبلها .وقديما كان المسجد الوسيلة الوحيدة لتقديم شيء من الثقافة الشعبية والدينية ، وفى الإمكان أن يضم إلى الوسائل السابقة.

والمهم أن توضع خطة واضحة للثقافة الجماهيرية ، فتحدد أهدافها ، وتتخير وسائلها، وتطرد فيها الخطى فى دقة وانتظام . ومن الخطأ أن تطغي عليها اعتبارات شخصية أو دعايات سياسية ، فينصرف الجمهور عنها ، ولاتؤدى وظيفتها على الوجه الأكمل.

خاتمـة :

هذه هى الثقافة العربيةاليوم ، وفى حاضرها مايسمح بالحكم على شيء من مستقبلها ، ويؤيدنا فى ذلك ماحدث من تطور فى بلاد أخرى مرت بظروف شبيهة بظروفها. ونعتقد أنه فى أخريات هذا القرن ستنمحى الأمية فى كثير من البلاد العربية ، وستسير الفتاة عامة إلى جانب الفتى فى طلب العلم والحرص عليه . والإقبال على التعليم فى تزايد مستمر ، ويفوق عدد طلابه سنويا كل تقدير . والمدارس الثانوية والمتوسطة سخية كل السخاء فى عطائها ، وخريجوها فى ازدياد مطرد . ولاسبيل ، بل لامصلحة فى أن يستوعبهم جميعا التعليم العالى والجامعى . وأولى بقدر كبير منهم أن يواجه طلبات المجتمع المختلفة ، وأن ينهض بالاقتصاد القومى فى شتى نواحيه من زراعة وصناعة وتجارة . وفى اختصار : نتوقع فى نهاية هذا القرن أن يرتفع المستوى الثقافى العام للفرد فى العالم العربى . وبدأنا نلحظ بالفعل أن الأجيال الصاعدة أكمل ثقافة وأتم معرفة من الأجيال التى سبقتها ، وليس شيء أعون على النهوض والتقدم من انتشار العلم والمعرفة .

ولم يبق اليوم شك فى أن العربية هى اللغة القومية ، يستمسك بها العالم العربى جميعه ، يجد فى طلبها وتعلمها ، ويتدارك مافاته منها ، والجزائر فى ذلك تجربة جادة فهى الآن فى معركة التعريب بعد أن فرغت من معركة التحرير ، وسيكون لتجربتها صدى شرقا وغربا . ومنذ أوائل القرن العشرين تبذل جهود متلاحقة لتبسيط العربية وتيسيرها ، فتهذب ألفاظها ، وتختصر قواعدها، ويبسط إملاؤها، وتيسر كتابتها وقد أنجز من ذلك قدر لابأس به . ولن تقف عربية اليوم السهلة الميسرة عند العالم العربى وحده ، بل ينتظر لها امتداد فى آسيا وأفريقيا ، وحياة جديدة فى البلاد الإسلامية خاصة . ونتوقع أن يزداد طلابها من أبناء أوربا وأمريكا ، توثيقا للعلاقات السياسية والاقتصادية. وفى المعاهدات الثقافية المعقودة بين العالم العربى والبلاد الأخرى ما يعزز ذلك ويؤكده . وبدأنا فعلا نلحظ شيئا من هذا فيمن يفدون إلى المعاهد والجامعات العربية من طلاب اللغة والفكر الإسلامى بين شرقيين وغربيين ، ويزداد عددهم باطراد، وتتأهب البلاد العربية لاستقبالهم . وفى انتشار التعليم فى العالم العربى مايقرب لغة الخطاب من لغة الكتابة ، ويضيق مسافة الخلف بين الفصحى والدارجة ، على نحو ماحدث فى الإنجليزية أو الفرنسية ، ولانزاع

فى أن عامية القاهرة اليوم مثلا أرق وأسمى من عامية الأمس . وفى المسرح والسينما والإذاعة والصحافة ، وتبادل المعلمين والفنيين مايقرب اللهجات العربية بعضها من بعض ، وما قد يؤدى إلى قيام لهجة واحدة مشتركة وسائدة .

وفى ثقافة اليوم تفتح وانطلاق ، فهى سائرة ومتقدمة لاتخشى الجديد ولاتنفر منه ، وماأشبهها فى تفتحها بتلك الثقافة التى قامت عليها النهضة الإسلامية الكبرى . ترعى للدين حقوقه ، ولكن فى غير جمود أوتزمت ، وترى أن ليس فى تعاليمه مايسد الطريق أو يضيق الآفاق ، وأن العلم قد تآخى مع الإيمان قديما ، ولايعز عليه أن يتآخى معه إلى النهاية . فلن تتوقف النهضة العربية فى طريقها ، ولن تبالى بتلك الأصوات الهدامة أوالتى تدعو إلى التراجع والجمود . ولانظنها أيضا تستجيب لدعوات التحرر الخالص والإباحية المطلقة ، برغم ماتعتمد عليه هذه الدعوات من وسائل خفية وقوى دولية . وستبقى الثقافة العربية دائما واقفة عند حدودها ، مؤمنة بقيمها مستمسكة بمعالمها ، مقتنعة بأنه لاتعارض بين الدين والدنيا .

وكشفت ثقافة اليوم عن الإنسان العربى فى حقوقه وواجباته ، فقدرت هذه الحقوق قدرها ، ونادت بالعدالة والمساواة ، ودعت إلى محاربة الجهل والفقر والمرض ، وخطت فى ذلك خطوات فسيحة ، وستستمر فى طريقها دون تردد . وأكد هذا ضرورة أداء الواجبات ، لأن المواطن الحق هو من يعطى بقدر مايأخذ ، ومن يسهم بقسط فى بنيان مجتمعه . فشعر الفرد العربى بوجوده ، واسترد اعتباره ، وتخلص من عقدة الأجنبى الأوربى ، وامتلأ ثقة بنفسه . وبدأ ينتج وهو مؤمن بكفاءته وقدرته على الإتقان والتجديد . واشترك مع غيره فى الإنتاج ، فلم يتخلف عن السير ، وربما برز على بعض أقرانه من من الأوربيين والأمريكيين . وهو طموح إلى أن يكون لثقافته شأن يذكر بين الثقافات العالمية الكبرى ، وإنه لواصل إن شاء الله .

ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

القول فى "من" الزائدة
وجواز وقوعها فى القرآن الكريم
للمغفور له الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

من الجارة لها فى اللغة معان كثيرة، أشهرها وأكثرها دورانا فى الاستعمال ثلاثة: «الابتداء والتبعيض وبيان الجنس :

١ — الابتداء ، وهو أشهر معانى «من» على الإطلاق وهو الغالب فى الاستعمال حتى قيل إنه هو الأصل الذى يرجع إليه سائر تلك المعانى :

ولكن هذا القول فيه شيء من المبالغة: ومحاولة رد المعانى كلها إلى معنى الابتداء لا يخلو من التكلف :

من أمثلة الابتداء قوله تعالى : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» . (٢٣ البقرة) فمن الأولى فى هذه الآية ابتدائية ،وكذلك الثانية إذا كان الضمير فى «مثله» راجعا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المراد بكلمة «عبدنا»[1].

ومن أمثلة الابتداء أيضا قوله سبحانه: «فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين» :(٣٠ القصص)

وظاهر أن من «الأولى فى قوله سبحانه من شاطئ الواد الأيمن «ابتدائية» فإن موسى عليه السلام سمع النداء عن يمينه آتيا من شاطئ الوادى فى البقعة المباركة التى ابتدأ فيها تكليمه بما يثبت له الرسالة .

وكذلك «من» الثانية عبارة «من الشجرة» ابتدائية تفيد أن النداء الآتى من جهة الشاطئ هو منبعث من الشجرة فإن هذه الشجرة كانت قائمة فى ذلك الشاطئ .

فليست عبارة : «من الشجرة» متصلة بالبقعة المباركة» حتى تكون «من» فيها بيانية ، وإنما هى متصلة بقوله سبحانه «من شاطئ الواد الأيمن» على أنها بدل اشتمال منه و«من» فيها ابتدائية كما قلنا .

(١) أما إذا كان الضمير راجعا إلى المنزل — وهو معنى «ما» الموصلة — فإن «من» تكون بيانية قد رفع بها الابهام الذى فى كلمة «سورة» وبين بها المراد بتلك السورة التى أمروا أمر تحد وتعجيز أن يأتوا بها : أى أن المطلوب أن يأتوا بسورة مماثلة للقرآن فى فصاحته وبلاغته وعلو شأنه . ثم لا يصح أن تكون «من» للتبعيض ، لأنه يوهم أن يكون للقرآن مثل وأن عجزهم إنما يكون عن الإتيان ببعض منه .

٢ — التبعيض ، كما فى قوله تعالى — حكاية عن رسول الله شعيب مخاطبا موسى عليهما السلام —: وما أريد أن أشق عليك ستجد فى إن شاء الله من الصالحين ». (٢٧ القصص) : وقوله سبحانه : «وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين (١٥ الأحقاف)

٣ — البيان ، كما فى قوله تعالى «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » : (٢٣ البقرة)، إذا كان الضمير فى « مثله » راجعا إلى «ما نزلنا » وهو القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وكما فى قوله عز وجل : «أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا» .(٧٨ القصص) فكلمة «من» فى قوله تعالى من «القرون» بيانية أما الأولى التى فى قوله سبحانه : «من قبله» فهى ابتدائية ، والثانية — وهى التى فى قوله عز وجل : «أشد منه » تفضيلية داخلة على المفضل عليه .

فإذا وردت «من فى » تركيب دالة على أحد معانيها الوضعية بأن كان مرادا إفادة هذا المعنى على أن يكون جزءاً من المعنى الأصلى المراد من التركيب فإنها حينئذ تكون أصلية ولا يمكن الاستغناء عنها :

أما إذا كان أصل المعنى المراد من التركيب يتحقق بدونها ، غير متوقف على أن تكون مستعملة فى معنى من معانيها الأصلية فإنها تكون زائدة [١] :

وذلك كما فى قوله تعالى : «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها» (٥٩ الانعام) وقوله سبحانه «هل من خالق غير الله يرزقكم » (٣ فاطر)

وقوله عز وجل : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » أى اضطراب واختلال . (٣ الملك)

فكلمة «من» هذه الآيات زائدة ، لانه لم يرد بها إفادة معنى من معانيها الأصلية على أن يكون جزءا أساسيا من المعنى المقصود من التركيب ، ولذلك يمكن الاستغناء عنها فيقال فى غير القرآن : «وما تسقط ورقة

---

(١) « قد يقال » إن هذا الضابط الذى يدل على زيادة الكلمة ينطبق على « من » الاولى فى قوله تعالى : « أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله » ، — وهى التى قرر آنفا أنها ابتدائية ، وذلك أنه يمكن الاستغناء عنها ، والاكتفاء بكلمة : « قبله » ، فى غير القرآن بالضرورة ، وذلك لا يخل بالمعنى ، فإنه لا فرق بين أن يقال : قد أهلك من قبله » وأن يقال — فى غير القرآن — : « قد أهلك قبله » .

ويجاب عن ذلك بأن كلمة قبله إذا كانت تدل وحدها إجمالا على الزمن الذى أهلك الله فيه تلك القرون ، وأنه كان قبل زمن قارون — فإنها لا تنهض بالدلالة على أما تفيده «من» الابتدائية ، فإن من هذه تفيد تقريراً وتمكيناً لا يكونان إذا خلا الكلام منها . إنها تفيد تقرير الحكم بوقوع هلاك تلك القرون فى ذلك الزمان السابق على زمن قارون — تقريرا يرى معه كأن ذلك الهلاك كان ناشئ من تلك القبلية الزمنية منبعثا منها . وذلك شىء لا تفيده كلمة «قبله» وحدها . وأيضا فإن « من » تفيد أن الإهلاك قد كان فى الزمان الماضى كله ، وثبت من ابتداء القبلية وأولها بخلاف كلمة « قبله » وحدها ، فإنها تصدق بوقوع الإهلاك فى بعض الزمن الماضى .

إلا يعلمها » ، « هل خالق غير الله يرزقكم» «ما ترى فى خلق الرحمن تفاوتا »:

يمكن أن يقال ذلك ولا يكون فيه ما يخل بالمعنى الأصلى المقصود من التركيب لأن هذا المعنى الأصلى لا يتوقف على شىء من معانى «من» الأصلية .

وهذا بخلاف الحال فى «من » التى أريد بها معنى من معانيها الأصلية ، فإنه فى قوله تعالى : أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا» لا يمكن أن يستغنى عن «من» فى قوله سبحانه : «من القرون » فيقال : «أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله القرون » . فإنه يختل به المعنى المراد كما هو ظاهر . ومثل ذلك يقال فى بقية الآيات التى وردت فيها «من» دالة على معنى من معانيها الأصلية .

هذا وقد اشترط جمهور البصريين فى «من» الزائدة ثلاثة شروط :

الأول :أن يتقدم عليها نفى أو نهى أو استفهام بهل ؟

فالنفى كما فى قوله تعالى : وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » .

والاستفهام كما فى قوله سبحانه «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » فإن من الثانية وهى التى فى قوله سبحانه «من فطور » زائدة وقد وقعت بعد الاستفهام بهل أما الأولى التى فى قوله من « تفاوت » فهى زائدة أيضا لكنها وقعت بعد نفى :

والنهى مثل قوله: لا يقم من أحد .

وألحق الفارسى بهذه الثلاثة «الشرط » كما فى قول الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

الشرط الثانى: أن يكون مجرورها نكرة .

الشرط الثالث » أن يكون فاعلا أو مفعولا به أو مبتدأ .

وخالف فى هذه الشروط الأخفش والكوفيون:

ثم إن «من » الزائدة هذه لا بد أن تفيد أحد أمرين يتمثل فيها المعنى العام الذى تزاد له حروف الزيادة ، وهو التوكيد :

الأمر الأول : التنصيص على العموم المراد من التركيب ونفى احتمال غيره ؛ فإنه إذا قال قائل :

«ماجاءنا من رجل » فإنه يفيد التنصيص على عموم النفى،أى على نفى الجنس وعدم احتمال شىء آخر ؛ وذلك أن العبارة قبل دخول « من » — وهى ماجاءنا رجل — تحتمل نفى الجنس وأنه لم يجئ أحد من جنس الرجال ، كما تحتمل نفى الوحدة وأنه لم يجئ رجل واحد ، وذلك لا يمنع أن يكون الذى جاء أكثر من واحد من الجنس ولهذا يمكن أن يقال فى هذه الحالة : « ماجاءنا رجل بل رجلان » ؛ لكنه لا يمكن

أن يقال ذلك مع وجود « من » ، لأن العبارة معها تنص على نفى الجنس من غير احتمال غيره .

الأمر الثانى : توكيد العموم ، وذلك نحو قولك : ماجاءنا من أحد » أو « من ديار » ، فإن العبارة قبل دخول « من » تفيد العموم من غير احتمال شىء آخر ، من حيث إن كلا من « أحد » « وديار » بعد النفى يفيد العموم واستغراق النفى ، فاذا زيدت « من » فى العبارة أفادت توكيد هذا العموم :

قد يقال : إنه مفهوم ومعقول أن تكون « من » زائدة إذا أتى بها فى تركيب لإفادة توكيد العموم متى كان هذا العموم مستفادا من غيرها ، كما فى قولك : « ماجاءنا من أحد » ؛ فانه لو قيل : « ماجاءنا أحد » كان ذلك يفيد الحكم بعدم مجىء كل واحد ممن يتأتى منه المجىء ؛ سواء أكان رجلا أم امرأة ، لأن كلمة « أحد » بعد النفى تفيد استغراق النفى وشموله الجنس كله ، فإذا أدخلت « من » فى التركيب فإنها لا تفيد شيئا زائدا على المعنى المستفاد بدونها ، كما أنها لا تكون حينئذ مستعملة فى شىء من معانيها الأصلية الوضعية ، فتكون زائدة لتوكيد العموم :

ولكن كيف تكون « من » زائدة لإفادة التوكيد فى قولك : « ماجاءنا من رجل » -- وهو مايفيد التنصيص على العموم أى يفيد العموم نصا ؟

إنه لو جرد التركيب من كلمة « من » وقيل « ماجاءنا رجل » كان هذا النفى محتملا نفى الوحدة كما يحتمل نفى الجنس ؛ أى يحتمل أن يكون المقصود به نفى مجىء رجل واحد ، كما يحتمل أن يكون المقصود به نفى مجىء كل رجل ، أى فى مجىء الجنس كله ، فإذا أدخلت فى التركيب كلمة « من » فانها تزيل احتمال الوحدة وتجعل التركيب نصا فى نفى مجىء جنس الرجال ، وحينئذ لا يصح أن يقال إنها زيدت للتوكيد ، لأن التنصيص على العموم معنى جوهرى أساسى ، وهو لم يستفد من غيرها حتى يصح أن يقال إنها هنا زائدة للتوكيد .

« والجواب » أن التركيب الذى قيل ان « من » قد دخلت فيه للتنصيص على العموم يمكن أن يقال إن « من » قد زيدت فيه للتوكيد ؛ وذلك أنه إذا قيل : « ماجاءنا رجل » — مع إطلاق لفظ « رجل » وعدم تقييده بالواحد — فإنه يدل دلالة ظاهرة من غير شك على إرادة الجنس ، فيكون نفى المجىء فيه منصبا على جنس الرجال ، واحتمال أن النفى فيه وارد على الواحد هو احتمال ضعيف يحتاج فى إرادته إلى دليل خاص ؛ وعلى هذا إذادخلت « من » فى هذا التركيب الذى هو ظاهر فى العموم صح ان يقال إنها قد زيدت لتوكيد هذا العموم .

ويشهد لذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (٤ إبراهيم) : وقوله تعالى : « وما أهلكنا

من قرية إلا ولها كتاب معلوم » (٤ الحجر) وقوله سبحانه : « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون » (٢٠٨ الشعراء) ، فإنه من غير المعقول احتمال أن يكون النفي في هذه الآيات وارداً على الوحدة . وألا يكون منصباً على الجنس . وعلى هذا لا يكون فرق بين هذه الآيات وأمثالها من كل تركيب وقعت فيه النكرة سياق النفي او الاستفهام وبين قوله تعالى — في شأن المنافقين —

« وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا » (١٢٧ التوبة) ؛ فإنه ليس المعنى في ذلك على نفي الوحدة ، وإنما هو في جملتها منصب على الجنس .

وهنا يقال — وهو المقصود دائما من البحث في حروف الزيادة — ما السر في أن « من » الزائدة بعد النفي مثلا تفيد استغراق النفي وتدل نصا على العموم أو تفيد توكيد دلالة العموم ؟ وهل ذلك ثابت لها لمجرد أنها كلمة زيدت في التركيب من غير أن تكون مشعرة بشيء يناسب معنى الاستغراق والعموم ؟

« والجواب » أنه غير جائز في حكمة القرآن أن يكون مجرد زيادة الكلمة في التركيب مفيدا توكيد معنى تضمنه هذا التركيب من غير أن يكون في تلك الكلمة إشعار أي إشعار بما يناسب المعنى المراد توكيده . وذلك أن الكلمة الزائدة إذا أخذت على هذا الوجه كانت لغوا ، وكانت — كما يقول بعض النحاة — دخولها في الكلام وخروجها منه على سواء ، فلا يعقل حينئذ أن يكون مفيدة توكيدا أو غير توكيد ، لأنها تكون هي واللفظ المهمل الذي لم يوضع لمعنى أصلا على سواء أيضا ؛

إن القول الحق في هذا هو أن الكلمة التي تزاد في تركيب لتوكيد ما تضمنه من معنى لابد ان تكون فيها ناحية إشعار بما يناسب ذلك الذي يراد توكيده ؛

فكلمة « من » إذا زيدت في تركيب لإفادة التوكيد فلا بد أن يلمح بها إلى أصل تصلح من طريقه أن تحقق هذه الفائدة فاذا كانت الكلمة المزيدة كما قلنا فيما سبق منسلخة عن معانيها الوضعية كلها بحيث لاتفيد شيئا منها إفادة أصلية أساسية فإنها — مع ذلك ومن أجل إفادة التوكيد — لابد أن تشير — ولو من طرف خفي — إلى أصل من تلك المعاني يكون مناسبا للمعنى المراد توكيده :

ونرى أن أقرب معاني «من» وأقواها على تحقيق التأكيد هو معنى « التبعيض » .

فقول الله تعالى : «وماتسقط من ورقة إلا يعلمها » قد جاءت فيه كلمة «ورقة» نكرة في سياق النفي ، فصارت عامة شاملة كل مايطلق عليه هذا اللفظ من ورق

الشجر : فكل ورقة تسقط من شجرة فإن الله عليم بها وبشكلها ولونها وبسائر صفاتها وأحوالها ، وكذلك هو سبحانه عليم بسبب سقوطها وزمانه ومكانه ، لايعزب عن علمه شيء من ذلك كله.

وقد زيدت كلمة « من » قبل كلمة «ورقة» فأفادت توكيد هذا العموم والشمول ، من حيث إنها فى الأصل موضوعة لمعنى التبعيض ، فهى فى موطن زيادتها تلمح إلى هذا الأصل لتؤكد من طريقه أن علم الله تعالى محيط بكل ورقة مهما كانت صغيرة ضئيلة : فنى هذه الآية الكريمة لم يقصد بكلمة «من» معنى التبعيص قصدا ذاتيا يكون الحكم فيه على بعض من الورقة وجزء من أجزائها ، لم يقصد ذلك .. قصدا ذاتيا وإنما جعل رمزا وإشارة . إلى ماقد تكون عليه الورقة الساقطة من الشجرة من الصغر والدقة والضآلة ، فيكون المعنى أنه مهما تكن تلك الورقة صغيرة ضئيلة فإنها لاتعزب عن علم الله المحيط بكل شيء .

* * *

هذا — وإن التمثيل بقوله تعالى : « وماتسقط من ورقة إلا يعلمها » — وهو جملة من آية ٥٩ من سورة الأنعام — يدعونا أن نعود إلى هذه الآية لنفصل القول فيها وفى بقية ماورد فيها بعد تلك الجملة ، وهو شيء لايخرج عن موضوع « من » الزائدة الذى الكلام فيه : ..

والآية بتمامها هى قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين » (٥٩ الأنعام)

وقد عرفنا أن « من » فى قوله سبحانه . « وماتسقط من ورقة » زائدة من حيث إن الحكم الأصلى المراد من التركيب يستفاد من الجملة مع تجردها من ذلك الحرف ، فإنه لافرق بين أن يقال : « وماتسقط من ورقة إلا يعلمها » ، وأن يقال : « وما تسقط ورقة إلا يعلمها » فكلمة « ورقة» هى الفاعل فى كلا التركيبين والاستثناء ومفرغ فى كليهما ، وهو استثناء من عموم الأحوال . والمعنى : وماتسقط ورقة فى حال من الأحوال إلا فى حال العلم بها ، أى لا تسقط إلا وهى معلومة لله تعالى :

« قد يقال » : كيف يكون مابعد « إلا » حالا ، وهو يقتضى وقوع الحال من النكرة وهى « ورقة » ، وذلك غير سائغ ؟

« والجواب » أنها نكرة أريد بها العموم من حيث قد سلط على النفى ...

والسر فى أن النكرة لاتجىء منها الحال أنها فى أصل وضعها تدل على فرد منبهم شائع فى غيره من أفراد الجنس أو النوع

أما إذا كانت النكرة مراداً بها جميع الأفراد كالنكرة فى سياق النفى فإن هذا يسوغ مجىء الحال منها لزوال الإبهام ، وكذلك إذا كانت موصوفة بوصف من شأنه حصر المراد والإحاطة به فإنه يكون «أيضا» مسوغا لمجىء الحال منها .

ثم إن «من » هذه قد أفادت بزيادتها توكيد العموم ، ولم تكن لإفادة العموم فى أصله ، لأن هذا العموم مستفاد «من» غيرها من حيث قد سلط النفى على النكرة كما علمنا .

« وقد يقال أيضا » : «إذا كانت من « المحدث عنها بهذه المثابة ، تفيد توكيد العموم ، وذلك معنى مهم مما يقصد إليه البلغاء ، ويعنون به وبالوسائل التى تؤدى إليه فكيف يحكم بأن اللفظ الذى يدل عليه ويحققه هو من الزيادات فى التركيب وليس من الألفاظ الأصلية فيه ؟

« والجواب » أن العلماء اتفقوا على أنه إذا وردت فى التركيب كلمة قد جردت من معانيها الوضعية كلها ، فلم تستعمل فى شىء منها على أن يكون جزءا أساسيا من المعنى الأصلى المراد من التركيب فانها تعتبر فيه زائدة .

فكلمة « من» إذا وردت فى تركيب غير مستعملة فى شىء من معانيها الوضعية ، كالابتداء والتبعيض والبيان وما إليها فإنها تكون زائدة مع أنها فى هذا التركيب تكون مفيدة معنى من المعانى الثانوية المهمة ، التى يعنى بها البلغاء ويقصدون إلى تحقيقها كالعموم وتوكيد العموم . هذا ما اتفق عليه العلماء : أن تكون «من» فى هذه الحالة زائدة . فإذا كان من الناس من لايرضى أن يقال بوقوع كلمة زائدة فى شىء من آيات القرآن الكريم فإن المسألة حينئذ لاتعدو أن تكون مسألة اصطلاح ومعلوم أنه لامشاحة فى الاصطلاح وذلك أنه لاخلاف بين الطرفين فى الحقيقة ، والاختلاف بينهما إنما هو فى التسمية : أما المعنى فهم فيه جميعا على وفاق تام

ومن هذا يعلم أن القول فى « من » الزائدة فى قوله تعالى : « وماتسقط من ورقة إلا يعلمها » بين واضح لاإشكال فيه .

إنما الإشكال فيما يقرره كثير من العلماء فى بقية الآية وما جروا عليه فى إعرابها (١) :

---

(١) يراجع تفسير آية ٥٩ من سورة الأنعام للزمخشرى والنسفى والجلال السيوطى وأبى السعود والآلوسى.

فقد قالوا – فى إعراب قوله تعالى : «ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين» – : إن كلمة « حبة » المجرورة فى قراءة « حفص » معطوفة على « ورقة » وداخلة فى حكمها ، أى أنها متأثرة بالعامل الذى سلط على « ورقة » ، ثم يلحقها الاستثناء الذى لحق هذه : فيكون معنى « ولاحبة فى ظلمات الأرض » : ولا تسقط حبة فى ظلمات الأرض إلا يعلمها » .

وقالوا مثل ذلك فى كلمتى « رطب ويابس » ، فيكون المعنى فيهما : « ولا يسقط رطب ولايابس إلا يعلمه » .

وهذا تفسير فيه تكلف ، وإعراب فيه انحراف عن الجادة ، فهو لايستقيم به الأمر مع مايتبادر إلى الذهن ، وينطبع فى النفس من المعنى الذى تفيده تلك العبارات البليغة الواردة فى الآية الكريمة : «ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين » .

إنه إذا كان ورق الشجر يصح أن يوصف بالسقوط ، كما هو معهود ، وكما يدل على ذلك قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة » فهل يصح أن يكون مثل ذلك فى « الحبة » تكون فى ظلمات الأرض ؟ هل يمكن أن يقال فى جانب هذه الحبة : وما تسقط حبة فى ظلمات الأرض ، كما قيل فى الورقة تسقط من الشجرة ؟ ثم إذا كان معلوما أن الورقة يكون سقوطها من الشجرة فمن أين يكون سقوط الحبة التى فى ظلمات الأرض ؟

وإذا أمكن أن يقال ذلك فى جانب الحبة أيضا مع مافيه من التكلف فماذا يصنع فى كلمتى « رطب ويابس » وقد وردتا فى الآية مورد الحبة ؟ هل يصح أن يقال فيهما : « وما يسقط رطب ولايابس » ؟

هذا شئ نراه بعيدا وفيه تكلف شديد :

ثم ماذا يكون – بعد ذلك كله – موقع قوله تعالى : « إلا فى كتاب مبين » بعد قوله سبحانه : « إلا يعلمها » الذى هو استثناء منسحب بالضرورة على الحبة والرطب واليابس ، بحكم عطفها على « ورقة » على ما جرى عليه أولئك العلماء ؟

إن الكلام – على ما جروا عليه فى التفسير – يتم عند قوله تعالى : « ولا رطب ولا يابس » فهو كلام مستوف أركانه ، ومشتمل على الحكم بتحقق علم الله تعالى بجميع ماذكر فى الآية من أحوال الورقة والحبة والرطب واليابس ؛ وذلك هو ما يفيده قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس » ، فإن معناه أنه لايكون شئ من ذلك إلامعلوما لله تعالى وإذا كان الأمر كذلك فكيف يفهم قوله تعالى فى ختام الآية : « إلا فى كتاب مبين » ؟ وكيف يقع موقعا مناسبا مما قبله ؟ وعلى أى وجه إعرابى يتصل به ؟ إن طريقة أولئك العلماء فى تفسير الآية وإعرابها تجعل عبارة الاستثناء هذه قلقة فى موضعها ، منعزلة عما قبلها . وغاية ماستطاع فريق منهم أن يوجهوا به ذلك الاستثناء أنهم قالوا إنه

بدل من الاستثناء الأول : بدل اشتمال إن أريد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ، وبدل كل من كل إن كان المراد به علم الله تعالى.

أما « الزمخشرى » فقد اكتفى بأن قال : إن الاستثناء الثانى هو كالتكرير للاستثناء الأول ، لأن معنى « إلا يعلمها » هو معنى « إلا فى كتاب مبين » .

وقد تابعه فى ذلك فريق من المفسرين .

ورأينا فى هذه الطريقة أنها — مع كونها عسرة ، وفيها ، تكلف لايزول بها قلق ذلك الاستثناء الثانى فى موضعه، ولاضعف ارتباط بما قبله .

النتيجة

ونتيجة البحث أنه من أجل تلك الوجوه التى أشرنا إليها : وجوه الضعف التى ينطوى عليها تفسير أولئك العلماء للآية — يكون من الواجب العدول عن ذلك التفسير إلى شئ آخر يتفق مع بلاغة القرآن وروعة بيانه وقوة نظامه .

والرأى فى ذلك أن العطف الوارد فى الآية ليس من عطف المفردات ، كما جرى عليه أولئك العلماء ؛ فليست كلمة « حبة » معطوفة على « ورقة » . ولا كلمة « رطب » أو كلمة « يابس » معطوفة عليها كذلك ؛ وإنما الكلام من عطف الجمل بعضها على بعض .

فقوله تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » كلام تام ، و جملة مستقلة لايلحق بها شئ من المفردات التى بعدها .

وقوله سبحانه : « ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين » — جملة أخرى معطوفة عليها .

وقد جاء الحكم فى هذه بطريقة القصر : « بالاستثناء بعد النفى » كما جاء فى الأولى

وهذا الذى نقوله هو الذى تقضى به بلاغة القرآن وبراعته، وتتحقق به مفردات أصول اللغة وقواعد النحو .

وهو — أيضا — الذى تشهد له قراءة أخرى متواترة ، ترفع كلمات : « حبة ورطب ويابس » ؛ فهى مرفوعة على أنها مبتدأ ، والخبر هو ما تضمنه الاستثناء ، وقد قيل: إن القرآن يفسر بعضه بعضا ؛ وإذاً فما أجمل أن تفسر قراءاته ، بعضها ببعض .

لكن قد يقال : إنه ظاهر على قراءة الرفع أن تكون الجملة اسمية من مبتدأ وخبر فكيف يكون الأمر على قراءة الجر ؟

والجواب « أنه يكون كذلك ؛ فإن تلك الكلمات المجرورة مرفوعة المحل ، على تقدير من «الزائدة التى دل عليها التصريح بها فى الجمل السابقة وتقدير الكلام : « ولا من حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

فكلمة حبة المجرورة بحرف الجر الزائد المقدر تعرب مبتدأ مرفوعا تقديرا : وقد عطف عليها بالجر الظاهر كلمتا ، رطب ويابس ، فدخلتا بذلك فى حكم المبتدأ ، ويكون الخبر هو ما تضمنه الاستثناء الذى فى آخر الآية «إلا فى كتاب مبين » . ونظير هذا قوله تعالى : وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين (٧٥ النمل) فإن كلمة « غائبة » وقعت مبتدأ ، وهى مجرورة ظاهرا بحرف الجر الزائد « من » وخبر المبتدأ قوله سبحانه إلا فى كتاب مبين » وقد عثرنا —بعد كتابة ما تقدم — على مايقوى هذا الرأى ويستأنس به فيه من كلام الزمخشرى فى موطن آخر من التفسير ، وهو ما قاله فى تفسير قوله تعالى « : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» (٦١ يونس) وهذا نص ما كتبه على قوله سبحانه : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » : قال رحمه الله :

(القراءة بالنصب والرفع : والوجه النصب على نفى الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاما برأسه) ثم قال (: وفى العطف على محل « من مثقال ذرة » أو على لفظ مثقال ذرة فتحـاً فى موضع الجر لامتناع الصرف — إشكال ، لأن قولك : « لا يعزب عنه شئ إلا فى كتاب مبين» « مشكل) ا . هـ . وهكذا يقرر العلامة « الزمخشرى » أن عطف أصغر وأكبر على ماقبله عطف مفردات مشكل على كلتا القراءتين فلا يصح أن يكون رفعهما بطريق العطف على محل من مثقال ذرة « ، الذى هو المعنى فاعل « يعزب » ، كما لا يصح أن يكون نصبهما بطريق العطف على لفظ «مثقال» ، ويكون جرهما بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنهما ممنوعان من الصرف — لا يصح عطفهما كذلك ، لأنه يؤدى إلى أن يقال — فى تقدير الآية :

وحاصل معناها : «وما يعزب عن ربك شيء إلا فى كتاب مبين» ؛ أى وذلك شىء لا يستقيم فى الفهم ، ولا ينبغى حمل القرآن الكريم عليه .

هذا الذى يقرره الزمخشرى هنا فى آية «يونس» هو فى غاية الدقة والوجاهة.

ومثله ، ماقا له فى تفسير آية ٣ من سورة سبأ ، وهى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ».

فإنه —رحمه الله — قال فى تفسير قوله تعالى : «ولا أصغر من ذلك ولا أكـ » ما نصه : وقرئ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء ، وبالفتح على نفى الجنس كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله «بالرفع والنصب ، وهو كلام منقطع عما قبله . . ثم قال : فإن قلت : هل يصح عطف المرفوع

على « مثقال ذرة» كأنه قيل :«لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر، وزيادة «لا» لتأكيد النفي ،وعطف المفتوح على « ذرة» بأنه فتح فى موضع الجر لامتناع الصرف كأنه قيل :«لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟«قلت»: يأبى ذلك حرف الاستثناء ا.هـ .

هذا كلام الزمخشرى » أيضا فى آية«سبأ» وهو ليس أقل دقة ولا قوة مما قاله فى آية يونس » :

غير أننا نلحظ أن بين ما قرره فى إعراب هاتين الآيتين وما جرى عليه فى إعراب آية «الأنعام » التى قدمناها اختلافا ظاهرا، فإن الوجه الإعرابى الذى اعترض عليه فى الآيتين وقال إنه يترتب عليه إشكال أو يأباه الاستثناء هو الذى سار عليه فى إعراب آية الأنعام فقد قال هناك ما نصه:«ولا حبة ولا رطب ولا يابس » عطف على«ورقة » وداخل فى حكمها ، كأنه قيل :« وما يسقط من شئ من هذه الأشياء ، إلا يعلمه ».وقوله: « إلا فى كتاب مبين » كالتكرير لقوله:« إلا «يعلمها »، لأن معنى«إلايعلمها» ، ومعنى إلا فى كتاب مبين»واحد ، والكتاب المبين علم الله تعالى أو اللوح. ثم قال: وقرئ « ولا حبةولا رطب ولا يابس»بالرفع ،وفيهوجهان: أن يكون عطفا على محل « من ورقة : » وأن « يكون رفعا على الابتداء . وخبره «إلا فى كتاب مبين » ، كقولك:«لا رجل منهم ولا امرأة إلا فى الدار» . ا هـ .

هذاهو الوجه الإعرابى الذىلم يرض الشيخ الزمخشرىأن تجرىعليهآيتايونس«وسبأ»لمايترتب عليه مما قاله فى الموطنين . ونحن نقول : إنه إذا كان لا يرضى أن يكون العطف فى هاتين الآتيين من قبيل عطف المفردات . لأنه يترتب عليه إشكال كما عبر بذلك فى يونس ، ولأنه يأباه الاستثناء كما عبر بذلك فى سبأ : إذا لا يصح أن يقال:« وما يعزب عن ربك شئ إلا فى كتاب مبين ولا أن يقال « يعزب عنه مثقال ذرة إلا فى كتاب مبين »— نقول إنه إذا كان كذلك لذلك فإنه لايصح أيضا أن يكون العطف فى آية الأنعام من عطف المفرادات،لأنه يترتب عليه ما قلناه من وصف الحبة و الرطب واليابس بالسقوط الذى لا يظهر أن يكون وصفا إلا للورقة التى تسقط من الشجرة ، ولأنه يترتب عليه أيضا تكرير الاستثناء على ذلك النحو غير المعهود فى أسلوب القرآن الحكيم : وذلك أن نظم الآية يصير — على ذلك الوجه الإعرابى— هكذا :«وما يسقط من ورقة ولا حبةولا رطب ولا يابس إلا يعلمه إلا فى كتاب مبين » .

على أنه لو كان هذان الاستثناءان قد وردا فى الآيةهكذا متصلين من غير فصل بينهما لهان الأمر بعض الشيء ، ولأمكن أن يقال : إن الثانى تكرير للأول كما قال الزمخشرى أو بدل منه كما قال غيره ، ولكن الفصل بينهما بما جاء فى الآيةمتعلقا بالحبة والرطب واليابس من شأنه أن يبعد ذلك ويجعل

الاستثناء الثانى مرتبطا بهذه الثلاثة : « الحبة والرطب واليابس ، وحدها ، ليكون حكما عليها وحدها . وبذلك لا تكون له علاقة بالاستثناء الأول .

هذا — وعلى أساس مااخترناه ورجحناه — من أن قوله تعالى : « ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين » هو جملة معطوفة على الجملة قبلها وأنه ليس من عطف المفردات — نقول : إنه يمكن أيضا أن تكون هذه الجملة المعطوفة جملة فعلية على تقدير فعل كينونة مع « من الزائدة » ، ويكون التقدير هكذا : « ولايكون من حبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين ».

غير أنه قد يعترض على هذا الوجه من الإعراب بأن البصريين لا يجيزون باطراد حذف فعل الكينونة ، فإنهم يمنعون حذفه فى كل موطن ليس فيه « إن » أو « لو » أو يقولون إن ذلك كما أشار إليه ابن مالك فى قوله :

ويحذفونها ويبقون الخبر
وبعد إن ولو كثير إذا اشتهر

وإذا كان الأمر كذلك فلايصح أن تخرج الآية على ذلك ذلك التعليل. ولكن يجاب عن ذلك بما قررناه غير مرة ونقرره دائما : أنه لاينبغى أن يلتزم فى إعراب القرآن مذهب طائفة خاصة من النحويين ، بصرية كانت أو كوفية ، وأنه لم يقل أحد إن القرآن فى إعرابه قد نزل على على طريقة البصريين . ثم لاينبغى أن يذهب عاقل متبصر إلى أن مذهب النحاة البصريين هو أصح المذاهب الإعرابية وأرجحها فى كل شيء وكل موطن وبغير استثناء فإن الجنوح إلى ذلك يكون من الجهل الفاضح .

ويمكن أن يستأنس فى هذا المقام بما ورد فى الصحيحين — فى حديث بدء الوحى من قول « ورقة بن نوفل » : « ياليتنى فيها جذعا » بنصب كلمة جذع ، وماقاله الشيخ « الزرقانى » شارح « المواهب » فى ذلك (جـ ١ ص ٢١٥) مما حكاه عن « الخطابى والمازنى وابن الجوزى » — فى إعراب « جذعا » بالنصب أنه على تقدير فعل كينونة ، وأن هكذا يجرى على مذهب الكوفيين ويكون تقدير الكلام عليه هكذا : « ياليتنى أكون فيها جذعا » .

وذلك كما قدر الكوفيون أيضا فعل الكينونة فى قوله تعالى : « ولاتقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم » (١٧١ النساء) فإنهم قالوا : إنه على معنى « انتهوا يكن خيرا لكم » . ولا شك أن هذا تقدير صحيح وتخريج قوى جيد للآية الكريمة يرجح به مذهب الكوفيين عن مذهب البصريين . والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

عبد الرحمن تاج
عضو المجمع الراحل

سيبويه

للدكتور الشيخ محمد الفحام

تحدثنا كتب الأدب، وكتب التاريخ وكتب الطبقات، عن أربعة من النحاة، لقب كل منهم بسيبويه وهم:

أبو بشر، عمرو بن عثمان، البصرى.

وأبو بكر، محمد بن موسى، المصرى.

وأبو الحسن، على بن عبد الله، المغربى.

وأبو نصر، محمد بن عبد العزيز، الأصبهانى.

أربعة من العلماء، تعددت أسماؤهم، وتنوعت كناهم، وتفرقت بلدانهم، ولكن جمعهم، لاشتغالهم بالنحو، وشهرتهم به، لقب واحد: «سيبويه».

وقبل أن نسلط الأضواء على كل واحد من هؤلاء العلماء، إحياء لذكرهم، وتنويهاً بشأنهم، وتقديرا لفضلهم وإظهارا لآثارهم، نرى أن نعرض لقضية لغوية عرض لها كثير غيرنا من العرب والمستشرقين.

تلكم قضية لفظة «سيبويه» أصلها وضبطها ومعناها.

لفظة سيبويه أعجمية فارسية مؤلفة من كلمتين: «سيب» و«ويه»

ومعنى «سيب» فى اللغة الفارسية «تفاح» ومعنى «ويه» فى اللغة الفارسية «رائحة»، ولاتزال لفظة سيب مستعملة فى الباكستان وفى الهند فى معنى تفاح. وكثيرا ماسمعت فى كل من لاهور وكراتشى من بلاد الباكستان، وفى فى كل من دلهى وبومباى من بلاد الهند باعة الفاكهة يقولون: سيب سيب، وهم يعنون: تفاحٌ تفاح.

فالترجمة العربية للفظة سيبويه الفارسية «رائحة تفاح». لقب بها أول مالقب -فيما نعلم- أبو بشر عمرو بن عثمان، إمام نحاة البصرة. وهو المراد منها عند الإطلاق فهى له على سبيل الحقيقة ولغيره على سبيل التشبيه أو المجاز.

تحقيق معنى لفظ سيبويه:

وماذكرناه من أن معنى كلمة سيبويه هو رائحة تفاح هو مانقلته لنا كتب الأدب وكتب التاريخ وكتب اللغة، وكتب النحو.

وفى مقدمة هذه الكتب «القاموس المحيط» للفيروزابادى، «ولسان العرب» لابن منظور و«وفيات الأعيان» لابن خلكان «ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء» لابن

الأنبازى و« معجم الأدباء »لياقوت و«بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطى و«أخبار النحويين البصريين » للسيرافى و« الفهرست »لابن النديم و«مفتاح السعادة» للمولى أحمد بن مصطفى و«حاشية الأمير على المغنى » . وغير ما ذكرنا كثير .

تعقيب بعض المستشرقين (فرتس كرنكو) :

ولقد عقب بعض المستشرقين الألمانيين « فريتس كرنكو » فى مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية بعنوان « سيبويه »على ماكتبه المؤلفون العرب من أدباء ومؤرخين ولغويين ونحويين عقب على كلمة «سيبويه» من ناحيتين : من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ، أما من ناحية اللفظ فهو يقول: إن النطق الأصلي الفارسي لهذه الكلمةهو سِيبُويَه لاسِيبَوَيْه وأما من جهة المعنى فهو يقول : إن معنى « سيبويه » «تفاحة صغيرة» «لارائحة تفاح ».

أما التعقيب من الناحية اللفظية الذي ملخصه أن لكلمة سيبويه فى الفارسية نطقاً يغاير نطقها فى لسان العرب فسلم ونحن لاننكره، بل لقد ذكر ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » (جزءاص٥٥٠) بعد أن قال : « هكذا يضبط أهل العربية هذا الاسم ونظائره مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما. والعجم يقولون: سِيبُويَه بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها ؛ لأنهم يكرهون أنْ يقع فى آخر الكلمة « ويه » لأنها للندبة . »

ولابأس علينا نحن الناطقين بالضادأن ننطق بهذه الكلمة وأمثالها على وجه يخالف نطقها فى لغة العجم فليس بدعاً فى اللغات أن تستعار كلمة من لغة إلى أخرى فيدخل فيها تغيير وتبديل . تغيير حرف بحرف أو حركة بحركة أو سكون فلكل مستعير أن يتخير من الحروف والحركات ماعذب على لسانه ، وخف على سمعه ، وقبل فى ذوقه، واقتضته قواعد لغته .

تشبيه الكلمات فى اللغات بالأفراد فى الامم :

وقد شبه علماء فقه اللغة الكلمة تستعار من لغة الى أخرى ، « بالفرد من الأمة » يخرج من أمته ليدخل فى أمة أخرى ، يتجنس بجنسيتها ، ويصطبغ بصبغتها ، يعتاد عوائدها ، ويحافظ على تقاليدها ، ويتكلم بلغتها ، ويخضع لأحكامها وقوانينها ، فإذا هو واحد من أبنائها ، وإذا الصلة بينه وبين القديم قد انقطعت .

ولقد نطق العرب قديما بألفاظ أعجمية كثيرة وعربوها ، وأخضعوها لقواعد لغتهم وقوانينها اللغوية من صرفية ونحوية ، فحذفوا منها حروفا وأبدلوا منها حروفا بأخرى وجمعوها جمع الأسماء العربية ، وثنوها ، وصغروها ، ونسبوا إليها ، وعاملوها معاملة الألفاظ العربية . لقد عربوا SANTAMARIA الأسبانيةوهى بالفرنسية SANTEMARIE وهى بالعربية « السيدة مريم » اسم بلد من بلاد الأندلس الغربية ؛ فنطقوا بها

شنتمريه» ونسبوا إليها فقالوا «اسنتمرى» ومنها الأعلم الشنتمرى أبو الحجاج يوسف بن سليمان ابن عيسى المتوفى بإشبيلية سنة ٤٧١ هـ شارح شواهد كتاب سيبويه » فقلبوا السين شينا وزادوا ياء النسب فى آخر الكلمة، كما تزاد فى الكلمات العربية البحتة إذا نسب إليها. وهاهم أولاء الفرنسيون قد استعاروا من اللغة العربية ألفاظا كثيرة لاتحصى عداً فاصطبغت بصبغة فرنسية ، وتصرفت تصرف الكلمات الفرنسية وعوملت معاملتها فأصبحت واحدة منها .

نذكر منها على سبيل المثال كلمة «قنطار» فقد استعارها الفرنسيون كما قال لاروس فى معجمه من اللغة العربية ، فنطقوا بها كنتال CANTAL فأبدلوا القاف كافاً، وكسرتها فتحة وأبدلوا الطاء تاء ، والراء لاماً . ودخلت الكلمة بذلك فى عداد الكلمات الفرنسية المختومة «بأل » فجمعت جمعها Quantaux بعد ان كانت تجمع فى العربية على قناطير كما يجمع Journal على Journaux Cheval على Chevaux general على generaux وهكذا

وأما التعقيب على المعنى فهو ماأدهشنى حقا فانه عندى خبر جديد وغريب يناقض ماهو فى حكم المجمع عليه فى كتبنا بين علماء اللغة العربية من أن معنى «سيبويه» هو رائحة التفاح لاتفاحة صغيرة .

ولهذا قد عولت عملا بقوله تعالى : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون» عولت على سؤال العلماء بفقه اللغة الفارسية سألت كثيرا منهم وفى مقدمتهم الأستاذ الفاضل «منشى زاده » أستاذ الأدب الفارسى بجامعة الإسكندرية — ورب الدار أدرى بما فيها — فأجابونى جميعا بجواب واحد : أجابونى بما يوافق كلام ذلكم المستشرق

لا رائحة تفاح . فلعل مانقلته لنا كتب اللغة من باب الخطأ المشهور أو لعل هذه الكلمة (ويه) لها استعمالان فى اللغة الفارسية فهى تستعمل تارة بمعنى رائحة وأخرى «أداة تصغير »

ونقل ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » جزء ١٦ ص ١١٥ قولا آخر غريبا عن ابن خالويه وملخصه أن سيبويه مؤلفة من كلمتين «سى» و« بويه » وأن معنى « سى» ثلاثون ومعنى « بويه» رائحة فمعنى سيبويه مع هذا ثلاثون رائحة ومثل هذا قال الزبيدى فى كتابه « طبقات النحويين واللغويين » .

ثم قال ياقوت : ولم أر أحدا قال ذلك غير ابن خالويه .

ولقد ورد على لسان بعض العرب النطق الفارسى فى سيبويه وأمثاله » مثل نفطويه وخالويه وعمرويه وخمارويه وشيرزويه ودرستويه

من ذلك قول ابن بسام فى شعر له يذم فيه نفطويه فيه (توفى فى بغداد سنة٣٠٣) :

رأيتَ فى النوم أبى آدما
صلى عليه الله ذو الفضل
فقال : أبلغ ولدى كلهم
من كان فى حزن فى سهل
بأن حوّا أمّهم طالق
إن كان نفطويه من نسلى

قال السيوطى فى كتابه بغية الوعاة . فى طبقات اللغويين والنحاه. ص ١٨٧ بعد أن نقل هذا الشعر مانصه: قلت هذا : اصطلاح لأهل الحديث فى كل اسم بهذه الصيغة، وإنما عدلوا إلى ذلك لحديث ورد : إن «ويه» اسم شيطان » فعدلوا عنه كراهة له.

على أنه قد ورد نفطويه على النطق العربى فى شعر لمحمد بن الحسن بن دريد توفى سنة٣٢١ ه يذمه فيه :

لو أنزل الوحى على نفطويه
لكان ذلك الوحى سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه
مستأهل للصفع فى أخدَعيْه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصيَّرَ الباقى صراخاً عليه

وكان هذا الشعر من ابن دريد بعد أن قال فيه نفطويه :

ابن دريد بقرهْ
وفيه عىٌّ وشرهْ
ويدعى من حمقه
وضع كتاب الجمهرهْ
وهو كتاب العين إلاّ أنه قد غيره

سيبويه الاصفهانى :

أما سيبويه الأصفهانى : « أبو نصر محمد بن عبد العزيز » فقد ذكره السيوطى فى كتابه « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص٦٧ » :

وبعد أن ذكر نسبه قال : قال يحيى بن منده فى تاريخ أصبهان : هو حسن الأدب ، أحد وجوه العلم، عالم باللغة والنحو، حدث عن ابن فارس وغيره .

وقال القفطى فى كتابه : « إنباه الرواة على أنباه النحاة» (ج ٣ ص٢٦٩) : قال ابن منده : وأنشدنا أبو نصر الملقب بسيبويه قال : وأنشدنا أبو الحسين أحمد بن فارس عليه رحمة الله :

إذا كنت فى حاجة مرسلا
وأنت بها كلف مُغْرَمْ
فأرسل حكيما ولاتوصه
وذاك الحكيم هو الدرهمْ

هذان البيتان تشطير لبيت قديم :

إذا كنت فى حاجة مرسلا
فأرسل حكيما ولاتوصيه

وقد ألقى هذا الخبر شعاعاً من نور على تاريخ سيبويه الأصفهانى فقد علمنا منه أنه لقى ابن فارس وسمع منه ، ومعلوم أن ابن فارس كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى وأنه توفى سنة ٣٩٥ فعرفنا من ذلك (على الأقل) أو (على الأكثر) أن سيبويه الأصبهانى كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى .

وعبثاً حاولت إذ أردت الوقوف على شىء من تاريخ سيبويه الأصفهانى ، ومن أخباره وآثاره العلمية فى مكان وجودها فتاريخ أصبهان لابن منده (أبى زكريا يحيى ابن عبد الوهاب المتوفى سنة ٥١٢ هـ) الذى ينقل عنه كثيراً القفطى والسيوطى لا وجود له بمصر على ما وصل إليه بحثى — وتاريخ أصبهان لأبى نعيم قد أغفل ذكر نحوى أصبهان الملقب بسيبويه .

تاريخ أبى نعيم مجلدان طبع فى ليدن سنة ١٩٣١ وبدار الكتب ثلاث نسخ بأرقام (٤٧٣٠ ، ٤٧٣١ ، ٤٧٣٢ تاريخ) .

سيبويه المغربى :

وأما سيبويه المغربى : أبو الحسن على ابن عبد الله بن إبراهيم الكوفى المغربى المالكى النحوى فقد ولد فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وتوفى بالقاهرة يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٦٦٧ هـ وكان النحو يغلب عليه حتى فى غزله : ومن شعره :

عذبت قلبى بهجر منك متصل
يا من هواه ضمير غير منفصل
مازال من غير تأكيد صدودك لى
فما عدوالك من عطف إلى بدل

ولمحمد بن طيفور النحوى شعر كهذا

أزال الله عنكم كل آفـــة
وسد عليكم سبل المخافة
ولا زالت نوائبكم عليكم
كنون الجمع فى حال الإضافة

سيبويه المصرى :

تاريخ ميلاده ووفاته

وأما تاريخ سيبويه المصرى فهو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى ، ولد بمصر سنة ٢٨٤ هـ أربع وثمانين ومائتين ، وتوفى بها فى صفر سنة ٣٥٨ هـ ثمان وخمسين وثلثمائة وعمره ٧٤ أربع وسبعون سنة قبل دخول القائد جوهر مصر بستة أشهر .

تأسف القائد جوهر لوفاته

وقد تأسف القائد جوهر لما ذكرت له أخباره وقال : لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز — صلوات الله عليه — فى جملة الهدية .

فقد كان — رحمه الله تعالى — متحلياً بصفات المتقدمين والمتصدرين ، عالماً بمعانى القرآن ، وقراءاته ، وغريبه وإعرابه ، وأحكامه ، عالماً بالحديث وبمعانيه ، وغريبه ، والرواة .

ويعرف من النحو والغريب مالقب من أجله بسيبويه ...

لقد جمع بين شارات الزاهدين الورعين الصالحين وأدوات المتأدبين وفكاهة المنادمين؛ وجالس الإخشيد ووزيره، وكان مقرباً منهما.

شهادة أستاذ له :

وكان مقبلا على العلم ، شديد الرغبة فى التحصيل . أدرك ذلك منه أستاذه : أبو جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ هـ فقال له يوماً : «لو كان كل من سمع منى مثلك لما استحللت أن أكتم وكنت أنا أمضى إليهم» .

نقد سيبويه المصرى المتنبى فى شعره :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بد

فقال : هذا كلام فاسد ، لأن الصداقة ضد العداوة (فلا تجتمعان) والصداقة من الصدق ولو كان قال :

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى
عدواً له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود .

ومن شعره فى الوعظ :

من لم يكن يومه الذى هو به
أفضل من أمسه ودون غده
فالموت خير له وأفضل من
حياة سوء تفت فى عضده

وله شعر يجرى على أسلوب ذلكم العصر الذى كان يعيش فيه والذى كانت فيه ريح الأدب راكدة فى مصر .

طائفة من شعره :-

فمن شعره فى الشكوى ، والحث على طلب العلم ، وحرية البحث والنظر وكان قد أرسلها إلى أستاذه أبى جعفر الطحاوى :

غاض الوفاء وساءت عشرة الناس
واستحكم اليأس من مرضىٍّ جُلاَّس
إلا صبابة أقوام كأنهمو
مثل الجواهر فى أحجار أرماس
فما سبيل من الدنيا نهم به
إلا وأرجاؤه مخشيَّة البأس
أما سبيل اطراح العلم فهو على
ذى اللب أعظم من ضرب على الراس
فإن سلكت طريق العلم تطلبه
بالبحث أبت بتكفير من الناس
وإن طلبت بلا بحث ولا نظر
لم تضح منه على اتفاق إمساس
وإن ذهبت بلا علم ضللت ولم
تعرف رشادك من غىٍّ وإركاس
وإن قعدت إلى الدنيا لتؤثرها
أضعت دينك فى فقر وإبساس
وإن بقيت بلا علم ولا نشب
ولا تُقىً كنت من أشباه نسناس
فاستر لنفسك إذ حال الأمور كذا
ستر امرىء عالم بالأمر قيّاس
واختر لنفسك ما زادت فواضله
على نواقصه تختر بقسطاس
واقصد إلى العلم لا تبغى به بدلا
فالعلم من أجله كونت فى الناس

وانبذ مقالة من ينهاك عن ظلع
نبذ الطبيب لداء القرحة الآسي

فمن يعش في أصا من علمه بكذا
قالوا يكن منه في شك وإلباس

واطلب لنفسك ماعفت مكاسبه
وصان نفسك عن ذل وإلداس

ولا تغرنك الدنيا وزينتها
فإنها فتنة تطغي بوسواس

وقد جمع الحسن بن إبراهيم بن زولاق المتوفى في ٢٥ ذي القعدة سنة ٣٨٦ معاصر سيبويه المصري وصديقه ومؤرخ مصر في القرن الرابع الهجري، أخبار سيبويه المصري ونوادره وشعره ونثره في كتاب سماه «أخبار سيبويه المصري». ومن هذا الكتاب نسخة بخط المؤلف نفسه «الحسن بن زولاق» يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري وهي من أنفس ماتحتويه دار الكتب المصرية بالقاهرة لأنها تعتبر أقدم مؤلف في الأدب الإسلامي المصري من القرن الرابع الهجري، ولأنها بخط المؤلف نفسه، ويرجع تاريخها لنحو ألف عام، وقد طبع لأول مرة سنة ١٣٥٢–١٩٣٣م وصدر بمقدمة للأستاذ: محمد عبد الله عنان المحامي.

سيبويه البصري :

وأما سيبويه البصري — وهو في الحقيقة موضوع كلامنا وباعث رغبتنا في الحديث — فهو إمام البصريين وشيخ النحاة أجمعين. وأول من لقب بهذا اللقب، فيما نعلم.

وهو عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي من أصل فارسي ولم يرد مصدر ما، من المصادر التي بين أيدينا على كثرتها على هذه الأسماء الثلاثة : عمرو بن عثمان بن قنبر ولم يختلف اثنان في ضبط اسمه واسم أبيه : « عمرو بن عثمان » ولكن خلافا حدث في ضبط اسم جده «قنبر» فقيل هو قَنْبَر كجعفر، وقيل : قُنْبُرُذ كَقُنْفُذَة. وقيل قُنَّبَرَة كَحُمُّرَة.

وقد جاء ذكر اسمه واسم ابيه واسم جده في شعر للزمخشري يترحم عليه فيه:

ألا صلى الإله صلاة صدق
على عمرو بن عثمان بن قَنْبَر

فإن كتابه لم يغن عنه
ذوو قلم ولا أصحاب منبر

وهذا الشعر يتفق والضبط الأول «قَنْبَر» لا الثاني ولا الثالث.

وأما كنيته فهي «أبو بشر» «وأبو الحسن» فله كنيتان، ولكن «أبو بشر» أكثر استعمالا وتداولا ودورانا على الألسنة من أبي الحسن

وأما «سيبويه» فلقب غلب على اسمه «عمرو» وعلى كنيتيه «أبي الحسن» «وأبي بشر» فاشتهر به وفي توجيه تلقيبه بهذا اللقب أحاديث كثيرة وآراء مختلفة — وأقوال شتى. حسبنا منها هنا ثلاثة :

قال قائل: إنه كان يحب شم رائحة التفاح، تلك كانت خاصة من خواصه ولازمة من لوازمه عرف بها فلقب باسمها. وقال آخر: إنه كانت له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح فلقب بها، وقال ثالث: ان الكلام ليس على حقيقته فلم يكن يحب شم التفاح ولم تكن له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح بل الكلام فيه شئ من التجوز.

والمعروف ممن شاهدوا سيبويه ورأوه رأى العين وخالطوه وعاشروه أنه كان شابا ظريفا لطيفا جميلا فلقب بذلك لظرفه وجماله ولطفه.

قال إبراهيم الحربى المولود سنة ١٩٨ المتوفى ببغداد سنة ٢٨٥ هـ (القفطى حـ ١ ص ١٥٥–١٥٨ والسيوطى ١٧٨): سمى سيبويه لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان وكان فى غاية الجمال..

وقيل إن أمه هى التى وضعت له هذا اللقب، فكانت ترقصه به فى صغره فلازمه فى كبره.

تاريخ ميلاده:

لم يعرف بالضبط تاريخ ميلاده وكل ماذكره المؤرخون فى هذا المقام لايفيد إلا الظن «وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً».

مكان ولادته:

أما مكان ولادته فمدينه من مدن فارس قرب شيراز تسمى «البيضاء» وهى بلدة الحسينى الحلاج المتصوف المشهور والقاضى البيضاوى المفسر الشهير وجماعة آخرين من العلماء والقراء والصوفية والفقهاء ذكرهم ياقوت فى كتابه معجم البلدان عند كلامه عن البيضاء.

وقد ترك سيبويه البيضاء مسقط رأسه وهو صغير السن فى سن لاتستطيع تحديدها وذهب إلى البصرة التى كانت مزدهرة بالعلم غنية بالعلماء ومالت نفسه إلى دراسة الفقه والحديث على إمام الحديث، وشيخ أهل البصرة: «حماد بن سلمه» بن دينار النحوى اللغوى مولى ربيعة بن مالك الامام المشهور وكان حماد هذا إماما فاضلا تقيا صالحا ورعاً زاهداً حجة ثقة فصيحا بليغا (توفى فى ذى الحجة سنة ١٦٧ سبع وستين ومائة) شهد له يونس بن حبيب النحوى فقال: (كان حماد رأس حلقتنا ومنه تعلمت العربية) وشهد له الحرمى فقال: «مارأيت أفصح منه» وفيه يقول أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدى:

ياطالب النحو ألا فابكه
بعد أبى عمرو وحماد

ومن كلمات حماد المأثورة عنه:

«من لحن فى حديثى فقد كذب على» ومنها «مثل الذى يطلب الحديث ولايعرف النحو مثل حمار عليه مخلاة ولاشعير فيها».

ويحدثنا التاريخ عن مسألتين لسيبويه مع حماد بن سلمة:

الأولى :

سأله سيبويه يوماً فقال : أحدثك هشام بن عروة عن أبيه فى رجل رعف فى الصلاة؟

فقال حماد : أخطأت ياسيبويه إنما هو رعف ، فانصرف سيبويه إلى الخليل شاكياً مالقيه به حماد فقال الخليل لسيبويه : « صدق حماد » أمثله يلقى بمثل هذا المعنى ؟

الثانيــة :

كان سيبويه يستملى يوماً على حماد ، فقال حماد : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ما من أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فظن سيبويه أن حماداً لحن فى حديثه فاستعمل المنصوب مكان المرفوع ، فرد على حماد قائلا : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحنت ياسيبويه : « ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه « لا جرم لأطلبن علماً لا تلحننى فيه أبداً . » وفى رواية أخرى : « لا جرم لأطلبن علماً لا يلحننى فيه أحد » .

تلك هى المسألة التى حركت فى نفس سيبويه الرغبة الشديدة فى تعلم النحو فعنى به، وأقبل عليه وتفرغ له وانقطع إليه حتى بلغ الغاية منه .

فضرب به المثل فى التبريز فى النحو والعلم بدقائقه ، وتفاصيله ، وأسراره ، وغريبه ، والتصرف فى أحكامه فغطى اسمه على أسماء الذين تقدموه من العلماء وإن كانت لهم فيه أسرار محمودة ، ولهم فضل السبق .

وأصبح لفظ سيبويه رمزاً للعالم بدقائق علم النحو : الخبير بأسراره : المتصرف فى مسائله الذى لا تخفى عليه منه خافية .

وما زال اسمه فى النحو واللغة كحاتم فى الجود ، وكقس فى الفصاحة أى أنه صار المثل الأعلى فى بابه وصار أعلم أهل عصره واستحق بجدارة لقب : (إمام البصريين بل شيخ النحاة أجمعين) :

شهادة ابن خلدون لابن هشام صريحا لسيبوية ضمنا :

ولما بلغ ابن خلدون خبر جهال الذين بن هشام ، النحوى المصرى ، وأراد أن ينوه باسمه بفضله قال : مازلنا نسمع — ونحن بالمغرب — أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : « ابن هشام أنحى من سيبويه » .

ومن شعر للقطرب :

فأعلم بالنحو من سيبويه
وأجود بالمال من حاتم

ونحن مازلنا نسمع ونقرأ فى كتب الأدب والتاريخ ، عند وصف عالم نحوى لغوى فيقال : هو سيبويه زمانه وفريد عصره وأوانه .

شيوخ سيبويه :

أشهر شيوخ سيبويه الذين اتصل بهم ، وأفاد منهم بعد حماد بن سلمة الذى قدمنا ذكره خمسة : وهم بحسب ترتيب سنة وفاتهم :

١ — عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ هـ وكنيته أبو سليمان ، ويقال :

«أبو عمر» وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن إسحاق. وكان حجة، ثقة، عالماً بالعربية، والنحو، والقراءات. قراءته مشهورة، وكان فصيحاً، يتقعر في كلامه، ويعدل عن السهل من الألفاظ إلى الوحشي منها والغريب. وقد حكي أنه سقط مرة عن حماره فاجتمع حوله الناس، فقال لهم: مالكم تكأكأتم عليّ، كتكأكئكم على ذي جِنّة؟ إفرنقعوا عني. أي مالكم اجتمعتم عليّ كاجتماعكم على رجل مجنون؟ إنصرفوا عني. وقد ألف في النحو كتابين: «الإكمال» و«الجامع» قال السيرافي في كتابه: «أخبار النحاة البصريين»: لم يقعا إلينا ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما. وفيهما يقول تلميذه الخليل:

ذهب النحو جميعاً كله
غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع
فهما للناس شمس وقمر

قال تاج الدين ابن مكتوم*: لفظ أحدث ليس بجيد، ولو قال: غير ما ألف أو صنف أو أبدع لكان أجود.

٢ — الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن الفراهيدي أو الفرهودي، صاحب كتاب العين، وواضع علم العروض المولود سنة ١٠٠ هـ والمتوفى سنة ١٧٥ هـ وكنيته «أبو عبد الرحمن» نحوي لغوي عروضي استنبط من العروض، وعلله مالم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم. وكان يقول: إن لم تكن هذه الطائفة — يعني أهل العلم — أولياء الله فليس له ولي». قيل: إنه دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه إليه أحد ولا يؤخذ إلا عنه فرجع من حجه، ففتح الله عليه بالعروض.

كان الخليل — رحمه الله من الزهاد في الدنيا المعرضين عنها، وكان عفيف النفس، لا يميل إلى صحبة الملوك والأمراء.

روى أن سليمان بن حبيب بن المهلب كان والياً على الأهواز وكان له على الخليل رزق جار فوجه إليه يوماً رسولا يلتمس منه الشخوص إليه لتأديب ولده، فاخرج الخليل إلى الرسول خبزاً يابساً وقال له: كل فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. قال له الرسول: فما أبلغه؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال
شحاً بنفسي إني لا أرى أحداً
يموت هزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال

فلما بلغ سليمان قطع عنه ماتجريه عليه فقال :

إن الذى شق فمى ضامـــــن
لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالا قليـــــلا فما
زادك فى مالك حرمانى

فبلغت هذه المقالة سليمان فأقامته وأقعدته وكتب إلى الخليل يعتذر إليه وضاعف له جائزته فقال الخليل :

وذلة بكثر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده
فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

وروى ابن خلكان أن الخليل كان يقطع بيتاً من الشعر فدخل عليه ولده فى تلك الحال فخرج إلى الناس وقال : إن أبى قد جن فدخل الناس عليه وهو يقطع بيتاً فأخبروه بما قال ابنه فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى
أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى
وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

قال وهب بن جرير : كان الخليل ابن أحمد كثيراً ما ينشد بيت الأخطل

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

واجتمع الخليل بن أحمد وابن المقفع ليلة يطولها يتذاكران وافترقا فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل؟ فقال : رأيت رجلا عقله أكبر من علمه والخليل هو استاذ سيبويه الأول ـ حكى سيبويه الكثير من المسائل عنه . وكلما قال سيبويه فى كتابه : وسألته أو قال : قال من غير أن يذكر الفاعل فانما يعنى بذلك الخليل ـ فإذا حكى قولا عن الخليل ثم أردفه بقوله : وقال غيره يعنى بذلك نفسه . وهذا مظهر من مظاهر أدب سيبويه مع أستاذه .

وكان الخليل يجله ويكرمه . قال ابن النطاح : كنت يوما عند الخليل فأقبل سيبويه فقال الخليل : مرحباً بزائر لا يمل قال أبو عمر المخزومى وكان كثير المجالسة للخليل : وما سمعت الخليل يقول لأحد إلا لسيبويه ، والخليل هو القائل :

اعمل بعلمى ولاتنظر إلى عملى
ينفعك علمى ولايضررك تقصيرى

٣ ـ الأخفش الأكبر وهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ وكان دينا ورعا ثقة .

وكان إماما فى العربية ، أخذ عنه سيبويه والكسائى ويونس وأبو عبيدة وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت وماكان الناس يعرفون ذلك قبله ؛ ولكن كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها ونقل عنه كثيرا فى كتابه فقال : وسألت أبا الخطاب

ولايفوتنا أن نذكر هنا أن فى النحاة أحد عشر نحويا يلقب كل منهم بالأخفش . أحدهم هذا وهو الملقب بالأخفش الأكبر وأما الأخفش الأوسط فهو سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١٠ أو ٢١٥ او سنة ٢٢١ تلميذ سيبويه ، وناشر كتابه بعده وهو المراد فى كتب النحو عند الإطلاق . وأما الأخفش الأصغر فهو على بن سليمان ابن الفضل المتوفى سنة ٣١٥ هـ ببغداد ٨٠ عاماً .

٤ ــ يونس بن حبيب :

ويونس بن حبيب البصرى المتوفى سنة ١٨٢هـ فى زمن هارون الرشيد (من أكبر النحويين أخذ عن أبى عمرو بن العلاء وسمع من العرب وكانت له حلقة بالبصرة يختلف إليها سيبويه إمام البصريين والكسائى إمام الكوفيين : والفرّاء وأبو زيد الانصارى وخلف الأحمر وغيرهم

قال أبو زيد الأنصارى : جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة حكى عنه سيبويه كثيرا فى كتابه وكان منقطعا للدرس والتحصيل . عاش تسعين سنة أو مائة سنة لم يتزوج ولم يتسرّ .

وقال يونس : فرقة الأحباب سقم الألباب . وأنشد :

شيئان لوسكب الدماء عليهما
عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشاد من حقيهما
شرخ الشباب وفرقة الأحباب

٥ ــ أبو زيد الانصارى سعيد بن أوس :

أخذ عن أبى عمرو بن العلاء وهو نحوى لغوى أديب . وغلبت عليه اللغة والغريب والنوادر وكان ثقة . وإذا قال سيبويه فى كتابه : سمعت الثقة فانما يعنى أبا زيد هذا ويروى عن أبى عبيدة والأصمعى أنهما سئلا عن أبى زيد الأنصارى فقالا : « ماشئت من عفاف وتقوى وإسلام » توفى سنة ٢١٥هـ فى خلافة المأمون وقد جاوز التسعين . وقد عد ياقوت من مؤلفاته ٣١ مؤلفاً أشهرها (كتاب النوادر) .

تلاميذ سيبويه :

١ ــ أبو الحسن سعيد ابن مسعدة الملقب بالأخفش الأوسط وهو المراد عند الإطلاق فى كتب النحو وهو أحد أئمة البصرة : أخذ عمّن أخذ عنه سيبويه لأنه أسنّ منه ، وكان كثير المخالطة لسيبويه عالما بأسرار كتابه ، وله الفضل فى نشره فقد مات سيبويه فى عنفوان شبابه ولم يعرف منه أنه قرأ كتابه على أحد أو أن كتابه قرئ عليه فكان سعيد بن مسعدة هو الطريق إلى نشر كتابه وقد قرأه عليه أبو عمر الجرمى وأبو عثمان المازنى وقرأه عليه الكسائى سراً ودفع له سبعين دينارا توفى سنة ٢١٠ أو ٢١٥ أو ٢٢١هـ ووكل إليه أمر تأديب أولاده وكلفه بتأليف كتابه فى معانى القرآن فألفه فجعله الكسائى إمامه وجعل علميه كتابا فى المعانى . وعمل الفراء كتاباً فى

ذلك عليهما وهو الذى طبعته حديثا دار الكتب المصرية .

قطرب :

وهو ابو على محمد بن المستنير البصرى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ببغداد أخذ النحو عن سيبويه وعيسى بن عمر وغيرهما ، وكان سيبويه يخرج من منزله بالأسحار فيراه على بابه فيقول له : إنما أنت قطرب ليل ومن معانى قطرب كما فى القاموس : اللص والذئب ودويبة تدب ولا تحمل ومن شعره :

إن كنت لست معى فالذكر منك معى

يراك قلبى إذا ما غبت عن بصرى

والعين تبصر من تهوى وتفقده

وباطن القلب لا يخلو من النظر

وكان له شعر من أجود شعر العلماء على قلته فمنه ماروى أن أبا القاسم المهلبى وكان من تلاميذ قطرب — جعل لقطرب جعلا على أن يقدمه على نفسه ، ويقر له بالعلم ويقول فى ذلك شعراً فأجابه إلى ذلك قطرب وقال :

ذا ما أقربه قطرب

على نفسه لأبى القاسم

وأشهد هود وحيهما عليه

وأشهد غزوان مع عاصم

بأن قال قد بذنى فى القياس وصيرت فى يده خاتمى .

فأعلم بالنحو من سيبويه وأجود بالمال من حاتم

بديهته عند رد الجواب

تزيد على فطنة العالم

فصرت على السن تلميذه

وصار أبو قاسم عالمى

المناظرة بين سيبويه والكسائى :

قدم سيبويه إلى العراق على يحيى بن خالد البرمكى . فسأله عن خبره فقال : جئت لتجمع بينى وبين الكسائى فقال : لا تفعل فإنه شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمير المؤمنين وكل من فى المصر له ومعه .

فأبى إلا أن يجمع بينهما ، فعرف الرشيد خبره فأمر بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد فوجد الفراء والأحمر ، وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه فسأله الأحمر عن مائة مسألة فما أجاب منها بجواب إلا قال له الأحمر : أخطأت يا بصرى فوجم سيبويه وقال : « هذا سوء أدب » ووافى الكسائى وقد شق أمره عليه ومعه خلق كثير من العرب فلما جلس قال له : يابصرى كيف تقول . خرجت وإذا زيد قائم قال خرجت فإذا زيد قائم قال دق جوزان ؟ قال : لا قال الكسائى ، كيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هى أو فإذا هو إياها ؟ قال سيبويه فاذا هو هى ولا يجوز النصب . فقال الكسائى لحنت وخطأه الجميع . وقال الكسائى : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه .

ودفع سيبويه قوله ، فقال يحي بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما . وهذا موضع مشكل فمن يحكم بينكما ؟ فقال الكسائى . هذه العرب ببابك قد جمعتهم من كل أدب ووفدت عليك من كل صقع وهم فصحاء الناس وقد قنع بهم أهل المصرين وسمع أ هل البصره والكوفة منهم فيحضرون ويسألون فقال يحيى وجعفر: قد أنصفت وأمر باحضارهم فدخلوا وفيهم أبو فقعس وأبو رثار وأبو ثروان فسئلوا عن المسائل التى جرت بينهما فتابعوا الكسائى فأقبل يحيى على سيبويه فقال قد تسمع أيها الرجل فانصرف المجلس على سيبويه وأعطاه يحيى عشر آلاف درهم وصرفه، فخرج وصرف وجهه تلقاء فارس، وأقام هناك حتى مات غما بالذرب ولم يلبث إلا يسيراً ولم يعد إلى البصرة .

وفى بعض الروايات أن الكسائى بعد أن تيقن بالغلبة قال للوزير : أصلح الله الوزير لقد وفد عليك من بلده مؤملا فإن رأيت ألا ترد خائبا، فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم ؟

مرض سيبوية وموته :

لقد كان وقع الهزيمة على نفس سيبويه شديداً فقد كانت مؤامرة حيكت له. ويقال إنه سأل بعدها عمن يرغب فى النحو من الملوك فقيل له: طلحة بن طاهر فشخص إليه بخراسان فاشتد عليه المرض وهو فى الطريق فمات. ولكن ماتاريخ وفاته ؟

وفى أى مكان توفى ؟ لم يتفق المؤرخون على شئ فى هاتين النقطتين فقد قيل : إنه مات سنة ١٦١ هـ أى إحدى وستين ومائة . وقيل سنة ١٧٧ هـ سبع وسبعين ومائة، وقيل سنة ١٨٠ ثمانين ومائة . وقيل سنة ١٩٤هـ أربع وتسعين ومائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وقيل نيف وأربعون سنة ؟

مكان قبره: البيضاء ،البصرة، ساوه ،شيراز

وقد اختلف أيضاً فى تعيين المكان الذى مات فيه . فقيل ، مات بالقرية التى ولد فيها « البيضاء » وقال ابن قانع : مات بمدينة البصرة ، وقال ابن الجوزى : مات بمدينة ساوه » وذكر الخطيب فى تاريخ بغداد عن ابن دريد أن سيبويه مات بشيراز وأن قبره بها . ورجح هذا القول ، لأن ابن دريد خبير بأخبار البصريين وثقة فيها. وقد أقام كثيرا بفارس .

البيت الذى كان كثيرا ماينشده :

وكان سيبويه كثيرا ما كان ينشد هذا البيت.

إذا بل من داء به ظن أنه
نجا وبه الداء الذى هو قاتله

شعره وقت ان جاد بنفسه :

ولما مرض سيبويه – رحمه الله تعالى– مرضه الذى مات فيه جعل يجود بنفسه ويقول:

يؤمل دنيا لتبقى له
فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثا يروى أصول النخيل
فعاش الفسيل ومات الرجل

قوله عند بكاء أخيه عليه :

ولما اعقل سيبويه وضع رأسه فى حجر أخيه فبكى أخوه لما رآه على مابه فقطرت من عينه قطرة على وجه سيبويه ففتح عينيه فرآه يبكى فقال :.

أخيين كنا فرق الدهر بيننا
إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا؟

ما كتب على قبره :

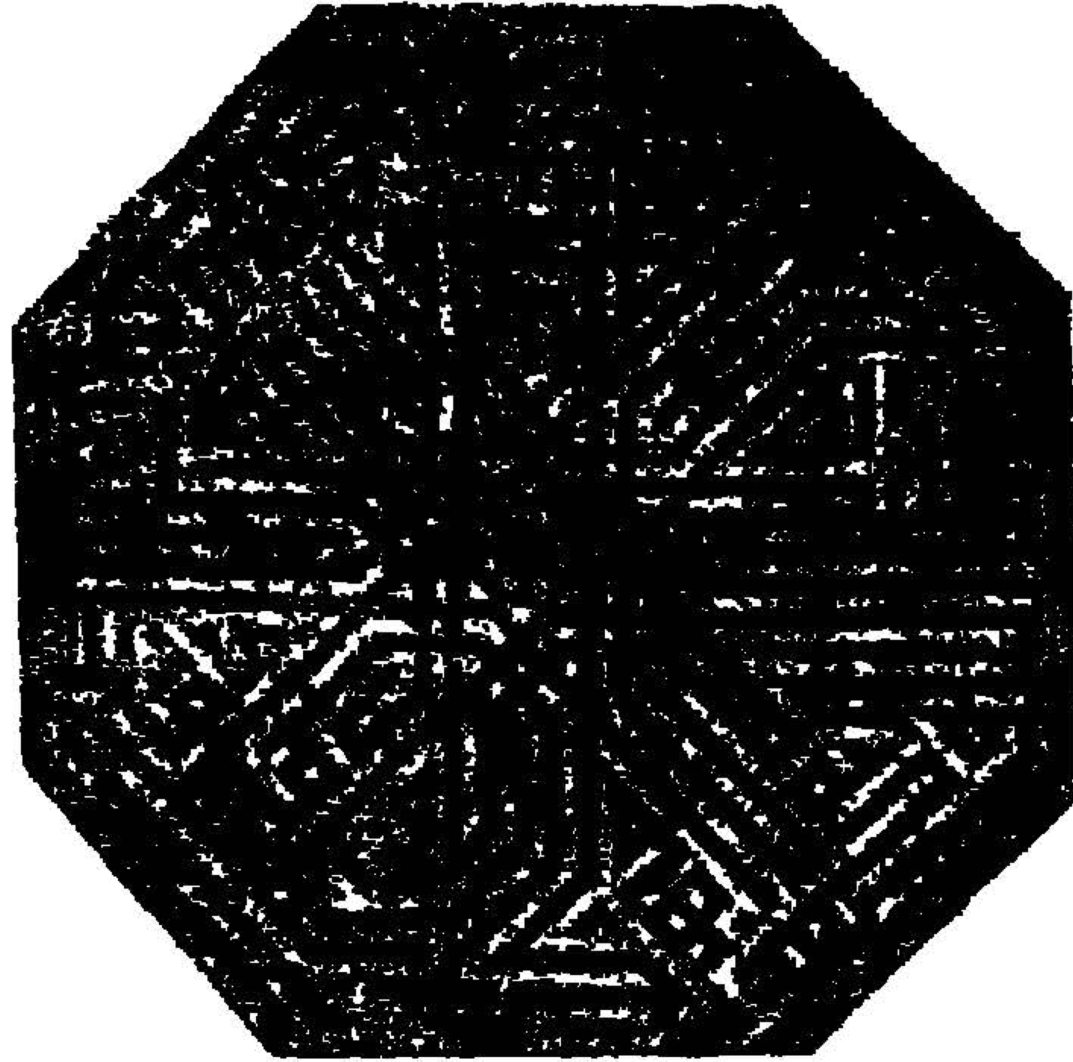
قال الأصمعى : قرأت على قبر سيبويه بشيراز هذه الأبيات وهى لسليمان بن زيد العدوى :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور
ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة
لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حضرة
عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

وقد أردت أن أزور قبر سيبويه حينما كنت فى إيران سنة ١٩٧١ ولكن اعتذر لى القائم بشئون الأوقاف إذ ذاك، وهو السيد حسين عصار، بأن المكان ليس على استعداد لهذه الزيارة، ووعد بأن يهيىء لى هذه الزيارة حينما يتم إقامة المسجد على قبره فى فرصة قريبة بدعوة لاحقة. وقد تم مهرجان سيبويه ولم أدع مع الأسف إليه . وقال لى سفير إيران بالقاهرة السيد بهرام بهرامى : إن السيد حسين عصار كان قد عين فى وظيفة بتركيا حين انعقاد المهرجان ووعد بأن يهيئ لى هذه الزيارة فى فرصة قريبة. رحم الله سيبويه، وأبقى ذكره فى العالمين .

محمد الفحام

عضو المجمع



العروبة في شعر أبي تمام

للدكتور شوقي ضيف

منشأ أبي تمام حبيب بن أوس ومرباه في دمشق إحدى دور العروبة من قديم ، وهو من أبناء طيء القبيلة اليمنية العربية التي نزلت في العصر الجاهلي شمالي نجد . واتخذت الفصحى لساناً لها . وحاول أن يلقي ظلا من الشك على نسبه بعض معاصريه ، فزعم أن أباه كان نصرانياً اسمه تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب في طيء ، وتمادى هذا الزعمُ برجليوث فقال لعل تدوس محرفه عن تيودوس . وتبعه بعض الباحثين المعاصرين فزعم أنه يوناني الأصل ، وقال بروكلمان :بل هو سرياني .

وهي مزاعم مبنية على اتهام باطل لبعض شانئيه ممن عاصروه : أن أباه اسمه تدوس . وهو اتهام ينقضه نقضاً كل من ترجموا لأبي تمام من المؤرخين الثقات إذ أجمعوا على أنه طائي صليبة .

وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا شواهد كثيرة تقطع بعروبته وأنه ينحدر من أصول طائية يمنية ، من أهمها أنه اختار في مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم قصائده إما من طيء قبيلته الدنيا وإما من قبائل اليمن الأُخرى ، إذ نراه يرحل إلى حمص ويلزم بني عبد الكريم الطائيين وبعض أبناء كندة اليمنيين ، ويصور شعوره المضطرم حينئذ بيمنيته وطائيته في قوله لعمر بن عبد العزيز الطائي الحمصي :

هل أوْرَقَ المجدُ إلا في بني أُدَدٍ
أواجْتُنِي منه لولا طَيِّئٌ ثَمَرُ
لولا أحاديثُ أبقتْها مآثرُنا
من النَّدَى والرَّدَى لم يُعْجب السَّمَرُ

وبنو أدهم أبناء كهلان القحطانيون يرمز بهم إلى جميع القبائل اليمنية ، فلولا تلك القبائل وقبيلة طيىء ما أورقت في رأيه شجرة المجد الباسقة ولا أثمرت .

ولولا مآثر تلك القبائل جميعاً التى سارت بها الركبان فى الكرم والشجاعة ما وجد السمار مادة لأحاديث السمر الطريفة . ويشدُّ رحاله من حمص والشام إلى مصر ، فيولِّى وجهه نحو عياش بن لَهيعة الحَضْرمى اليمنى صاحب الخراج بها دون سواه ، لما بينهما من أواصر النسب ، ويعلن إليه ذلك مجاهرًا به مفاخرًا :

وأنت بمصرٍ غـايتى وقَرابتى
بها وبنـو الآباء فيها بنو أبى

فابن لهيعة وكل أفراد اليمن بمصر أهله وقرابته وأشقاؤه فى الأُبوة والنسب . ويفخر فخرًا مضطرماً فى القصيدة بملوك اليمن وأقيالها الأقدمين . وهو يردد هذا الفخر طويلا فى أشعاره : صادرا فيه عن ذات نفسه ، مجلجلا به حتّى لكأنما يريد أن يملأ به الدنيا جلجلة وضجيجاً على شاكلة قوله :

أنا ابن الذين استُرضع الجودُ فيهمُ
وسُمِّىَ فيهم وهْـو كهـلٌ ويافعُ
مَضَوْا وكأنَّ المكرماتِ لديهمُ
لكثرة مـا أَوْصَوْا بهنَّ شرائـعُ
بهاليـلُ لو عاينْتَ فيض أكفِّهم
لأَيقنتَ أن الرزق فى الأَرضِ واسعُ

ولم تمدح طيء ولا مُدحت اليمن بمثل هذا الشعر ، ولا استشعر أحد من أبنائهما مفاخر قومه على نحو ما استشعرها أبو تمام فلو أن مؤرخيه لم ينصوا على يمنيته وطائيته لكان فى هذه الأشعار وما يماثلها مما يصدر فيه صدورًا طبيعيًّا عن دخائل نفسه وأعماق قلبه الدليلُ الحىُّ على أرومته الطائية اليمنية الأَصيلة .

وأبو تمام لايستشعر يمنيته وطائيته فى أشعاره فحسب ، بل أنه يستشعر أيضاً فى قوةٍ عروبتَه التى تجمع قبائل قحطان وعدنان جميعاً ، لافرق بين قبيلة وقبيلة . وقد كان الشعراء من قبله ألسنة قبائلهم يسجِّلون مفاخرها ويذيعون مآثرها ، أما هو فبدأ مثلهم بهذه المشاعر ثم أخذت تتسع فى نفسه وتتعمق ، حتى شملت جميع القبائل اليمنية والعدنانية ويصور ذلك فى بعض قصائده بقوله :

وإن يك من بنى أُدَدٍ جَنـاحى
فإنَّ أثيثَ ريشى مِنْ إيـادِ

وواضح بأنه يجاهر بأن اليمن التى رمز إليها بأُدد إن كانت هى التى أنبتت جناحه فإن عدنان التى رمز إليها بإياد

هى التى أنبتت ريشه فى جناحه وأتاحت له القوة على النهوض والطيران .

ويُكرمه جواد كريم هو محمد بن الهيثم فيشكره بقصيدة بائية يتمنى فيها لو أن قبائل مذحج وطيء وقضاعة اليمنية وقبائل تميم والرِّباب وقيس المضرية وقبائل ربيعة شكرته جميعها عنه . وكأنما يشعر فى ضميره أنه يمثل كل قبائل العرب يمنية وغير يمنية ، أو قل كأنما يشعر شعورا متأصلا بعروبته وجميع جذورها وأصولها الجنوبية والشمالية فى الجزيرة العربية .

ويقول التبريزى شارحه إنه ذكر غير طيء قبيلته القبائلَ من جميع العرب لأن الإصهار فى القبائلَ وتزوجٌ بعضهم من بعض صيَّر بينهم أسباباً من الخئولة والعمومة . ونضيف إلى قوله أن أبا تمام إنما كان يصدر فى ذلك عن شعور متأصل فى طواياه بوحدة العرب مهما اختلفت قبائلهم وتوزعت بين يمنية وعدنانية . ويتسع هذا الشعور فى ضمير أبى تمام ، فإذا هو يحس فى قوة هذه الوحدة لا بين القبائل العربية وحدها فحسب . بل أيضاً بين بلدان العالم العربى من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وبذلك يصبح السابقَ غير منازع إلى الإحساس بهذا الشعور العام الذى يؤمن به كل عربى اليوم ، فجميع البلدان العربية حصونٌ ضخمة للعروبة وكل من يعيش فيها من أبناء الضاد التى تصل الروح بالروح ، ويتعمقه هذا الشعور فيهتف :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا
بالرَّقَّتَيْنِ وبالفُسْطاطِ إخوانى

وما أظن النَّوى ترضى بما صنعتْ
حتى تُشافه بى أقصى خُراسان

فأهله بالشام وأحبابه ببغداد ، وهو فى الرقَّة وإخوانه فى الفسطاط ، وعينه طامحة إلى الاكتحال برؤية بقية أقربائه فى خراسان. وكأنما كانت إقامته فى الرقة التى أشار إليها فى البيتين إرهاصاً منه لإقامته الخالدة بين أهله وخلانه .

وعلى هذا النحو كلما أنعمنا النظر . فى ديوان أبى تمام وجدناه يكتظ بمشاعر العروبة التى تروق وتروع ، وقد دفعه ذلك إلى استظهار أمجادها فى القديم والحديث والتغنى بها غناءً لايجفُّ معينه . ويصور ذلك من بعض الوجوه أن نراه يمدح خالد ابن يزيد الشيبانى والى الموصل للمأمون

فتلمع فى مخيلته موقعة أسلافه الشيبانيين فى يوم ذى قار الذى انتصرت فيه شيبان على الفرس قبل الإسلام ، وكأن ذلك كان إيذاناً بما سيحدث عما قليل من تقويض العرب لدولتهم. ويرفع الموقعة أبو تمام شعارا لهذا المجد الحربى القديم قائلا :

لهم يومُ ذى قارٍ مضَى وهْو مفردٌ
وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبُ

به علمتْ صُهْبُ الأعاجمِ أنّه
به أعربتْ عن ذات أنفسها العُرْبُ

هو المشهد الفصْلُ الذى ما نجَا بهِ
لكسرى بنِ كسرى لاسَنامٌ ولا صُلبُ

وواضح أنه لايضع هذا النصر الحربى العظيم على مفرق شيبان وحدها ، بل يضعه على مفرق العرب ورءوسهم قاطبة ، إنه يوم فخار من أيام العروبة المجيدة ، روّعتْ فيه الفرسَ بما أذاقتهم من البطش والنكال وبما صَبّتْه على ملكها كسرى من الهزيمة والاندحار .

ويحس أبو تمام أن من واجبه أن يمنح العروبة لسانه وقلمه ، وأن يعيش معها فى جهادها الحربى ونضالها العنيف ضد أعدائها الثائرين عليها من مثل بابك وأتباعه الخُرّمية فى أرمينية وأذربيجان ومثل أعدائها الآخرين من الروم المغيرين من آسيا الصغرى . وكان بابك قد هزم كثيراً من الجيوش العربية وامتنع بالجبل المعروف باسم البَذّ ، وفى سنة ٢١٤ للهجرة يفاجأ أبو تمام ويفاجأ معه العالم العربى بفتكه بقائد من قواد العرب العظام هو محمد بن حميد الطوسى الطائى . وتَنْصِب له الأمة المآتم فى كل مكان ، وتبكيه بدموع غزار . وتهول أبا تمام الكارثة ويمتلئ قلبه حسرة وحزناً ولوعة ، فيغمس طرف ردائه فى مداد شديد السواد ويلطخ به وجهه وجداً وجزعاً على البطل العربى ويرثيه برائيته الخالدة هاتفاً :

فتى مات بين الطّعْن والضّرْب ميتة
تقوم مقام النصر إذ فاته النّصْرُ

وما مات حتّى مات مضْرِبُ سيفهِ
من الضّرْب واعتلّتْ عليه القَنا السُّمْر

فأثبتَ فى مُسْتنقع الموت رِجْلَه
وقال لها من تحت أخْمَصِك الحَشْرُ

مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبق روْضةٌ
غداة ثَوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْرُ

وليس هذا رثاء إنما هو تمجيد لايدانيه تمجيد فى رثاء الأبطال الذين يَفْدون

شعوبهم بهجم وأرواحهم ، فيكتبون لها بذلك نصرًا مؤزرًا . فابن حميد لم يهزم ولم يفر جبناً من حرب بابك ، بل أقدم إقداماً لايشبهه إقدام ، وفتك بالأعداء فتكاً لايشبهه فتك ، حتى تقصفت السيوف والرماح فى يده ، وهو ثابت فى مستنقع من الدماء حتى الموت الزؤام . وابن حميد بذلك مثال للشجاعة التى ليس بعدها شجاعة والبطولة التى ليس بعدها بطولة ، بطولة تحلّ محل النصر الذى فاته ، وحتى لتتمنى كل روضة مزهرة لو أنها ضُمّت فى حشاها جثمانه الطاهر. وحقا ما قاله أبو دلف لأبى تمام : « لم يمت من رُثى بمثل هذا الشعر » وأى رثاء ! لقد أحال استشهادَ ابن حميد فى المعركة الخاسرة نصرًا باهرًا ، حتى يأتسى به الشباب العربى المعاصر له فى بذله لروحه وتضحيته بنفسه فى سبيل قومه . وكان جزاءً وفاقاً لأبى تمام أن بَنَى بنو حميد أبناء الشهيد وأهله قُبّة بعد وفاته على قبره ، أداءً لبعض حقه .

ويصبح أبو تمام منذ هذا التاريخ لساناً للعروبة التى كانت تتفجر ينابيعها فى قلبه ، لساناً يعبر عن انتصاراتها الحربية ويصوغها لها أناشيد مجلجلة ، أناشيد كالرعد القاصف تنذر الأعداء بالويل والثبور والهلاك والدمار . وكان نافذ البصيرة فرأى أن لاينظمها بعيدًا عن ساحات الحرب ، وإذا هو يصنع صنيع مكاتبى الصحف الحربيين لعصرنا ، فيرافق الجيوش حتى يرى الوقائع تحت بصره ، ويرى ما يأخذ به قوادها وجنودها البواسل أنفسهم من الصبر والجلد واحتمال ما يطاق وما لا يطاق حتى يذيقوا الأعداء بأسهم ويمزقوهم شر ممزق . ويأخذ فى النظم نظم المشاهد المعاين مبتهجاً بالنصر المبين. وأولى معارك هذا النصر التى شهدها وسجلها أناشيدَ لأمته العربية المنتصرة معاركُ المأمون مع تيوفيل إمبراطور الروم وما أخذ ينزله به منذ سنة ٢١٥ للهجرة من هزائم ساحقة كال له فيها هو وجنوده ضربات قاصمة . وكان أكبرها وأشدها هَوْلا معارك سنة ٢١٨ ، إذ لم يكد المأمون يبلغ نهر البُدَنْدون فى الجنوب الغربى لآسيا الصغرى حتى وفد عليه رسول من تيوفيل ، جاءه مسرعاً يعرض عليه فى ذلة وانكسار إحدى ثلاث : إما أن يرضى بأن يأخذ كل ما أنفقه فى طريقه على جيشه ويعود

دون حرب ، وأما أن يرضى بأن يردَّ له ما لدى الروم من أسرى المسلمين دون فداء، وإما أن يرضى بتعهد الروم أن يصلحوا كل ما أفسدوا من ثغور المسلمين. ويجيبه المأمون غاضباً: قل لتيوفيل : أما قولك ترد على نفقة الجيش فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكياً عن بلقيس: (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتُمِدُّونَنِ بمال فما آتانىَ اللهُ خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) .وأما

قولك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدكم إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد، وأما رجل يطلب الدنيا فلا فَكَّ الله أسره . وأما قولك تعمر كل بلد للمسلمين خَرَّبته الروم فلو أنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت ذلك بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فصرخت : وامحمداه ! وامحمداه ! . ثم صاح برسول تيوفيل : عُدْ إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف . والتفت إلى من معه قائلا : اضربوا الطَّبْل إيذاناً بتحرك الجيش الجرار إلى الحرب. وضُرب الطبل

وتقدم الجيش يزلزل الأرض زلزالا عنيفاً بما أشاع المأمون فى روحه من الحماسة ، ويجتاح حصون الروم حصناً من وراء حصن وهم لايملكون له ردًّا ، وتيوفيل ينتفض خوفاً وهلعاً . وكل ذلك بمرأى من أبى تمام وتحت بصره وسمعه ، وكأنما عاد إلى العروبة مجدها الحربى القديم فى الفتوح ؛ وتغمره نشوة هذا النصر العظيم، ويتغنى به وببسالة تلك الجموع العربية التى محقت الروم عند كل حصن محقاً ذريعاً، قائلا :

تَخِذوا الحديدَ من الحديد معاقلًا
سُكَّانها الأرواحُ والأجسامُ
مُسْترسلين إلى الحُتوف كأنما
بين الحُتوفِ وبينهم أرحامُ
آسادُ موتٍ مُخْدِرات مالها
إلا الصوارمَ والقَنا آجامُ
فى مَعْركٍ أما الحِمامُ فمُفْطِرٌ
فى هَبْوَتَيْه والكُماةُ صِيامُ

فهم دائماً يعيشون تحت ظلال السيوف والرماح ، ودائماً يقتحمون ميادين الحروب للفتك والأقدام ومنازلة الأقران وكأنما بينهم وبين الموت الأحمر وشائج قرابة ،

فدائماً يسقون أعداءهم كئوسه وسمومه القاضية ، وكأنهم أُسْدٌ أجماتها رماح وسيوف مُشْرَعة ماتنى تنشب أظفارها فى فرائسها حتى تلفظ أنفاسها ، أسد صائمة لاتهم بأكل ولا بشرب ، بينما الموت فاغرفاه كاشرعن أنيابه يلتهم الأشباح .

وكان من أبطال المعارك المأمونية خالد بن يزيد الشيبانى واليه على الموصل ، وقد أبلى فيها هو وجنوده بلاءعظيماً ، ويسجِّل له أبو تمام مجداً حربياً ظفر به ، فقدتبع بجنوده تيوفيل حين ولّى على وجهه هارباً من بين يدى المأمون وأوغل وراءه فى بلاد الروم يأسر ويغنم . ويراسله تيوفيل مذعناً خانعاً ، يطلب الصفح والصلح ولايجيبه ؛ فيوغل فى فراره ، وقد أخذه الرعب والهول من كل جانب ، وفى ذلك يقول أبو تمام ممجداً لخالد وانتصاراته :

ولما رأى توفِيلُ راياتِك التى
إذا ما اتلأبّتْ لايقاومها الصُّلْبُ

تولّى ولم يَألُ الرَّدَى فى اتّباعه
كأن الرَّدَى فى قَصْدِهِ هائمٌ صبُّ

كأن بلاد الروم عُمّتْ بصيحة
فَضمّتْ حَشاها أورَغاوسْطَها السَّقْبُ

غدا خائفاً يَسْتنجد الكُتْب مُذعِناً
عليك فلا رُسْلٌ ثنتْكَ ولا كُتْبُ

فبمجرد أن رأى تيوفيل رايات خالد وجموعه التى لايثبت لها أعتى العتاة أمعن فى الهرب ، والردى يلاحقه يريد أن يغنم منه فرصة أو يصيب منه غِرّة . وكأنما عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب وكأنها الصيحة التى أنذرت من قبلهم ثمود حين رَغا ولد الناقة التى عقروها عصياناً لله وكفراناً ، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا هشيماً تذروه الرياح .

وكان مقتل ابن حميد الطوسى الطائى فى حروب بابك لايبرح خيال المأمون ، وصمم على أن يأخذ بثأره ، وأن يكسر حَدَّ بابك وجنوده الخُرّميّة ، وانتدب لذلك إسحق بن إبراهيم المصعبى أحد قواده المغاوير ، فمضى ينازله فى الإقليم الجبلى بأذربيجان وأرمينية ، حيث كان يحتمى وراء الجبال الوعرة . وظل المصعبى فى نزاله إلى أن توفى المأمون وتولى المعتصم بعده مقاليد الخلافة ، وحانت له فرصة من جموع غفيرة لبابك ، فلم يبق منهم ولم يذر ، وأمر أن تُحَزَّ أذن من كل قتيل ، حتى إذا بلغت عِدَّة الآذان

ستين ألفاً أرسل بها إلى المعتصم ليريه مدى تنكيله بهم ومقدار من سفك دماءهم منهم أخذًا بثأر ابن حميد ومن جاهدوهم معه جهادًا شاقاً. ودقت البشائر فى كل مكان ابتهاجاً بهذا النصر، وتغنى أبوتمام بمثل قوله :

وقائعُ أشرقتْ منهنّ جَمْعٌ
إلى خَيْفَىْ مِنَى فالمَوْقِفَيْنِ

وقائعُ أذكرتْنا يَوْم بدرٍ
ومُشْتَجرَ الأسِنَّة فى حُنَيْنِ

رَدَدْتَ الدِّينَ وهْو قَرِيرُ عينٍ
بها والكفرَ وهْوَ سَخِينُ عَينِ

فجَمْعٌ والخيْف ومنى والموقفان بالمزدلفة وعرفة، كل تلك الأماكن المقدسة التى يهلّ بها الحجيج ويلبُّون. كأنما انساب من هذه الوقائع فى أرمينية وأذربيجان نور تألق فوق جبالها، وكأنما أهرق فى تلك الوقائع من الدماء ما يهرق فى أيام النَّحْر والتشريق. ويذكرهنا كل وقائع الجاهلية وأيامها المشهورة ليقول إنها ليست شيئاً مذكورًا بجانب هذه الوقائع العربية الجديدة، وكأنما نسختها نسخاً أو محتها محوًا. ويصل بينها وبين وقائع بدر وحُنَيْن التى أعزت الإسلام وقهرت الكفر قهرًا لم تقم له قائمة بعده.

ورأى المعتصم أن الوقت حان لينزل ببابك وأتباعه الخُرَّمِيَّة الضربة القاضية، فوجه إليه بصفوة من قواده أمثال أبى سعيد الثغرى الطائى وأبى دلف العجلى الشيبانى. ويشتبك أبوسعيد مع جماعة من أنصار بابك ويدمرهم تدميرًا. ويواصل الهجوم معه أبو دلف وقواد مختلفون: وينازلونهم فى سندبايا وأرشق وموقان، والنصر يواكبهم مصعدين إلى جبال أو منحدرين إلى بطون ووديان. وما يزالون يفتحون ويتقدمون من نصر إلى نصر ومن حصن إلى حصن حتى يوافوا جبل البَذّ حصن بابك الحصين. ويأخذون عليه المضايق وهم يضربون بصنوجهم وأجراسهم وينفخون فى بوقاتهم لإدخال الفزع والرعب على قلبه وقلوب من بقى من عصاباته. ولما رأى أنه قد أحيط به ولم يعد أمامه مجال للمقاومة فر هارباً فى جبال أرمينية وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فنزل بولاية سهل بن سنباط، ولم يلبث أن أسلمه إلى قواد المعتصم فدخلوا به بغداد فى موكب عظيم، حيث قُتل وصُلب نكالا له، إذ ظل ثائرًا

على الخلافة نحو عشرين عاماً وظل ينازل جيوشها آماداً متطالة . ونوّه أبو تمام طويلا بهذا المجد الحربي الضخم الذى حققه قوادالمعتصم وفى مقدمتهم أبوسعيد محمدبن يوسف الثغرى وأبودلف العجلى الشيبانى، وهو يردد الحديث عن هذا النصر دائماً فى مدائحه لأبى سعيدالثغرى ، وكأنما له الحظ الأوفر منه ، كقوله :

قَضَى من سَنْدَبايا كلَّ نَحْبٍ
وأَرْشَقَ والسيوفُ من الشُّهودِ

وأرسلها على مُوقـانَ رَهْـوًا
تُثير النَّقْعَ أَكْدَرَ بالكَديدِ

ويـوم التَّلِّ تلَّ البذَّ أيْنًـا
ونحن قِصارُ أعمارِ الحقُـودِ

قَسمْنَاهمْ فشطْـرٌ للعـوالِي
وآخَرُ فى لَظَى حَـرِقِ الوَقُـودِ

وهو يصور أباسعيدالثغرى كأنما نذر نذراً لربه أن يحارب بابك الخُرَّمِى وأتباعه ويقضى عليهم قضاءً مبرماً ، وقد وفى بها نذراً وراءَ نذر ، وتلك سيوفه المفللة تشهد له بنكايته فى أصحاب بابك بأَرْشَق حتى أصبحوا لحماً على وضم ، وقد أرسل الخيل بعدها على موقان تقطع حزونها . وظل لايقطع ركضها وهى تثير الغبار بحوافرها حتى من الصخور لكثرة ماتضرب فيها وتطرقها طرقاً ، وما زالت تطوى له الجبال والوديان والهضاب حتى وافت البذ ، بل حتى فتحته وصعد الناس فيها بالأعلام مكبرين مهللين ، فشفت النفوس من حقدها الذى كان قد تراكم عليها منذ مقتل ابن حميد الطوسى » لانفس أبى سعيد الثغرى وحده : بل أيضاً نفس أبى تمام وغيره من العرب ، فكلهم كان يريد أن يشفى حقد العروبة المتأجج فى دخائله ضد بابك وأتباعه . ويقول أبوتمام إننـا قسمناهم شطرين :شطراً ناشته السيوف وشطراً ناشته حرائق المجانيق ، وهى قسمة لا يخص شرفها أبا سعيد وحده بل يعم العرب جميعاً . وهذا هو معنى ما نقوله من أن نفس أبى تمام كانت تكتظ بمشاعر العروبة ، فإذا انتصر أحد قوادها فى حرب مُبيرة أحس بقوة كأنما يشركه فى انتصاره ، بل كأنما كان يشركه فى هجماته وضرباته . ويذيب أبو تمام فى ذلك غريزة أخذ الثأر . المكتنة فى نفوس العرب منذ العصر الجاهلى ومنذ كانوا لايتنادون بشىء

نداءهم بطلب الثأر ، حتى غدا ذلك عندهم وكأنه عقيدة دينية لها شعائرها من تحريم الخمر والنساء والطيب على أصحاب القتيل حتى يأخذوا بثأره ، مما ولد فيهم نزعة قوية لسفك الدماء من واتريهم ، وكأنما يريدون أن يلطخوا بها أيديهم ، بل لكأنما يريدون أن يشربوها شرباً. ويصور أبو تمام النزعة العربية العتيقة فى مديحه لأبى دلف العجلى الشيبانى ، إذ يقول فى تهنئته بالانتصار هو ومن كان معه من القواد على بابك :

ومرَّ بابكُ مُرَّ العيش مُنْجـذماً
مُحْلَوْلِيـاً دمُـه المعسولُ لو رُشِفا
حيرانَ يحسب سَجْفَ النَّقْع من دَهش
طَوْدًا يحاذر أن ينقضَّ أو جُرُفا

وهو يصور هرب بابك وإسراعه فيه ، وقد أصبح عيشه مرًّا خالصاً ، وبلغ من رعبه وفزعه أن أصبح يخال الغبار الكثيف جبلا يريد أن ينقضّ. وأهم من ذلك أن أبا تمام يعبر عن نزعة الدم المكنونة فى نفسه إزاء أخذ الثأر من بابك ، فيتصور دمه حلو المذاق ، ويتمنى لو رشفه هو وأمثاله من العرب ليشفيهم مما انطوت عليه نفوسهم له من حقد دفين.

وفى هذه الأثناء كان تيوفيل إمبراطور الروم قد انتهز انشغال جيوش الدولة فى القضاء على بابك الخرمى ، فأغار على مدينة زِبَطْرة من ثغور الجزيرة على الحدود الفاصلة بين الدولتين : العربية والرومية وخرَّبها ، ومثَّل بأسراها من الرجال فسَمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم ، وسبا كثيرًا من النساء ، فضج العرب فى الأمصار واستصرخوا الدولة فى المساجد ، وطار نبأ الكارثة إلى المعتصم ببغداد وطار معه أن امرأة من بين الأسيرات كانت لاتنى تصيح : وامعتصماه ! وا إسلاماه . وثار به الغضب ثورة عنيفة ، فجهز لحرب تيوفيل جيشاً جرارًا ، لم يسبق لخليفة أن جهز جيشاً مثله يقال إنه بلغ مائتى ألف أو يزيدون ، زَوَّدهم بالخيل العتاق والسلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والروايا والقرب وآلات الحديد والنفط . وسأل أىّ بلاد الروم فى آسيا الصغرى أحصن ، فقيل له عمورية التى خرجت منها الأسرة الحاكمة ببيزنطة . فأمر أن يكتب اسمها على البنود والأعلام . وكان المنجمون قد تنبئوا له بأنه لن

يفتحها حينئذ، فرمى بكلامهم عرض الحائط. وسار الجيش الكثيف وجدَّ في المسير وقطع البلاد، حتى إذا كان في الموصل انقسم قسمين كبيرين: قسما اتجه إلى الشمال فدخل أرض الروم من سُمَيْساط والحَدث، وقسما كان المعتصم على رأسه دخل أرضهم من الشام من طرسوس شمالي سوريا. وأخذ القسمان المغيظان الموتوران يبيدان من يلقونهم من الروم إلا من نجا بنفسه وهرب مع تيوفيل في البلاد. ويلتقي المعتصم بكلا كله على أنقرة، فتصبح أثرا بعد عين، ويتحول إلى عمورية ويرى أسوارها الشاهقة، فيأمر ببناء عَرَّادات كبيرة توضع على منصّات تحملها عجلات، ويأمر بأن يوضع فوق العجلات أبراج توازي السور في ارتفاعه، وتتسع لعشرة رجال، حتى تجتمع قوتهم على الرمي البعيد بالمجانيق. وما زالوا يرمون بها حتى احترق أكثر عمورية وحتى انصدع سورها، ودخل الجيش الفاتح يقتل ويأسر، ويقال إن عدد القتلى في هذه المعركة بلغ تسعين ألفاً، واستأسر للعرب عشرات الألوف كانوا يباعون خمسة خمسة وعشرة عشرة. وكل ذلك كان بمرأى من أبي تمام وأحسَّ بابتهاج لاحد له كما أحس كل عربي هناك وذاق للنصر حلاوة لا تماثلها حلاوة، فقد أخذ المعتصم وجنوده ثأر مدينة زبطرة وأطفالها ونسائها ورجالها من الروم الأوغاد، وحطموا أكبر مدنهم في آسيا الصغرى حينئذ حطما لم تبق فيهم بعده قوة ولا قدرة على المقاومة. ويا له من أخذ للثأر أبرأ قلوب العرب الكليمة وهبط على أفئدتهم الجريحة هبوط البلسم الشافي. وإذن فليصدر أبو تمام عن هذه الفرحة الهنيئة، وليجلجل بصوته القوى فيها جلجلة تدوّى في كل الآفاق، فقد انتصرت العروبة انتصارًا عظيماً، وحق على شاعرها أن يمجده ويمجد قائده المعتصم وجنوده، وسرعان ما ينظم في عمورية فريدته أو قصيدته الكبرى:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
في حده الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في
مُتونهن جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

وهى ليست قصيدة مديح كما تعودنا فى القصائد العربية ، بل هى ملحمة رائعة تصور هذا المجد الحربى الخالد الذى حققه العرب لعهد المعتصم ، وهو يعلن فى فاتحتها إيمانه بالقوة وأنها فوق العقل وفوق الكتب مشيرا بذلك إلى المنجمين وكتبهم وحساباتهم الفلكية التى أنبأتهم بأن المعتصم لن يفتح عمورية فى أشهر الصيف التى اختارها لفتحها ، وأن حملته التى أعدها لن يرافقها الظفر . وطاشت تنبؤاتهم وحساباتهم وفتح الله للمعتصم هذا الفتح العظيم . ويطيل أبو تمام فى سخريته بعلم التنجيم ومايذكره المنجمون من أيام السعد والنحس ومن تحكم الأبراج فى طوالع الناس ، فكل ذلك كذب وافتراء وبهتان . ويتحدث عن هذا النصر المبين حديث المبتهج ، فقد تحققت أمنية طالما حلم بها العرب ، إذ استسلمت لهم أعظم مدن الروم فى آسيا الصغرى : عمورية العتيقة منذ عهد الإسكندرُ المقدونى ، بعد استعصائها على كسرى وملوك العرب العظام ، وإذا هى تسقط مهيضةً تحت أقدام المعتصم وجنوده البواسل ، وكأنما أصابها سريعاً جرب الخنوع والانكسار الذى فشا فى أنقرة ، فإذا شجعانها وبطارقتها يتهاوون مخضَّبين بدمائهم خضاب الإسلام الدموى الذى طالما خضب به رءوس أعدائه وأجسادهم . ويتحدث فى ابتهاج مابعده ابتهاج عن حرق عمورية ، وكل شىء فيها بعد العزة قد ران عليه الذل ، حتى الصخر والخشب ، فقد غطاهما سواد الاحتراق وغمرتهما حسرة الاكتئاب ، وألسنة النار تندلع فى ليلها البهيم ، حتى صار كأنه صبح مضىء بل ضحى منير ، وكأن الظلام رغب عن لونه أو كأن الشمس لاتزال طالعة أو كما يقول أبو تمام :

حتى كأن جلابيبَ الدُّجَى رغبتْ
عَن لَوْنِها أو كأن الشمس لم تَغِبِ

وهو يستغل فى البيت قصة يوشع وما يقال فيها من أن الشمس تأخرت له عن مغربها ، فكأن يوم عمورية من أيام يوشع ، إنه يوم المعجزة الخارقة فى تاريخ العرب وما أعظمه من يوم ! . ويحاول أن يصور فرحة الجند بهذا النصر الحربى العتيد ، فيجعل هذا اليوم لكل منهم يوم عرس وقِران ، بما اقتسموا من

السبايا الكثيرات . وتتعمق الفرحة في قلبه ، فإذا ربع عمورية في مرأى عينيه كربوع معشوقات العرب في عيون العاشقين الوالهين ، يقول :

ما رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُورًا يطوف به
غَيْلانُ أبْهى رُبًى من رَبْعِها الخَرِبِ
ولا الخدودُ وقد أُدْمِينَ من خجَلٍ
أشهى إلى ناظرى من خَدِّها التَّرِبِ

فربع عمورية مع ما أصابه من الحريق ومن التدمير والخراب ليس أقل بهاء من ربع مية في عين عاشقها ذى الرمة أو كما يسميه غيلان الذى عاش يطوف به ويدور حوله مشغوفا بجمالها الفاتن . وليست خدود عمورية مع ما أصابها من الجرب وخدوش النار وغمش الدخان وتراب الحريق أقل جمالا وفتنة وسحرًا في عينه من الخدود البارعة الحسن حين تزيدها ورود الخجل حسناً فوق حسن . ومضى أبو تمام يتغنى ببطولة العرب في هذا النصر الباهر مصورًا هزيمة تيوفيل وجموعه المتدحرة ، حتى قال والفرحة تغمر قلبه وكيانه :

خليفةَ الله ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن
جُرْثومة الدين والإسلام والحسب
بَصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تُنال إلا على جِسْرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدَّهْرِ من رَحِمٍ
موصولةٍ أو ذِمامٍ غير مُنقضب
فبين أيامك اللاتى نُصِرْتَ بها
وبين أيام بَدْرٍ أقرب النَّسَب
أبقتْ بنى الأصفر المِمْراض كاسْمِهم
صُفْرَ الوجوه وجلَّتْ أوْجُه العَرَب

وهو دعاء للخليفة يصور التحام العروبة عنده بالدين الحنيف ، وهو يدعو الله أن يكافئ المعتصم على مابذل في سبيل إعلاء كلمة الدين والعروبة ، ويصور فيه همة الأسلاف البعيدة وكيف كانوا لا يترددون في التضحية بحياتهم ، والتعرض للخطر مصبحين وممسين يبتغون أجر الآخرة . ويقرن موقعة عمورية إلى موقعة بدر الكبرى التى كانت فاتحة انتصارات الدين الحنيف ، وكأنه يأمل في أن تكون وقعة عمورية وهزيمة الروم فيها هزيمة ساحقة فاتحة انتصارات عربية جديدة ، لها شأن أى شأن ، ويتصور الروم — وقد نهكهم العرب وأنشبوا فيهم أظفارهم —

نضَب الدم من وجوههم واستحالت شاحبة باهتة ، حتى أصبحوا بحق خليقين باسمهم : بنى الأصفر ، بينما استدارت من حول أوجه العرب هالات جلال ومهابة رفيعة .

وكان المعتصم قد صمم على المسير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها ولكن حدثت ثورة داخلية أزعجته وصرفته عن نيته ، فترك عبء ذلك على أبى سعيد الثغرى الطائى بطل حروب بابك الذى طالما تغنى أبو تمام بانتصاراته فيها غناء بهيجاً ، وكان المعتصم قد ولاه حلب وثغور الشام والجزيرة ، وسرعان ما أخذ يعدّ الجيوش والأسلحة والعدد لمنازلة الروم ، ويبلغ به الطموح والاعتداد بالنفس أن ينازلهم فى الشتاء ، وكانت الثلوج قد ملأت الشعاب والدروب ، فلم يحجم ولم يتردد ، بل أقدم يخترق ديار القوم ، حتى اغتصب منهم حِصْنى ذى الكَلاع وأكْشوثاء ، وهم يولون الأدبار ويتنادون الفرار الفرار . ويصور أبو تمام هذا الهجوم المباغت فى الشتاء القارس تصويرًا بارعا إذ يقول لأبى سعيد :

لقد انْصَعْتَ والشتاءُ لهَ وجْـ ـهٌ يـراه الرجال جهَماً قَطُـوباً
طاعنـاً مَنْحَرَ الشَّمالِ مُتيحاً لبلاد العـدو مـوتاً جَنوبـاً
فضربتَ الشتاء فى أخْـدَعيـه ضربةً غادرتْه عَـوْدًا رَكوباً
لو أصَخْنا من بعـدها لسمعنا لقلوب الأيام منـك وَجيبـاً

وهو يصور اندفاعه إلى غزو الروم والثلوج تملأُ الطرقات وتحف به من كل جانب ، والشتاء كالح الوجه متجهم كأشد ما يكون الشتاء قسوة وبرداً زمهريرًا. ويتصوره هو وجنوده المنقضين من الجنوب على حصون الروم فى الشمال وكأنما يطعنون فى منحره ، وقد حملوا إليهم موتاً جنوبياً أحمر لايبقى منهم باقية . ويتمثل الشتاء بثلوجه وزمهريره وصقيعه كأنما كان بعيرًا شرساً لايمكن لأحد أن يسيطر عليه أو يذلّله ، فإذا هو بضربته ضربة واحدة فى أخدعيه يستحيل له رَكوباً ذلولا ، وإذا كل شىء يخشى

بأسه وسطوته ، حتى الزمن ، فلو أرهف الناس السمع لوجدوا قلبه يمتلئ منه وجيباً وخفقاناً . مبالغة ولكنها مقبوله ، لأنها فى بطل وقائع بابك والروم ، بطل العروبة الذى لاينازَع ولا يدافَع لعصر أبى تمام . ويعود أبو سعيد إلى التوغل فى أرض الروم ، وينازله «منويل» كبير قوادهم ، ويفر عند أول لقاء ، ويتبعه أبو سعيد حتى ينزل « درولية » على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية وما يزال يركض خيله مصعدًا فى جبال ومنحدرا إلى قيعان أودية حتى يشرف على خليج القسطنطينية ، وتحول بينه وبينها مياه الخليج ، وفى ذلك يقول أبو تمام :

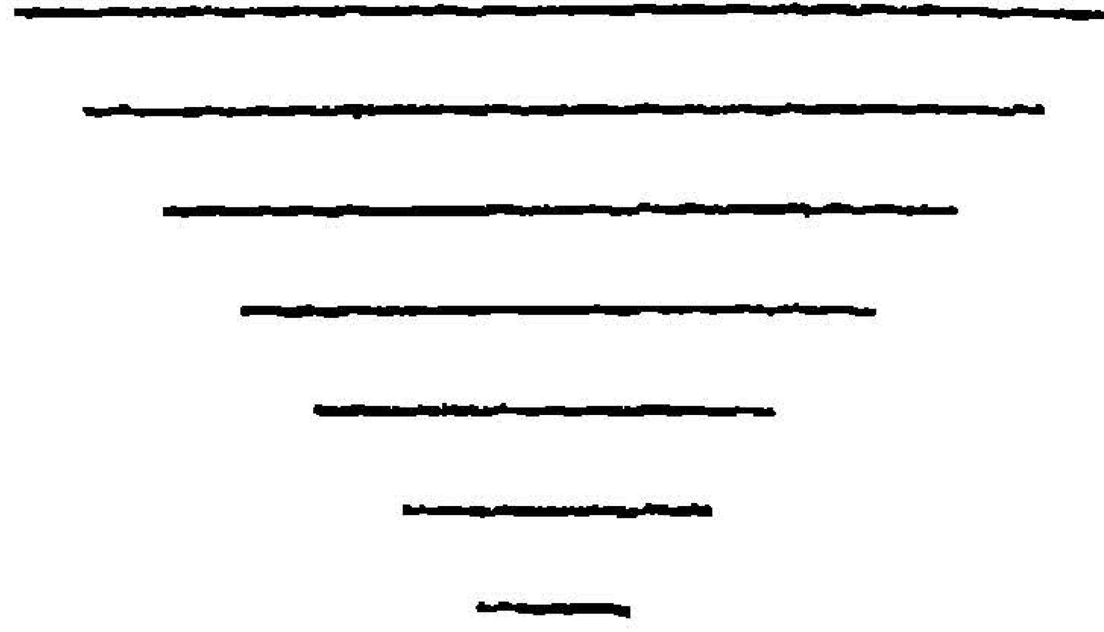
قَـدْتَ الجيادَ كأنهنَّ أجـادِلٌ
بِقُـرَى دَرَوْلِيَـةِ لهـا أَوْكارُ
حَتَّى التوَى من نَقْعِ قَسْطَلِها على
حيطـانِ قُسْطَنْطِينَةَ الإعصـارُ
إلاَّ تكنْ حُصِرَتْ فقد أَضْحى لها
من خَوْفِ قارعةِ الحِصار حِصارُ
والمشْى همْسٌ والنِّداءُ إشارةٌ
خوفَ انتقامِك والحديثُ سِرارُ

فجياد أبى سعيد حين ألمت بمدينة درولية كانت كأنها صقور فى سرعة انقضاضها من ذُرَى جبالها على قرى ودهانها ، وقد ظلت تعدو طارقة الأرض بحوافرها طرقاً شديدا مثيرة من النقع والغبار ما تطاير مع الأعاصير والرياح حتى لصق بحيطان القسطنطينية ، وقد غدت من الذعر الذى أمسك بخناقها كأنها فى حصار ، حتى أن المشى بها أصبح همساً خافتاً والنداء إشارة كليلة والحديث نجوى خفية . وهذه الوقائع الأخيرة من معارك أبى سعيد الثغرى الطائى مع الروم ليس لها فى الطبرى ولا فى غيره من كتب التاريخ أى ذكر ، ولولا أن أبا تمام سجلها فى قصائده ما عرفنا عنها أى شىء[١] ، وأشعاره بذلك تكمل تاريخنا وأمجادنا الحربية لعصره ، بل هى الصفحات الناصعة لهذه الأمجاد إذ استحالت فيها فناً رفيعاً يمتع القلوب والأفئدة .

ولعل فى كل ما قدمت ما يوضح صور العروبة فى شعر أبى تمام ، فقد صرّح

مراراً وتكراراً بأنها تسرى فى أعراقه ، وأحس ذلك فى أعماقه إحساساً دفعه إلى الإيمان بوحدة القبائل العربية اليمنية والعدنانية ووحدة البلدان العربية الإفريقية والأسيوية ،وشعر فى قوة بتبعات هذه الوحدة ومسئولياتها . وكانت العروبة تجاهد آنذاك أعداءها من الخُرَّمِيَّة والروم جهادا مستميتاً ، فانضوى تحت ألويتها يناضل ويدافع حتى لا يجتاحها هذا الخطر أو ذاك . وكان لا يملك من الأسلحة سوى شعره ، فاستحال فى يده قوساً ينزع عنه إبياتاً مصمية يسددها إلى صدور الأعداء الغاشمين ، مُشيعاً بذلك حماسة متأججة فى قلوب الجنود والشباب من حوله ، حتى يذيقوهم كل ما يمكن من ألوان الفتك والبطش والنكال. واشتعلت فى صدره حينئذ الغريزة العربية غريزة الأخذ بالثأر أقوى اشتعال ، مما جعله يستشعر فى صدق وإخلاص فرحة غامرة مع كل نصر وكل ثأر يشفى غليل العروبة المجيدة التى كانت تتوهج فى ميراث أعراقه ، وظلت تتوهج فى دمه وقلبه وروحه وحسه وشعوره ، وظل يقدسها ويمجدها ويرتل لها انتصاراتها المظفرة أناشيد حربية خالدة .

شوقى ضيف
عضو المجمع



طُرَفٌ من الأدب واللغة

للدكتور احمد عمار

(١)

نضّر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فأداها
كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع

آفة الحديث الكذب ، وآفة العلم النسيان ، وآفة الحلم السفه ، وآفة العبادة الفترة ، وآفة الشجاعة البغى ، وآفة السماحة المن ، وآفة الجمال الخيلاء ، وآفة الحسب الفخر ، وآفة الظرف الصلف ، وآفة الجود السرف ، وآفة الرأى الهوى .

* * *

لأن يخطىء الإمام فى العفو ، أحب إلى من أن يخطىء فى العقوبة .

(من الأحاديث الشريفة)

* * *

غنى مخارق يوماً فى حضرة الرشيد هذا البيت :

وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب
يرق ويصفو إن كدرت عليه

فقال الرشيد : يامخارق ، جئنى بهذا الصاحب ولك نصف الخلافة !

* * *

[وَسْط ووَسَط]

وسط : بالتسكين ظرف ، تقول جلست وسط القوم (أى بينهم)

وسط : بالتحريك اسم . تقول جلست وسط الدار والشجاعة وسط بين الجبن والتهور.

(وكل موضع يصلح فيه «بين» ، فهو وسط بالتسكين وإن لم يصلح فيه «بين» فهو وسط بالتحريك)

* * *

يقول الجاحظ :

الحلم حلمان ، أشرفهما حلمك عمن هو دونك ، والصدق صدقان ، أعظمهما صدقك فيما يضرك ، والوفاء وفاآن ، أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .

عاقب الناس بقدر ذنوبهم ، على قدر احتمالهم

(محمد بن كعب القرظى)

* * *

الخليفة المثمّن

يقال للخليفة المعتصم العباسى : « الخليفة المثمن » لأنه ولد سنة ثمانين ومائة فى الشهر الثامن منها . وهو ثامن خليفة عباسى وفتح ثمانية فتوح ، واستخلف ثمانى سنين وثمانية أشهر ، وخلف ثمانية بنين وثمانى بنات !

* * *

يقال :

ثنى عِطْفَهُ ، ونأى بجانبه ، وثنى جيده ، ولوى عنقه ، وصعّر خده ، ومال برأسه : إذا تكبر ، وشمخ بأنفه كذلك .

* * *

مات خزنة الأموال وهم أحياء ،
وعاش خزنة العلم وهم أموات .

(ابن المعتز)

* * *

كان يقال :

امش ميلا وعد مريضاً ، وأمش ميلين وأصلح بين اثنين ، وامش ثلاثة أميال وزر أخاً فى الله .

مُجير أم عامر

خرج قوم إلى الصيد فعرضت لهم أمُّ عامر — وهى الضبع — فطردوها فأتعبتهم حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابى ، فاقتحمته : فخرج إليهم الأعرابى وقال : ماشأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا . فقال كلا ، والذى نفسى بيده لا تصلون إليها ماثبت قائم سيفى فى يدى : فرجعوا وتركوه . فقام إلى لقحة فحلبها ، وماء فقربه منها . فأقبلت تَلَغُ مرة فى هذا ومرة فى هذا حتى رويت واستراحت . فبينا الأعرابى نائم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وتركته . فجاء ابن عم له يطلبه ، فاذا هو به ميت . فأخذ قوسه وكنانته وتبع الضبع فقتلها ، وقال :

ومن يصنع المعروف فى غير أهله
يلاق الذى لاقى مجير أم عامر

* * *

أأفجع فى الشباب ولا أعزى
لقد غفل المُعزّى عن مصابى

(ابن الرومى)

إنَّ اللّه جميل يحب الجمال

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : ان الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس »

(مسند الإمام أحمد)

بطر الحق : دفعه وإنكاره ترفعا وتجبراً
وغمط الناس : احتقارهم

* * *

عمر وخولة بنت ثعلبة

مر عمر بخولة بنت ثعلبة ، والناس معه ، فحبسته طويلا تعظه وتقول : ياعمر ، كان يقال لك عمير ، ثم قيل لك ياعمر ، ثم قيل لك ياأمير المؤمنين . فاتق الله ياعمر ، فانه من أيقن بالموت ، خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب ، خاف العذاب : فقيل له : ياأمير المؤمنين ، أتسمع كلام هذه العجوز قال : إن الله تعالى سمع قولها من فوق سبع سماوات : هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله في حقها : قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله » ، والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره مافارقتها إلا إلى صلاة مكتوبة .

* * *

وقال رجل لعمر بن الخطاب : اتق الله ياأمير المؤمنين . فقال له رجل آخر : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر : دعه فليقلها لي ، نعم ماقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ، ولاخير فينا إذا لم نقلها منكم :

أين تواضع عمر من كبرياء عبد الملك ابن مروان الذي يقول : والله لوقال لي أحد : «اتق الله » لضربت عنقه ؟

* * *

عن عمر بن الخطاب

نادى عمر بن الخطاب بالصلاة ، فلما اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بماهو أهله ، ثم قال أيها الناس : لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فأقبض القبضة من التمر والزبيب فأظل يومي وأي يوم ؟ ثم نزل فقال له عبد الرحمن بن عوف : ياأمير المؤمنين مازدت على أن حقرت نفسك . قال : ويحك يابن عوف . إني خلوت بنفسي فحدثتني قالت : أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها .

(من كتاب سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي)

* * *

حياك الله وبياك :

حياك : ملكك ، وأبقاك ، وأصلحك وبياك : قربك ، وبوأك ، وقيل أضحكك .

وقد يكون هذا اتباعاً : ولكن الاتباع لايكاد يكون بالواو وقد يكون بالواو وقد يكون ازدواجا

وقال الشاعر :

بيا لهم إذ نزلوا الطعاما
الكبد والملحاء والسناما

(اللسان)

* * *

قال الأصمعي :

أصابت الأعراب مجاعة ، فمررت بأعرابي قاعد مع زوجته على قارعة الطريق ، وهو يقول :

يارب إني قاعد كما ترى
وامرأتي قاعدة كما ترى
والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى ياربنا فيما ترى؟

* * *

مصادر مفتوحة الأول - فَعُول)

قبول - ولوع - طهور - وضوء وقود (وقيل : وزوع من أوزع)

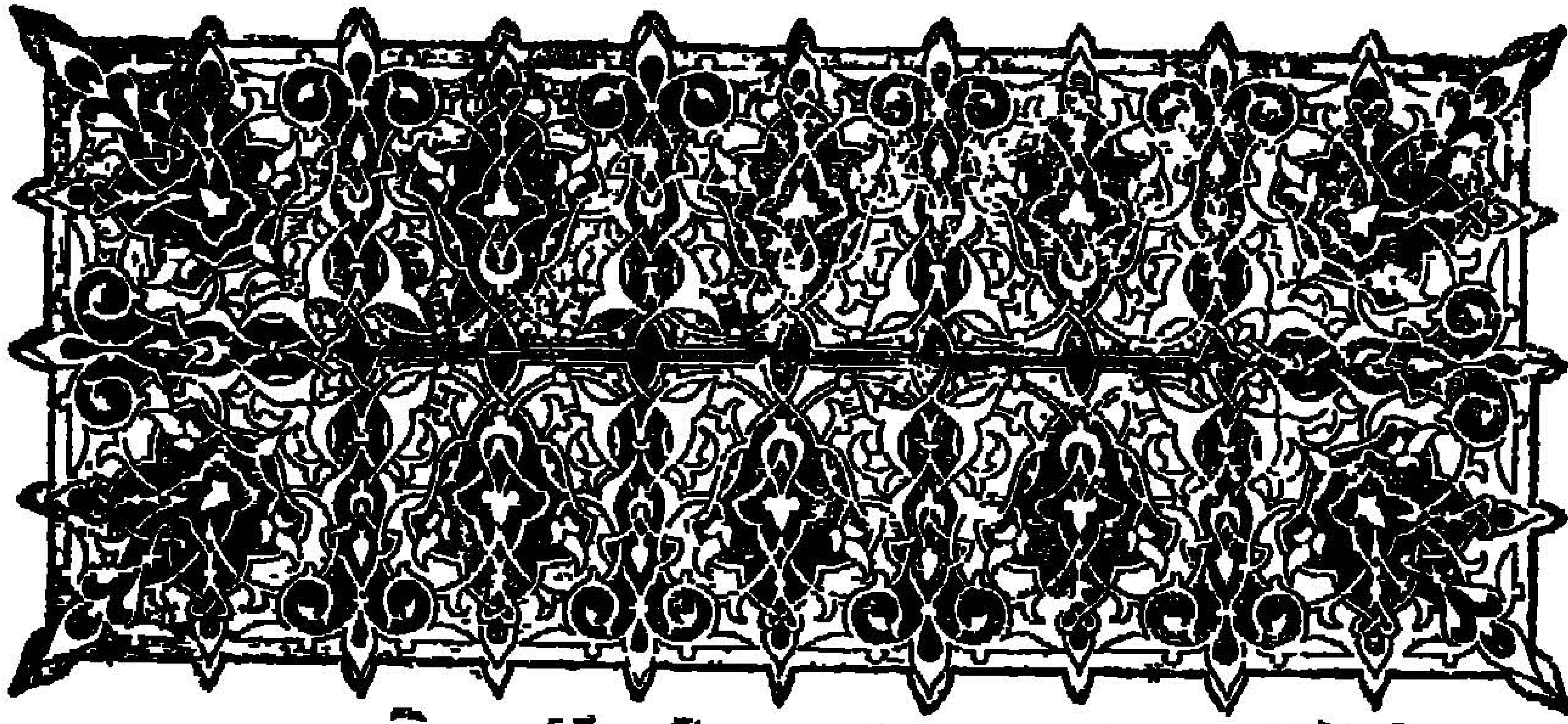
(اللسان)

مصادر على وزن مفعول :

مجلود ، محلوف ، معقول ، معسور ، ميسور ،

(اللسان)

أحمد عمار
نائب رئيس المجمع



قول في الإعراب

للأستاذ محمد شوقي أمين

تلوح

١ – تلوح لبعض الباحثين المفكرين آراء في اللغة ، عليها رونق الجدة ، وفيها تنكب عن المألوف ، فيسبق إليهم الناقدون بالإنكار والإزراء ، ويتبادل الفريقان الترامى بالوصمات ، فهؤلاء الناقدون يرمون الباحثين بوصمة التحلل والجهل والإفساد ، وأولئك الباحثون يدفعون ذلك بالمثل ، فيصمون الناقدين بأنهم أهل تخلف ورجعية وجمود .

والحق أن العلماء الأولين الذين نتلقى عنهم خلة الحرص والمحافظة ، ونستند إليهم فيما نستمسك به من آراء ، كانوا أشد منا تحررا في تناول قضايا اللغة ، وأوفر طلاقة في النظر والتفكير ، حين يبدو لهم جديد من القول ، وتعرض لهم سانحة من الخطرات .

وإن « الرجعية » إلى هؤلاء الأسلاف لجديرة أن تقبسنا روح البحث دون تحرج ، وإن قديمهم لو أحسنا تدبره لهو أكبر عون لنا على أن نفكر في سعة من الأفق ، وأن نستقبل بدوات الرأي في غير حظر على العقول .

كان أولئك الأقدمون يمحصون كل مايعرض لهم من قول ، لايمتنع عليهم شيء مما نسميه « الأقداس » ، يتدارسون ماوسعهم التدارس ، فينكرون مايعن لهم أن ينكروه ، ويغمزون مايريدون أن يغمزوه ، لايردهم عن ذلك تهيب أو استرهاب ، ولاينادى عليهم بويل ولاثبور .

بيد أنهم كانوا إذا سخطوا شيئا سخطوه على علم وبصيرة ، ودعموا نكيرهم بما يروج لهم من حجة وسلطان ، فإن عارضهم أحد كانت معارضته رد الحجة بالحجة ، وإسقاط البرهان بالبرهان . فيدور بينهم الجدل والنقاش رفيقا أو غير رفيق ، في منحى علمي تتصارع فيه الأفكار والأذهان .

ولكننا اليوم قد ننكر النهج المألوف ، تلهيا بالمعارضة ، وتحليا بالتطرف ، فنتطاول على غير معرفة ، ونهجم بغير دليل ، فإذا انبرى للدفاع مدافع كان أكبر دعواه أن ذلك عبث بالأقداس ، وأنه افتيات على حرمات يجب أن يقال في شأنها : لامساس .

ذلك هو شأن الإعراب ومكانته من اللغة؛ بحسب المحافظون فيما يحسبون أنه حرام على البحث ، وأنه باب موصد لا ينفتح لرأى ، فهو عندهم مستعصم على الاجتهاد، لا يجنح إليه فكر ، ولا يرقى إلى مناطه قلم.

ما إن ينادى أحد من المحدثين بترك الإعراب حتى يهب فى وجهه المعارضون يرمونه بإحدى اثنتين أو كلتيهما معا : الأولى أنه يفسد اللغة ، ويخل بمدلول الكلم ، والأخرى أنه يعتل على الإعراب ، لقصوره فيه، وعجزه عنه . فأما إفساد اللغة، والذهاب بدلالات الجمل ، فهو دعوى لا تقوم إلا ببينة وتطبيق ، وأما القصور أو العجز فليس له فى تقويم الرأى وزن . وليكن من أمر الدعاة إلى ترك الإعراب ما يكون، فإن ذلك لا يعنى تمحيص مشكلة الإعراب فى قليل أو كثير .

على أن المنادين بترك الإعراب لا يكادون يسمعون الإنكار عليهم والإزراء بهم من المحافظين ، حتى يوفوا لهم كيل الاتهام بأنهم رجعيون جامدون ، يقفون عندما قال الأول ، كأنما تأبى أسماعهم أن تأذن لطارف من الرأى ، وإن استوفى حظه من سلامة المنطق وسداد التفكير .

هل يعلم أصحاب الدعوة إلى مجانبة الإعراب أنهم بدعوتهم تلك لا يشقون أفقا جديدا من البحث ، ولا يثيرون مسألة عزبت عن الأقدمين فيما خلا من السنين ، وأنهم فى هذه الدعوة هم الرجعيون الذين يبتغون أن يستأنفوا النظر فيما عفت عليه الحقب ، وطوته بطون الكتب ؟

وهل يعلم المحافظون الذين يثورون فى وجه الدعوة الى التنكب عن الإعراب أن أسلافهم منذ ازدهار العربية ، قبل ألف من السنين أو تزيد ، تناولوا أمر الإعراب فى مناح شتى من القواعد والأصول ، وما إليها من تفريعات وذيول ، على أساس من جواز ترك الإعراب وتسكين أواخر الكلام فى الوصل ، فلم يقم فى وجوههم من يصدهم عن النظر ، ويوصد دونهم باب الاجتهاد ، ولكنهم فسحوا صدورهم للدراسة والتعليل والتحليل ، وكان بينهم نزاع فى الرأى ، على طلاقة من الفكر ، فتركوا لنا حصادا من البحث ، فيه للعقل غذاء وإمتاع ؟

ليس بين أيدينا من هذا الحصاد إلا نزر قليل ، وزاد ضئيل ، فقد لعبت بذلك الحصاد تصاريف الزمن فى مواضى العصور ، ولو حفظته لنا الأيام كله أو أكثره ، لكنا به أوفر خبرة وأوفى إحاطة . وسنرى فى هذه العجالة أن صفحة رائعة فى تناول مشكلة الإعراب ، وإجازة تركه ، ما برحت فى ألفاف كتاب ، فلما تحوم حوله فى هذا الصدد ظنون الباحثين فى هذا المجال .

أسكنت حركات الإعراب – على مد عصور العربية الخالية – فى خمسة مصادر مدونة، وهى :

أولا – قراءات القرآن .

ثانيا – الشعر الجاهلى والإسلامى .

ثالثا – إجراء الوصل مجرى الوقف فى النحو .

رابعا – حكاية نوادر المولدين فى الأدب .

خامسا – مشتقات الشعر من ضروب النظم منذ العصور الوسطى فى تاريخ الدول الإسلامية :

١ – فأما المصدر الأول ، وهو قراءات القرآن فقد وردت فيه آيات أسكنت فيها حركات الإعراب من كلمات شتى ، مثل : وبعولتهن أحق بردهن « بإسكان التاء » ، ومثل : « وما يعدهم الشيطان » ، ومثل : «إذ يعدكم الله » بإسكان الدال فيهما ، ومثل : «فتوبوا إلى بارئكم » بإسكان الهمزة . وقد تناولها علماء القراءات بالبحث ، ودرسوها حق الدرس ، فرجعوها إلى أصولها ، وأشبعوا القول فى تعليلها :

٢ – وأما الشعر الجاهلى والإسلامى ، وهو المصدر الثانى ، فقد وردت منه أبيات تضم كلمات أسكنت فيها حركات الإعراب ، مثل قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب
إثما من الله ولا واغـــل

بإسكان الباء فى أشرب

ومثل قول الأقيشر الأسدى :

رحت وفى رجليك مافيهما
وقد بدا هنك من المئزر

بإسكان النون فى : هنك .

ومثل قول جرير :

سيروا بنى العم فالأهواز منزلكم
ونهر تيرى ولاتعرفكم العرب

بإسكان الفاء فى : تعرفكم .

ومثل قول وضاح اليمن :

إنما شعرى شهد
قد خلط بالجلجلان

بإسكان الطاء فى : خلط

ومثل قول الشاعر :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

بإسكان الباء فى : صاحب .

إلى غير ذلك من الأمثلة ، وقد عد النحاة بعضها من ضرورة الشعر ، قال ابن عصفور فى كتابه الضرائر : « ومن الضرورة حذف علامتى الإعراب الضمة والكسرة من الحرف الصحيح ، تخفيفا ، وقد جوز سيبويه إسكان حركة الإعراب فى الشعر ، كما جوز النحاة جميعا إسكان حركة البناء :

واستشهد سيبويه فى «الكتاب» بأبيات لشعراء العرب أسكنت فيها حركات الإعراب فى بعض الكلمات ، فأنكر ذلك عليه جماعة من أصحاب النحو، واعترض المبرد على ما استشهد به سيبويه من أبيات الشعر . فتصدى له ابن جنى يقول فى « المحتسب » :

« وأما اعتراض أبى العباس المبرد هنا على الكتاب فإنما هو على العرب لا على صاحب الكتاب ، لأنه حكاه كما سمعه ولا يمكن فى الوزن أيضا غيره ، وقول أبى العباس : إنما الرواية : فاليوم فاشرب فكأنه قال لسيبويه : كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيته عنهم ، وإذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف، فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك إنكاره عليه أيضا قول الشاعر : وقد بدا هنك من المئزر ، فقال إنما الرواية : وقد بدا ذاك من المئزر . وما أطيب العروس لولا النفقة! » .

لنا أن نتجه بالظن إلى أن الشعر الجاهلى والإسلامى كان فيه كثير من الأمثلة على إسكان حركة الإعراب ، فأصلح الرواة ، النقلة ما فى الأبيات من خروج على القواعد العامة ، وهذا يتجلى فى محاولة إصلاح الشواهد التى ساقها سيبويه ، صدد بحثه ، حتى يبطل بها الاستشهاد . ومن المأثور عن أئمة الرواية فى سوابق العهود أنهم كانوا يصلحون أشعار الأوائل . وهذا الظن أقوى عند التأمل والترجيح من الظن بأن هذه الأبيات المستشهد بها هى التى صنع فيها إسكان حركة الاعراب لتكون شواهد مكذوبا بها على العرب ، حتى يقوم بها عمود الرأى والتخريج .

٣– وأما إجراء الوصل مجرى الوقف ، وهو ثالث المصادر ، فهو تعليل يبسطه النحاة لكى يؤولوا به ما ورد من الشواهد على إسكان حركة الإعراب ، وقد عقد سيبويه فصلا فى كتابه سماه : « باب الإشباع فى الجر والرفع وغير الإشباع » يقول فيه : « وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور فى الشعر ، شبهوا ذلك بكسرة فخذ ، حيث حذفوا ، فقالوا فخذ، وبضمة عضد حيث حذفوا فقالوا : عضد، لأن الرفعة ضمة والجرة كسرة »

وقد أشار إلى مثل ذلك ابن جنى فى سر «الصناعة» فقال فى حرف الميم (الفم) :

« تشديد الميم ليس من أصل الكلمة ، فمن أين أتاها ، وما وجه دخوله إياها ، فالجواب أن أصل ذلك أنهم ثقلوا الميم فى الوقف ، فقالوا : هذا فمّ ، كما يقولون هذا خالدّ ، وهو يجعلّ . ثم إنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فيما حكاه سيبويه عنهم من قولهم : ثلاثهّر بعه»

وابن جنى يعنى بالتثقيل فى فمّ وخالدّ ويجعلّ : تشديد الحرف الأخير من هذه

الكلمات ، ولو تتبعنا فى مسائل النحو مايتصل بإجراء الوصل مجرى الوقف لخرجنا بتوجيهات وأمثلة تزيد الأمر من وضوح وجلاء .

هذا ، وقد جاء فى سيرة ابن هشام :

«قال حذيفة بن غانم :

فسرنا تهامى البلاد ونجدها
بأمنه حتى خاضت العير فى البحر

فقال صاحب «الروض الأنف» فى التعليق على هذا البيت :

«حذف الياء من هاء الكناية ، ضرورة كما أنشد سيبويه :

« سأجعل عينيه لنفسه مقنعا »

فى أبيات كثيرة أنشدها سيبويه ، وهذا مع حذف الياء والواو ، وبقاء حركة الهاء ، فإن سكنت الهاء بعد الحذف ، فهو أقل الاستعمال من نحو هذا ، وأنشدوا :

ونضوان مشتاقان له أرقان

وهذا الذى ذكرناه هو فى القياس أقوى ، لأنه من باب حمل الوصل على الوقف ، نحو قول الراجز :

لما رأى أن لادعه ولاشبع

ومنه فى التنزيل كثير ، نحو إثبات هاء السكت فى الوصل ، وإثبات الألف من أنا ، وإثبات ألف الفواصل ، نحو « وتظنون بالله الظنونا » . . . » .

ومن هذا النص يستفاد أن قلة الاستعمال فى إسكان هاء الضمير دون وقف لاتنفى أن ذلك أدخل فى القياس ، وأن التعليل لذلك بأنه من باب حمل الوصل على الوقف دليل أى دليل على أن النحاة كانوا يقولون بقياسية إجراء الوصل مجرى الوقف ، وإن أخذ هذا القول لحا من مفهوم الكلام ؛ وهم يدللون عليه كما نرى بكثرة وروده فى التنزيل ، وسنعود إلى ذلك هنا بتفضيل .

٤ــورابع المصادر حكاية نوادر المولدين فقد آثر جهابذة الأدب أن يكون مايروى عن المولدين من النوادر بلفظه ولهجته غير معرب ، وعلى رأس الدعاة إلى ذلك «الجاحظ» وقد صنع ذلك فى كتاب « البخلاء » ، ونبه إلى أنه يتعمده ، وكذلك كان صنيعه فى كتاب « الحيوان » فيما حكى من قول إسحاق النظام : « إن كنت سبع فاذهب مع السباع ، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم » وقد أتبع « الجاحظ » الحكاية قوله :

« ولاتنكر قولى وحكايتى عنه بقول ملحون ، إذ قلت : إن كنت سبع ، ولم أقل إن كنت سبعا ، فإن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وتلك اللغة وتلك العادة ، فإذا دخلت حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحولته الى صورة

ألفاظ الأعراب الفصحاء انقلب المعنى وفسدت صورته ».

٥ــ والمصدر الخامس الأخير مشتقات الشعر من ضروب النظم منذ العصور الوسطى فى تاريخ الدول الاسلامية ، وهى التى شاعت فى الأندلس والمغرب ومصر وغيرها من الأمصار ، كالموالیا وكان وكان وغيرها من الأزجال والمنظومات ، فقد نظمت غير معربة ، وكتبت كذلك ، وتناقلها المؤرخون والمؤلفون فى الأدب ، جارية الأغلب على إسكان حركة الإعراب. وقد عقد لها ابن خلدون فصلا فى مقدمته، وساق من أمثلتها جملة .

— ٤ —

ويبدو أن الآيات التى وردت بها بعض القراءات فى القرآن ، والأبيات التى أثرت من الشعر الجاهلى والاسلامى ، مما أسكنت فيه حركات الإعراب ، قد هالت جماعة النحاة ، ممن يؤثرون طرد القواعد ، وإرساخ الأصول ، جدا فى حياطة الإعراب، وتمكينا لسلطانه على الكلام ، فانبعثوا ينكرون القراءات التى وردت بها كلمات غير معربة ، كما أنكروا مثل ذلك فى أبيات الشعر ، واستندوا فى إنكارهم الى أن حركة الإعراب علم على الإعراب ، وهى تدل على المعنى ، فليس إلى ذهابها من سبيل، على نحو ما نحتج اليوم به لإبقاء الإعراب والحرص عليه ، وحسبانه ركنا من أركان اللغة ، لايحول ولايزول .

وقد تصدى لهؤلاء المنكرين عالم حجة، انتهت اليه رياسة النحو ، وهو أستاذ ابن جنى ، ينقل تلميذه عنه، ويعتز به، ذلك العالم هو أبو على الفارسى ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، فقد تناول المسألة من أطرافها المختلفة ، وعنى بالرد على المزاعم والشبهات التى تعترض القول بجواز إسكان حركات الإعراب وذلك ليدحض حجة المعترضين على القراءات التى وردت بها كلمات ساكنة فى غير الوقف .

وبحث « ابى على الفارسى » مطوى كتابه « الحجة فى علل القراءات» ، وهو كتاب فى عدة مجلدات ، ونحن ناقلون هنا تلك الصفحة الرائعة التى ينبعث بها ذلك العالم النحوي من مرقد ألف سنة ، ليقول كلمته اليوم فى جواز ترك الإعراب ، وكأنما هو ينتصر بها ــ من حيث لم يكن يقدر فى ذلك العهد العهيد — لأولئك الذين يريدون الآن أن ينفوا عن الإعراب قدسيته فى اللغة،

قال « أبو على الفارسى» :

« فأما حركة البناء فلا خلاف فى تجويز إسكانها فى نحو ماذكرنا من قول العرب والنحويين ، وأما حركة الإعراب فمختلف فى تجويز إسكانها ، فمن

الناس من ينكره. فيقول : إن إسكانها لايجوز ، من حيث كانت علما للإعراب ، وسيبويه يجوز ذلك ، ولايفصل بين القبيلين فى الشعر ، وقد روى ذلك عن العرب ، وإذا جاءت الرواية لم ترد القياس ، فمما أنشده فى فى ذلك قوله :

وقد بدا هنك من المئزر

وقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب

وقال :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

ومما جاء فى هذا النحو قول جرير :

سيروا بنى العم فالأهواز منزلكم
ونهر تيرى ولاتعرفكم العرب

ومن ذلك قول وضاح اليمن :

إنما شعرى شهد
قد خلط بالجلجلان

فأسكن الفتحة فى مثال الماضى ، وهذه الفتحة تشبه النصبة ، كما أن الضمة فى « صاحب قوم » تشبه الرفعة ، فجاز إسكان حركة الإعراب ، كما جاز تحريك إسكان البناء ، فشبه مايدخل على المعرب من الحركة بما يدخل على المبنى . كما شبهوا حركات البناء بحركات الإعراب . فمن ثم أدغموا نحو رد وفروعض ونحو ذلك ، كما أدغموا نحو يرد ويشد . وذلك أن حركة غير الإعراب لما كانت تعاقب على ذلك ، نحو حركة الهمزة إذا سكن ماقبلها ، نحو اضرب أخاك ، ونحو حركة التقاء الساكنين ، وحركة النونين الخفيفة والشديدة ، فكما شبهوا تعاقب هذه الحركات التى للبناء على أواخر الكلم ، بتعاقب حركات الإعراب ، حتى أدغم من أدغم نحو رد واستعد ، كما يدغم نحو يرد ويستعد ، كذلك شبهوا حركة الإعراب فى نحو ماذكرنا فأسكنوا .

وأما من زعم أن حذف هذه الحركة لايجوز من حيث كانت علما للإعراب ، فليس قوله بمستقيم ، وذلك أن حركات الإعراب قد تحذف لأشياء ، ألا ترى أنها تحذف فى الوقف . وتحذف من الأسماء والأفعال المعتلة ، فلو كانت حركة الإعراب لايجوز حذفها ، من حيث كانت دلالة الإعراب ، لم يجز حذفها فى هذه المواضع . فإذا جاز حذفها هذه المواضع لعوارض تعرض ، جاز حذفها أيضا فيما ذهب إليه سيبويه ، وهو التشبيه بحركة البناء ، والجامع بينهما أنهما جميعا زائدان . وأنها قد تسقط فى الوقت والاعتلال ، كما تسقط التى للبناء للتخفيف .

فإن قلت : إن سقوطها فى الوقف ، إنما جاز لأنه إذا وصلت الكلمة ظهرت الحركة ، ويستدل عليها بالموضع ، قيل : وكذلك إذا سكن نحو هنك ، استدل عليه بالموضع .

فإذا فارقت هذه الصفة التي أشبهت لها بسببها ظهرت كما تظهر التي للإعراب في الوصل .

ومما يدل على أن هذه الحركة إذا أسكنت كانت مرادة ، كما أن حركة الإعراب مرادة ، قولهم : رضى ، ولقضو الرجل ، فأسكنوا ، ولم يرجعوا الواو والياء إلى الأصل ، حيث كانت مرادة ، كذلك تكون حركة الإعراب لما كانت مرادة ، وإن حذفت لم يمتنع حذفها ، بمنزلة إثباتها في الجواز ، كما كانت الحركة فيما ذكرنا كذلك .

فإن قلت إن حركات الإعراب تدل على المعنى ، فإذا حذفت اختلت الدلالة عليه ، قيل : وحركات البناء قد تدل على المعنى وقد حذفت ، ألا ترى أن تحريك العين في نحو ضرب يدل على معنى ، وقد جاز إسكانها فكذلك يجوز إسكان حركة الإعراب ، وكذلك الكسر في نحو حذر ، والضم في نحو حذُر »

تلك مقالة أبي على الفارسي ، يوطى بها الجواز اسكان حركة الإعراب ، ويدفع مايعترض هذا الرأى من مزاعم وشبهات .

— ٥ —

والمتتبع لما كتبه النحاة المتأخرون يجد الكثير من أقوالهم في تعليل ظاهرة الإسكان فيما حقه الإعراب ، ونحن ذاكرون هنا طرفاً منها :

(أ) جاء في التصريح على التوضيح :

« مسألة : قد يعطى الوصل حكم الوقف من إسكان مجرد ... وذلك قليل في الكلام المنثور بالنسبة إلى عدمه ، كثير في الشعر لأنه محل الخروج عن القياس . فمنه قراءة بعضهم : « وجئتك من سبأ بنبأ » بإسكان همزة سبأ في الوصل ، وقراءة غير حمزة والكسائى : لم يتسنه وانظر ، فبهداهم اقتده قل ، بإثبات هاء السكت في الدرج فيهما ، وأتى بانظر في الأول وقل في الثاني ليبين كيفية الوصل » .

(ب) جاء في « همع الهوامع » للسيوطى :

« اختلف في جواز حذف الحركة الظاهرة من الأسماء والأفعال الصحيحة على أقوال :
أحدها الجواز مطلقاً ، وعليه ابن مالك .
وقال : إن أبا عمرو حكاه عن لغة تميم ، وخرج عليه قراءة : « وبعولتهن أحق بردهن » بسكون التاء ، ورسلنا بسكون اللام ، « فتوبوا إلى بارئكم » ، « ومكر السيء » ، « وما يشعركم » و « يأمركم » بسكون أواخرها . وقول الشاعر : « وقد بدا هنلك من المئزر » ، وقوله : « فاليوم أشرب غير مستحقب » . والثاني : المنع مطلقاً في الشعر وغيره ، وعليه المبرد ، وقال : الرواية في البيتين : وقد بدا ذاك ، فاليوم أسقى . والثالث : الجواز في الشعر ، والمنع في الاختيار ، وعليه الجمهور .

قال أبو حيان : وإذا ثبت نقل أبي عمرو ، وأن ذلك لغة تميم ، كان حجة على المذهبين»

(ج) جاء في «خزانة الأدب» للبغدادي :

« قال الشاعر :

فأنت طلاق والطلاق عزيمة
ثلاثاً ومن يخرق أعق وأظلم

روى الجماعة : ومن يخرق ؛ فقال ابن يعيش : من شرطية . ورد عليه الدماميني بأنه يلزمه حذف الفاء والمبتدأ من جملة الجزاء : والتقدير : فهو أعق وأظلم . وليس هذا بمتعين ، لجواز أن تكون موصولة ، وتسكين القاف للتخفيف : كقراءة أبي عمرو : وما يشعركم بإسكان الراء ؛ وأعق خبر من الموصولة ، فلا حذف ولا ضرورة ولا قبح . اهـ . والذى ذكره الجعبرى أن وجه الإسكان فيه طلب التخفيف عند اجتماع ثلاث حركات ثقال من نوع واحد أو نوعين ، ويخرق ليس منها . وأما التسكين في قوله : فاليوم أشرب فقد قيل إنه للضرورة . »

(د) جاء في حاشية « الخضرى » :

« تتمة — بقي مما تقدر فيه الحركات ماسكن للتخفيف ، كتسكين « بارئكم » و « بعولتهن » و « رسلنا » و « مكر السيء » و « يأمركم » و « يشعركم » . والصحيح جوازه نثراً ، للقراءة به في السبع » .

— ٦ —

ولنا على ما أوردناه من نصوص النحاة تعقيبات قصار :

أولا — أن إعطاء الوصل حكم الوقف معترف بأنه تعليل لغوى لظاهرة الإسكان في بعض الكلمات الواردة في أفصح النصوص.

ثانيا — أن الكلمات التي وردت في قراءات القرآن ساكنة الأواخر في حال الوصل مروية عند جمهرة من القراء ، وفي مقدمتهم أبو عمرو ، وهذه الروايات وثيقة في سندها اللغوى .

ثالثاً — أن الإسكان في موضع التحريك محكى عن لغة « تميم » ، وهذا ماجعل « أبا حيان » يقول إن ثبوت نقل « أبي عمرو» وأن ذلك لغة تميم حجة على من يمنع الإسكان مطلقاً ، كما أنه حجة على من يقول إنه جائز في الشعر ، ممنوع الاختيـــــار

رابعاً — أن « ابن مالك » يتبنى القول بجواز الإسكان مطلقا في الشعر وغيره ، وقد أحسن صاحب التصريح في قوله : إن ذلك قليل في الكلام المنثور بالنسبة إلى عدمه ، والمراد بالقلة هنا قلة النسبة . وليس المراد القلة التي تمنع الإجازة . وفي هذا بيان دقيق .

خامساً — يلاحظ أن « المبرد » وغيره يعالجون الأبيات التي ورد فيها الإسكان ، بتغيير وتبديل ، لتحقيق اطراد القاعدة العامة في الإعراب .

ولكن روايات القراء المعتمدة التي جاء فيها الإسكان تقف في وجه المانعين ، لا يجدون عنها حولا ، ولا يستطيعون فيها صرفا ولا عدلا .

— ٧ —

وأياً كان ، فإذا شئنا أن ندرس الدعوة إلى ترك الإعراب ، فلنتجاف عن القول بأن ذلك جحود لأصول اللغة ، وأنه عبث بأقداسها ، كما تجافى عن ذلك من نرجع إليهم ونأنس بهم من سلفنا العلمى .

وليكن بحثنا فى هذه المشكلة على أساس من تقدير الحاجة وتقدير الأثر الذى ينجم عن ترك حركات الإعراب ، والموازنة بين ما يفوتنا بهذا الترك ، وما نفيده منه .

وإذن يمضى البحث طليقا حراً على بصيرة وهدى .

وعسى أن يكون هذا التوجيه سبيلا إلى النظر فى مشكلة الإعراب، على ضوء جديد ، فى مسلك رشيد .

بعض المراجع :

١ — الحجة — لأبى على الفارسى .

٢ — الخصائص — لابن جنى (باب إجراء المتصل مجرى المنفصل) .

٣ — المحتسب لابن جنى — ١ — ١٠٤ .

٤ — الرضى — باب الوقف —

٥ — شرح المفصل للزمخشرى وابن يعيش — ج ٥ — ٨٩ و ج ٩ — ٨١ .

٦ — الهمع — للسيوطى .

٧ — النشر — للجزرى .

٨ — الروض الأنف للسهيلى : ١ — ١١٦ .

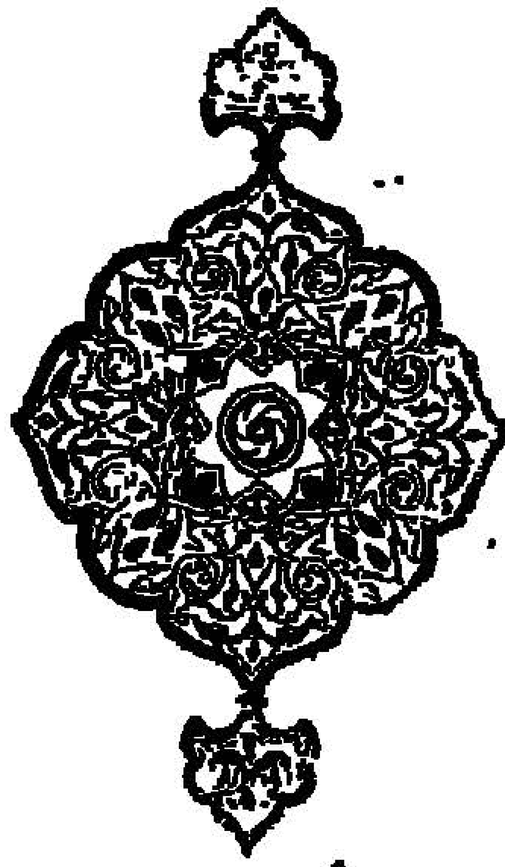
٩ — خزانة الأدب — ج ٣ — ٤٢٢ .

١٠ — التصريح على التوضيح ١ — ١٠٤ ٢ — ٤٣٣

١١ — الضرائر — للألوسى ٢٧٠ .

١٢ — حاشية الصبان — باب الوقف .

محمد شوقى أمين
عضو المجمع



مظاهر زهد أبي العلاء

للدكتور أحمد الحوفي

عضو المجمع

كان لزهد أبي العلاء المعرى أسباب تحدثت عنها فى المقال السابق ، وكان لهذا الزهد عدة مظاهر أخذ بها نفسه ، وتشدد فى التزامها .

١ – العزلة :

من هذه المظاهر أنه إعتزل الناس عن روية وعقيدة ، وقد اعتزم أن يعتزلهم بعد أن استشار أصدقاءه ببغداد قبيل رحيله منها ، يدلنا على هذا رسالة كتبها إلى أهل المعرة ينهاهم فيها عن الحفاوة بقدومه ، ويخبرهم بعزمه على العزلة.

فهل استطاع أن يحقق ما اعتزم ؟

وكيف والمعجبون به من الخلان والطلاب يسارعون إليه وهو لايردهم عن مجلسه حياء منه ؟

وكيف وهو علامة لم يستطع أن يحبس نفسه كما انتوى ، فلم يلبث أن اشتغل بالتعليم ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لايخالط الناس هذا الخلاط الذى نعرفه ونألفه .

أما سبب إيثاره العزلة فسوء رأيه فى الناس لأنهم فى عقيدته ينافقون ويخادعون ، يبدون الطيبة والطهارة والنبالة . ولو أطلعت على مافى قلوبهم لوليت منهم فرارًا ، ولملئت منهم رعباً :

يلقاك بالماء النمير الفتى
وفى ضمير النفس نارٌ تقِدْ[١]
يعطيك لفظاً ليِّناً مسُّه
ومثل حدِّ السيف ما يعتقد

يروقك مظهرهم ، ويسوؤك مخبرهم ، وأكرمهم خلقاً عبدٌ لمنافعه ، وأشرف من

(١) تقد : تتقد

أشرفهم جلمود صلد لايعتدى ولايفترى

يحْسُنَ مرأى لبنى آدم

وكلهم فى الذوق لايعْذُبُ

ما فيهمُ بر ولا ناسك

إلا إلى نفع له يُجذب

وأفضل من أفضلهم صخرةٌ

لاتظلم الناس ولاتكذب

والبعد عنهم نجاة من أمراضهم ، ومخالطتهم تفسد العقل ، لأنهم متخلفون فى الفهم ، مولعون بتلبيس الدين بالخرافات :

بعدى من الناس بُرْءٌ من سقامهم

وقربهم للحِجا والدين أدواءُ

والخير فى تجنبهم لتأمن شرهم ومقتهم ونكرانهم للجميل :

وجانب الناس تأمنْ سوء فعلهم

وأن تكون لدى الجُلّاس ممقوتاً

لابد من أن يذموا كلَّ من صحبوا

ولو أراهم حصى المعْزاء ياقوتا[1] .

واللبيب الحازم من لايكشف لهم عن سر عقيدته :

لاتخبرنَّ بكُنْهِ دينك معشرا

شطرًا وإن تفعل فأنت مُغرَّرٌ[2]

واصمت فإن الصمت يكفى أهله

والنطق يُظْهِر كامناً ويُقرِّر

ولاخير فى العالم كله ، وشر مافيه ناسه

قد فاضت الدنيا بأدناسها

على برايـاها وأجناسها

والشر فى العالم حتى التى

مكسبها من فضْل عِرْناسها

وكل حىٍّ فوقها عالم

وما بها أظلم من ناسها[3]

٢ ـ سوء رأيه فى الفطرة الانسانية :

لماذا نقم أبو العلاء من الناس ؟ ولماذا باعد بينه وبينهم ؟

أكان السبب سوء خلقهم فحسب ؟

أحسب أن المجتمع العريض الطويل الكبير فى الشام والعراق لم يخل من

---

(١) المعزاء : الأرض الصلبة

(٢) الشطر : جمع شاطر وهو الخبيث

(٣) العرناس : موضع القطن الذى تنزله المرأة والمراد المنزل

أناس ذوى دين وخلق فيرضى عنهم – أبو العلاء .

فلابد أن يكون هنالك سبب آخر لضيقه بالناس ، وهذا السبب يتصل برأيه فى أصل الفطرة الإنسانية .

ولقد اختلف الفلاسفة منذ زمن قديم فى نزعات الفطرة الإنسانية الأصيلة ، أخير هى أم شر ؟

أما سقراط فذهب إلى خيريتها ، ورأى أن نفس الطفل كالصفحة البيضاء مستعدة لأن تتأثر بالخير وبالشر .

وأما أفلوطين الفيلسوف المصرى فذهب الى أن الفطرة الأصيلة شر ، لأن النفس جوهر مستقل مجرد هبطت من العالم العلوى إلى العالم المادى ، فاصطبغت بالشر ، ويمكن التسامى بها بتصفيتها من أوضار المادة وحرمان الجسم من لذاته ، وتجريده من زخارف الحياة ، وأخذه بالعلوم ، واعتزال الناس ، وعندئذ تتهيأ النفس للاتصال بالعالم العلوى والائتناس بمبدعها.

ولقد كانت لهذه الفكرة الأفلوطينية دولة وصولة فى القرن الثامن عشر ، إذ اعتنقها وتغالى فيها اليسوعيون واليسنسيون حملة ألوية التعليم ، وألفوا الكتب ، وشادوا المدارس ، وسنوا نظم التعليم متأثرين بأن الفطرة شر ، وصلاحها بالعقاب الصارم والثواب المغرى .

ثم جاء روسو فزلزل هذه الدعائم بذلاقة لسانه ، وصلابة بيانه ، فوصلت دعوته إلى أعماق النفوس العاقلة ، وكثر مؤيدوه ، وكتب لآرائه النصر .

لكن الفيلسوف كانت جاء بعد روسو فأثبت أن الطفل منذ ولادته إلى بلوغه سناً معينة خال من الميل إلى الخير والشر ، لأنه لا يفكر فيما يعمل أو يقول .

أما دستورنا الصحيح الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه فيقرر أن الطفل يولد مستعداً للخير وللشر معاً ، قال تعالى : « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين[1] » وقال سبحانه : «ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها[2] » .

(١) سورة البلد ٨ – ١٠

(٢) سورة الشمس ٧ – ٨

فإلى أى وجهة جنح أبو العلاء ؟

إن بواعث زهده وما سبق من مظاهر هذا الزهد تؤكد أنه لا يمكن أن يذهب إلى خيرية الفطرة ، لأنه ساخط متشائم مبغض للناس ذام لطباعهم .

لهذا كان الانسان فى رأيه شريرا بطبعه ، ومن العسير إصلاحه ، وقد كلف بهذه الفكرة ورددها فى شعره وفى نثره ، وكلف بها فطبقها على حياته وعلى معاملاته فزهد ، واعتزل ، وأعزب .

وقد افتتن فى ذم الإنسان ، وإن كان لم يبرىء نفسه هو من الذم والهوان :

إن حازت الناس أخلاقٌ يقاس بها
فإنهم عند سوء الطبع أسواءُ
إن كان كل بنى حواء يشبهنى
فبئس ما ولدت للناس حواء

وقال :

وفائدة النوم الخروج بأهله
عن عالم هو بالأذى مجبولُ

ولم يكن الناس يوماً صُلّاحاً ففسدوا ، أو أتقياء ففجروا ، وإنما هم من طينة الشر خلقوا :

وهكذا كان أهل الأرض منذ فطروا
فلا يظن جهول أنهم فسدوا

وفى محاورته للغراب وصف الإنسان بالجور ونكران الجميل :

جُرْ يا غراب وافسدْ لن ترى أحدا
إلا مسيئاً وأى الخلق لم يجُر
فخذْ من الزرع مايكفيك عن عُرُض
وحاول الرزق فى العالى من الشجر
لو كنت حافظ أثمار لهم ينَعتْ
ثم اقتربت لما أخلوك من حجر

٣ ـ **سخطه على الحياة :**

تسخط المعرى حياته ، وتبرم بوجوده وكان للدنيا قاليا ، لم يزل يسبها ويقرعها باللوم حتى صار أكثر الشعراء لها ذما ، لهذا تمنى للوليد ألا يولد حيا ، وتمنى للحى أن يفنى :

فليت وليدا مات ساعة وضعه
ولم يرتضِع من أمه النُفَساء

بل لقد كان الخليق بهذا العالم ألا يوجد :

خيرٌ لآدم والخلق الذى خلِقوا
من ظهره أن يكونوا قبلُ ماخلقوا

والدنيا مقبرة لاتستحق تكالب الناس عليها :

أصاح هـ الدنيا تشابه ميْتــةً
ونحن حواليْهــا الكلاب النوابحُ
فمن ظلَّ منها آكلا فهو خاسرٌ
ومن راح عنها ساغباً فهو رابح

وقال :

لاتلبس الدنيـا فإن لباسها
سقمٌ وعرٌ الجسمَ من أثوابهـا
ولتفعـل النفسُ الجميل لأنه
خيرٌ وأحسن لا لأجـل ثوابهـا

وقال :

أغنى الأنام تقىٌّ فى ذُرا جبـل
يرْضَى القليلَ وَيأْبَى الوشْى والتاجا
وأفقـر النـاس فى دنياهم ملك
يُضحِى إلى اللُّجب الجرار محتاجا

٤ ـ العزوبة :

لم يكن عجيباً أن آثر أبو العلاء ـ العزوبة ، فلم يتزوج ، ونصح بالإعراض عن الزواج ، لتنقطع هذه الحياة بانقطاع النسل ، فالنسل جناية على أبنائنا الأبرياء لأنه يلقيهم فى عالم مسجور بالشرور . وقد أوصى أن يكتب على قبره :

هـذا جنـاه أبى على
ومـا جنيت على أحـد

ولكن ماذا يفعل الرجل الصحيح الجسد إذا ألحت عليه الغريزة ؟

أيجترح إثماً ؟ أم يتزوج ؟

يجيب أبو العلاء بأن له أن يتزوج ، ولكن عليه ألا ينسل ، وأى عاقل يبيح لنفسه الإنسال للشقاء ثم للفناء :

نصحتك لاتنكِحْ فإن خفت مأثما
فأعرِسْ ولا تُنْسِل فذلك أحزمُ

وكل امرئ نجرع فى هذه الحيـاة كؤوساً مرة ، واصطلى بلهب الشدائد مرة بعد مرة ، فمن العدل ألا ينسل فينتقم من الأبرياء والمستورين وراء حجب الغيب :

وألقـاك فيها والداك فلا تضَعْ
بها ولدا يلْقَى الشدائد والنكرا

على أن الذرية تشقى الآباء والأمهات :

صحِبْنك فاستفدت بهن وُلْـدًا
أصابك من أذاتك بالسِّمات
ومن رُزق البنين فغيرُ نـاءٍ
بذلك عن نـوائب مُشْقِمات
فمن ثُكْل يُهـابُ ومن عقوق
وأرزاء يجئـن مصممـات
وإن تُعْطَ البنـاتِ فأىٌّ بؤس
تَبيَّن فى وجـوهٍ مُقَسَّمـات
يُـردن بعـولةً ويُـردْن حلْيـا
ويلْقَيـن الخطـوب مُلوَّمـات

وهو إلى تحرجه من النسل رحمة بالأبناء، وخشية من مشقاتهم وعقوقهم كان سيىء الظن بالمرأة، يشك فى حصانتها وفى وفائها لزوجها :

وما تمنعُ الخوْد الحصان حصونها
ولو أن أبراج السماء حُصونها

وقال :

لاتدنُونَّ من النساء
فإن غبَّ الأَرْى مُر[1]

وكراهيته للنساء جعلته يؤثر موتهن، ويعتده نعمة :

ودفْنُ الغانيات لهن أولى
من الكِلَلِ المنيعة والخدور

وجعلته يفضل حياة الرهبان :

ويعجبنى عيش الذين ترهبوا
سوى أكلهم كدَّ النفوس الشحائح

٥ ـ الرحمة بالحيوان، وإيثار النبات :

كان رقيق القلب رحيما، يعتقد أن ذبح الحيوان قسوة وعدوان، وينشأ عنه يتم الولد أو ثكل الوالدة، ولعله تأثر فى هذا بمذهب البراهمة الذين يحرمون الحيوان ونتاجه.

ولذلك عاش نباتياً، ولهذا المذهب النباتى فى عصرنا أنصار لهم حججهم. ولخصومهم ردود وحجج، فالنباتيون يتذرعون بأن أمعاء الإنسان طوال وأمعاء أكلة اللحوم قصار، لئلا يطول مكث اللحم بها فيتعفن ويضر، ويقولون إن فى النبات العناصر الغذائية كلها، وإن الاقتصار عليها ينجى من أمراض قد ينقلها لحم الحيوان، ويرون أن ذبح الحيوان قسوة واعتداء، وأن حرمانه نتاجه ظلم وجشع، ثم إن النبات أرخص من اللحم.

اعتنق أبو العلاء هذا المذهب خمسا وأربعين سنة عن عقيدة، ودعا مرارًا فى شعره إلى متابعة هذا المذهب؛ فنهى عن أكل اللحم والسمك والبيض واللبن والطير وعسل النحل :

فلا تأكلنْ ما أخرج البحرُ ظالما
ولاتبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بيض أمّاتٍ أرادتْ صريحه
لأطفالها دون الغوانى الصرائح

---

(١) الارى : عسل النحل .

ولاتفجعنَّ الطير وهى غـوافـل

بمـا وضعتْ فالظلم شر القبائح

ودعْ ضربَ النحل الذى بكرتْ له

كواسب من أزهار نبْتٍ فوائح[1]

فما أحـرزتْهُ كى يكون لغيرها

ولا جمعتْـه للنَّـدَى والمنائح

وقال :

ولا أفْجعُ الأمَّ فى الوضيع ولا

أشْركُ هذا الغريـرَ فى اللبن[2]

عاش نهاتياً ، يمنع نفسه اللحم ، ولا يشربُ اللبن ، ولايذوق الجبن ، ولا يـأكل البيض ، فلما مرض مرضه الأخير أشار الطبيب بأن يطعم فروجا ليتقوى به ، لكنه حينما قدم إليه أمسكه وقال : استضعفوك فأماتوك ، هلّا قدموا شبل الأسد ؟

ومن الإنصاف للمعرى أن نذكر أنه لم يحرم الحيوان ونتاجه تحريماً ، وكيف يحرمه وهو يعلم أن الله سبحانه وتعا أحله ، ويعلم أن الحيوان يتكاثر ، فلو خُلِّى وشُيِّب لضاقت به الأرض بما رحبت ولنفدت الأقوات ، ولمات البشر جوعاً .

إنما استبشع المعرى ذبح الحيوان والسطو على ثمراته ، ورحمه ، ورأف به ، وعسى أن يكون قد أراد بذلك حسن المثوبة ، ولقد يدل على أن الباعث الرأفة لا التحريم قوله :

تسريحُ كفك برغوثاً ظفرت به

أبـرُّ من درهم تعطيه محتاجاً

وسئل عن تحريمه الحيوان وقد أحله الله ، فقال : أنا أتركه زهدًا ورحمة ; ورد على من ادعى أن ترك اللحم ذميم بقوله : « ولو أخذ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألا يصلى صلاة إلاماافترض عليه ، لأن مازاد على ذلك أداة إلى كلفة : والله تبارك وتعالى لايريد ذلك ، ولووجب أن الذى له مال كثير إذا أخرج عن الذهب ربع العشر لايحسن به أن يزيدعلى ذلك » . فهو يعلم أن الله عز وجل أحل لحم الحيوان وأباحه ، ولكنه يتوق عواقبَ الذبح واغتصاب النتاج .

(١) ضرب النحل : عسلها .

(٢) الغرير : ولد البقرة والنعجة والماعز .

وقد لقيه رجل فسأله : لم لاتأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان ، قال الرجل : فما تقول فى السباع التى لاطعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان لذلك خالق فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطبائع هى المحدثة لذلك فما أنت بأحذق منها ، فسكت أبو العلاء .

٦ ـ الجبر :

لم يكن بد لهذا الشاعر الفيلسوف المرزوء المتهرم أن يدين بالجبر ، ولعله ساءل نفسه : لم هذه الفوضى الضاربة فى أعماق المجتمع ؟

ولم هذا التباين بين أفراده وطبقاته ؟

وهل تخير الأشقياء فى حياتهم الشقاوة ؟

وهل آثر أحد لنفسه البلوى والعمى والفقر والقهج وفقدان النصير ؟

لو بوده لنعم بنور عينيه ، ولسعد بثروة واسعة ، ولا ختال فى برد من الجمال ، ولكان ظهيرا ونصيرًا لكل ضعيف وفقير ، ولكن هكذا اختير له ، وهكذا وجد نفسه لا حول له ولا طول فى تغيير الواقع وإن جهد ، فما بال الناس يجهلون الحق ، ويجحدون الواقع ، فينكرون أننا مسيَّرون ؟

آمن بالجبر ، ونص فى مقدمة اللزوميات أنه مجبر على نظم هذا الديوان ، وأنه ألفه بتأثير قوة لايعرف حقيقتها ، وكرر الجبر فى مواضع شتّى ، واحتج له ، وعزا إليه كل عمل ، فنحن نستهل على الدنيا بغير اختيار ، ونفارقها على اضطرار :

المرءُ يقْدم دنياه على خَطَر
بالكره منه وينآها على سُخُط

وقال :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ورحلتى
إلى غيرها بالرغم واللهُ شاهدُ
فهل أنا فيما بين ذيْنك مُجبرٌ
على عمل أم مستطيعٌ فجاهدُ ؟

٧ ـ التخشن :

التزم أبو العلاء نظاماً قاسياً فى حياته ، حمله على الشظف من العيش والخشن من الحياة ، والقناعة بما نالت يداه ، وقال :

قنعتُ فخلتُ أن النجم دونى
وبيَّان التقنع والجهادُ

ولم يجالسِ الناس على مائدة ، ولم يره أحد يأكل ، لأنه كان إذا أراد الطعام أوى إلى نفق له فيأكل فيه ، وكان طعامه العدس ، وحلواه التين ، قال :

يُقنِعني بُلسُنٌ يمارسُ لى
فإن أتتنى حلاة فبلَسْ (١)

وكان يلبس ثياباً من القطن غلاظا ، ويفترش اللبد فى الشتاء ، وحصر البردى فى الصيف .

وجانب الخمر ، وحرمها ديناً وعقلا وصحة ، وألف فى ذمها كتاباً سماه (حماسة الراح) ، ومن قوله فيها :

يا بدوىُّ اتّق المدامة إن الخمر
باتت كثيرة الأُبن (٢)
آليت ما سمَّحتْ أخا بُخُل
يوماً ولا شجَّعت أخا جُبُن

وقضى حياته متزمتاً مكتئباً يرى أن الضحك جنون :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحُقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكنْ لايعادُ له سبك

وقال :

فافرقْ من الضحك واحذر أن تحالفه
أما ترى الغيْم لما استضحك انتحبا

عفا الله عن أبى العلاء ، لقد كان شاعراً فيلسوفاً ، سبق عصره ، ومازال إلى اليوم يدرس فى الشرق وفى الغرب دراسة تنم عن تقديره وإكباره .

احمد الحوفى
عضو المجمع

---

(١) البلسن : العدس : البلس : التين

(٢) الابن : جمع أبنة وهى العنب .

تحقيق لسان العرب

— ٧ —

للأستاذ عبد السلام هارون

٨٨٨ ـ (أبل) : ٢٣ وبيروت ١١ :٥
والمخطوطة ، قول أبي ذويب الهذلى :

بها أبلت شهرَى ربيع كلاهما
فقد مارَ فيها نسؤها واقترارها

وصواب الرواية « به » كما فى ديوان الهذليين ١ :٢٣ وشرح السكرى ، والمقاييس والصحاح (أبل) . كما أن الصواب أيضاً « كليهما » فهى توكيد لشهرى ربيع .

٨٨٩ـ (أبل) ٥ : ١٤ والمخطوطة :

* أبابيل هلطى من مُسراحٍ ومُهمل *

والوجه « هطْلَى » كما فى اللسان (هطل ٢٢٤) والصحاح (هطل) أيضاً . وقد وردت على الصواب فى طبعة بيروت٥ والهطلى من الإبل : التى تمشى رويداً .

٨٩٠ـ (أبل) ٦ : ٢٢ وبيروت ٦ : « والأَبِيْل صاحب الناقوس الذى ينقِّس النصارى بناقوسه يدعوهم به إلى الصلاة » ووردت كلمة « ينقس » فى المخطوطة مهملة النقط فيما عدا القاف التى نقطت بنقطتين ووضع شدة فوقها . والوجه فى ذلك كله « ينقُس » كما فى اللسان والقاموس . من النَّقْس ، وهو ضرب الناقوس . وفى حديث بدء الأَذان : « حتى نقَسوا أو كادوا ينقُسون حتى رأى عبد الله بن زيد الأَذان » .

أما التنقيس فهو جعل النِّقس فى الدواة ، وهو المداد .

٨٩١ـ (بغل) ٦٣ : ٩ وبيروت ٦٠ والمخطوطة كذلك : « البغل هذا الحيوان السحاج الذى يُركب » . ولا وجه للسحج هنا . والصواب « الشحاج » بالشين المعجمة ، من الشحيج والشُّحاج ، وهو صوت البغل ، وبعض أصوات الحمار . وأما السحج فهو الخدش والعض ، فليس مرادًا هنا .

٨٩٢– (بقل) ٦٤ : ٩ وبيروت ٦١

قول أبي النجم :

* يلمحْن من كلِّ غَميسٍ مُهْقِلِ *

وليس للَّمح هنا وجه، والوجه «يلمُجْن» بالجيم . واللمج : الأكل ، أو هو الأكل بأدنى الفم ، ومنه قول لبيد يصف عَيرًا :

يلمجُ البارض لمجاً في النـدى
من مرابيعِ رياضٍ ورجَـلْ

٨٩٣– (بقل) ٦٤ : ٢٥ وبيروت ٦١ : « قال مالك بن خويلد الخزاعي الهذلي :

تالله يبقى على الأيـام مبتقل
جونُ السَّراة رباعٍ سنُّه غردُ

وفي المخطوطة : « الحراعي » ، صوابهما جميعاً « الخناعي » : نسبة إلى خناعة ابن سعد بن هذيل . وليس في الهذليين خزاعة ، إنما خزاعة من عامر بن قمعة بن الياس بن مضر . وهذيل هم بنو مدركة ابن الياس بن مضر . ومع هذا إن صواب نسبة البيت لأبي ذويب الهذلي ، في ديوان الهذليين ١ : ١٢٤ وشرح السكري ١ : ٥٦ وهو مطلع قصيدة له .

٨٩٤– (بلل) ٦٨ : ٢٠ وبيروت ٦٥

وأصل المقاييس ١ : ١٩٠ قول الشاعر :

ينفِّرن بالحيجاء شاءَ صُعائد
ومن جانب الوادي الحمام المبلَّلا

وجاء في حاشية مصحح اللسان : « قوله بالحيجاء هكذا في الأصل وشرح القاموس . وحرره ». وقد أخطأ المصحح كذلك ، فإن الذي في الأصل هو «بالحيحا» مهملة النقط لا بالجيم كما ذكر ، وصواب نصه « بالحيحاء » كما في شرح القصائد السبع الطوال ٥٦٣ . وجاء في اللسان (حا ٣٣٣) في الجزء العشرين : « أبو زيد : حاحيت بالمعزى حِيحاءً ومحاحاة : صحت بها ». ثم ذكر قولًا آخر يصحح ضبطها بفتح الحاء لا بكسرها . وفي القاموس (حيح) : « حاحيتُ حِيحاءً ، مُثِّل به في كتب التصريف ولم يفسَّر . وقال الأخفش : لا نظير له سوى عاعيت وهاهيت » . وصُعائد : موضع .

٨٩٥– (بلل) ٧٤ : ١٦ وبيروت ٧٠

قول الراجز :

وبلدة ما الإنس من آهالهـا
ترى بها العوهق من وئالهـا

وفى المخطوطة : « من وثالها » بالواو كذلك، وبالياء المنقوطة بنقطتين وفوقها همزة . وكلاهما خطأ، والصواب : « من رئالها »، جمع رأل ، وهو ولد النعام أو الحولى منها . والعوهق من النعام : الطويل .

٨٩٦– (تلل) ٨٣ : ١٦ وبيروت ٧٩ والمخطوطة : وقوله، أنشده سيبويه :

طويل مِتل العنق أشرف كاهلًا
رحيب . . . الجوفِ معتدلُ الجِرْمِ

وقال مصحح بولاق : « كذا وقع هذا البياض بالأصل » . وبالرجوع إلى سيبويه ١ : ٨١ بولاق و ١ : ١٦٢ من نسختى نجد عجز البيت، مع نسبته إلى عمرو ابن عمار النَّهدى :

* أَشَقُّ رحيب الجوف مُعتدِلُ الجِرمِ *

وكان ينبغى أن يكون البياض فى أول العجز ، لابعد أول كلمة منه .

٨٩٧– (ثتل) ٨٦ : ١٣ وبيروت ٨٢ لأمية بن أبى الصلت :

والنّاسيحُ والثياتل والأ
يَلُ شتى والريمُ واليعفورُ

وكذا ورد فى المخطوطة : « واليعفورُ » : والصواب النصب فى كل كلمات البيت على هذه الصورة :

والنّاسيحَ والثياتلَ والأ
يَّلَ شتىً والرِّيمَ واليعفورا

كما فى الحيوان ٧ : ٢٠٩ وديوان أمية بن أبى الصلت ٣٤ وفيه « والرئم والعصفورا » وهى رواية . وقبل البيت فى الحيوان والديوان :

خلق النخلَ مُعْصِراتٍ تراها
تعصف اليابسات والمخضورا

٨٩٨– (ثعل) ٨٧ : ٢٥ وبيروت ٨٣ والمخطوطة كذلك، فى تفسير قول الشاعر :

فطارت بالجدود بنو نزارٍ
فسُدناهم وأثقلت المِضَارُ

جاء فى التفسير بعده : « والمضار : جمع مَضَر » . والصواب « مُضَر » كما فى مجالس ثعلب ٥٢٩ وهو اسم القبيلة المعروفة : وفى مجالس ثعلب : « جمع مُضَر مِضَار » : والشاعر هنا هو القطامى ، كما ورد فى حواشى مجالس ثعلب . وانظر ديوان القطامى ٨٦ :

٨٩٩ـ (ثلل) ٩٦ : ١١ وبيروت ٩١
قال يصف برذوناً :

* مِثَــلٌ على آريِّهِ الرَّوث مُنثـلُ *

وجاء فى المخطوطة : « مُنْثَلٌ » بتخفيف اللام مضبوطة بالضمة ، مع ضبط الميم بالضمة أيضاً . والصواب « مِنْثَلُ » بكسر الميم وتخفيف اللام . وفى القاموس : « والفرس ينثُل بالضم : راث ، فهو مِنثَل » وفى اللسان (انثل) : « ونثل الفرس ينثلُ فهو مِنثلٌ : راث » . وأنشد البيت بتمامه :

ثقيل على من ساسهُ غير أنَّه
مِثَلٌ على آريِّه الرَّوث مِنثَلُ

٩٠٠ ـ (جأل) ١٠١ : ١٣ وبيروت ٩٦
والمخطوطة أيضاً قول الراجز :

* وشاركَتْ منك بشأْوٍ جيأَلَهْ *

ولا وجه للشأْو هنا ، فإن معانيه ـ محصورة فى السبق ، وفى التراب المستخرج من البئر . وصوابه : « بشِلْو » . والشِّلْو ، بالكسر : العضو من أعضاء البدن . دعا عليه أن تأكله الضبع بعد موته أو قتله . وقبل الشطر :

لبتك إذْ رُهنتَ آلَ مـوألَهْ
حزُّوا بنصل السيف عِنْد السَّبلهْ

٩٠١ـ (جبل) ١٠٢ : ١١ وبيروت ٩٧ : « وأجبل الحافر : انتهى إلى جبل ، وأجبل القوم ، إذا حفروا فبلغوا المكان الصُّلب ، قال الأعشى :

وطـال السَّنـامُ على جبلة
كخلقاء من هضبات الحَضَنْ »

والصواب « على جَبْلة » بفتح الجيم كما فى المخطوطة . والبيت فى صفة ناقة : والجبلة ، بالفتح : الناقة العظيمة السَّنام ، كما يقال للسَّنام نفسه جَبلة ، كما فى المقاييس . وفى القاموس أن الجُبلة بالضم : السَّنام ويفتح . فهذه لغة أخرى . أما كسر الجيم فخطأ لم يرد فى المخطوطة ولا فى المعاجم .

ثم إن وضع ابن منظور للشاهد هذا الموضع لا وجه له ، كما هو ظاهر :

٩٠٢ـ (جبل) ١٢٢ : ١٨ وبيروت ٩٧ والمخطوطة أيضاً ، قول سدوس بن ضِباب :

إنى إلى كل أيسارٍ وبـاديـةٍ
أدعُو حبيشاً كما تُدعى ابنةُ الجَبَلِ

ولا وجه للبادية هنا ، إنما هى « ونادبة » بالنون والباء ، كما فى نوادر أبى زيد

١٤٢ وسمط اللآلى ٦٦٣ . والأيسار : جمع يَسَر ، بالتحريك . وهم القوم الذين يتياسرون ، أى يتقامرون على الجزور لاقتسامها . انظر الميسر والأزلام من تأليف كاتبه ٣٠ . يقول : إنه يشارك فى الميسر لتتاح له فرصة إطعام الفقير ، كما أن النادبات الحزينات على موتاهن يحتجن إلى عونه . أى إذا ندبت امرأة ميتها دعوت اهيا هذا الرجل فيجيبنى فى سرعة للأخذ بالثأر ، كما يجيب الصدى الصوت سرعةً . وابنة الجبل ، هى صدى الصوت الذى يُجيبك من الجبال و الصحراء .

٩٠٣ ـ (جدل) ١١٠ : ٢٤ وبيروت ١٠٥ قول أبى ذؤيب :

فهنَّ كعِقبان الشُّريج جوانحٌ
وهم فَوقها مستلئمو حلق الجَدْلِ

وجاء فى المخطوطة « الشُّريج » ، ووجه الرواية فيهما جميعاً : « الشُّرَيف » بالفاء فى آخره مع ضم الشين ، كما فى ديوان الهذليين ١ : ٣٨ وشرح السكرى ١ : ٩٢ وهو الموضع الذى تنسب إليه العِقبان . وفى معجم البلدان : « الشُّريف : تصغير شرَف ، وهو الموضع العالى ، ماء لبنى نُمير ، وتنسب إليه العقبان » . وأنشد لطفيل الغنوى :

تبيت لعقبان الشُّريفِ رجاله
إذا مانـووا إحـداث أمرٍ معطَّبِ

٩٠٤ ـ (جلل) ١٢٣ : ١٥ وبيروت ١١٦ : « وفى حديث أمِّ صِبْية كنَّا نكون فى المسجد نسوةً قد تجاللن ، أى كبِرن » . ووردت « صبية » فى المخطوطة بكسر الصاد أيضاً مع إهمال نقط الباء وتشديد الياء قبل الهاء . والصواب إن شاء الله « صُبيَّة » بهيئة التصغير ، كما فى الإصابة رقم ٣٧٤ من قسم النساء . واسمها خَولة بنت قيس . وانظر كنى النساء فى الإصابة رقم ١٢٤٧ .

٩٠٥ ـ (جلل) ١٣٠ : ٨ قول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعْساء بين جَلاَجلٍ
وبين النقَّى آأنت أمْ أمُّ سالم

وفى « النقَّى » خطأٌ ظاهر فى الضبط كما أن هناك خطأً فى الكتابة ، فإن « النَّقا » مما يرسم بالألف لا بالياء ، لأنها من مادة واوية . وقد جاءت على الصواب فى بيروت ١٢٣ والمخطوطة .

٩٠٦ـ (حبل) ١٥٠ : ٢ وبيروت ١٤١ « السَّمُر شبه اللُّوبياء، وهو الغَلَّف من الطلح، والسِّنْف من المرخ » . وإنما هو « العُلَّف » بالعين المهملة، وهو وعاء ثمر الطلح، كما أنَّ السِّنف وعاء ثمر المرْخ . ولا تعرف اللغة «الغُلَّف» بالغين المعجمة .

٩٠٧ـ (حبل) ١٥٠ : ٥ـ٦ وبيروت ١٤١ والمخطوطة : « حبال : اسم رجل من أصحاب طليحة بن خويلد، أصابه المسلمون فى الردَّة فقال فيه :

فإن تكُ أذوادٌ أُصِبْنَ ونِسوةٌ

فلن تذهبوا فِرغاً بقتلِ حِبالِ

والقول بأنه من أصحاب طليحة فيه تجوُّز، فإنه هو ابن طليحة كما فى الإصابة ١٩٤٠ . وجاء فى تفسير أبى حيان ٧ : ١٠٧ أنه أخو طليحة، والصواب أنه ابنه لا أخوه . وفى الإصابة أن طليحة قال لأصحابه وقد أصابهم عطش : « اركبوا حبالا، أى اسلكوا طريقه » . وحبال : ابنه كما فى جمهرة ابن دريد ٣ : ٢١٠ كذلك .

٩٠٨ـ (حصل) ١٦٣ : ٩ وبيروت ١٥٤ : « البلح قبل أن يشتدَّ وتظهر تفاريقه » والصواب « ثفاريقه » بالثاء المثلثة كما فى المخطوطة . والثُّفروق كعصفور : قِمع البسرة والتَّمْرة .

وكذلك وردت فى السطر العاشر « من تفاريقه » بالتاء المثناة فى المطبوعتَين والمخطوطة ؛ فلتصحح بالثاء المثلثة .

٩٠٩ـ (حلل) ١٧٩ : ٢ وبيروت ١٦٨ والمخطوطة أيضاً قول عبْدة بن الطبيب :

تُحفِى التراب بأظلاف ثمانية

فى أربع مسُّهنَّ الأرض تحليل

والبيت فى صفة ثور شبَّهه الشاعر به ناقته . والصواب « يخْفِى التراب » بالياء المفتوحة لا التاء المضمومة، وبالخاء لا الحاء المهملة، كما فى المفضليات ١٤٠ . فكما يقال خَفَى الشىء يَخفيه خَفْياً : كتمه وستره، يقال أيضاً خَفاه بمعنى أظهره واستخرجه، فهو من الأضداد . والمراد هنا أن هذا الثور يستخرج التراب من الأرض بشدة عَدْوه ونحوه قول امرئ القيس :

خفاهنَّ من أنفاقهن كأنَّما

خفاهُنَّ ودقٌ من سحاب مركَّب

٩١٠ ـ (حلل) ١٨٤ : ٨ وبيروت ١٧٣ قول ليلى الأخيلية :

لنـا تامكٌ دون السماء وأصلُه
مُقيمٌ طُوالَ الدهـر لن يتحلحلا

وينبغى أن تضبط طاء « طوال » بالفتح ، بمعنى طُولَ الدهر . ولم يضبط فى المخطوطة من حروف الكلمة إلا الواو ، ضبطت بالفتح . وأما الطُّوال بالضم فمعناه الطويل ، فإذا أفرط فى طوله قالوا طُوَّال بتشديد الواو .

٩١١ ـ (حلل) ١٨٤ : ٢٥ وبيروت ١٧٤ : « يقال للناقة إذا زجرتها حلْ جزمٌ ، وحَلٍ منوَّن ، وحَلَى جزم لاحليتِ » . وفى المخطوطة : « وحلى » الفتحة على الحاء فقط . وصواب ضبط اللام فيها بالكسر كما فى ١٨٥ : ٢ وكما ورد فى (حوب) ص ٣٣٠ س ٣ .

٩١٢ ـ (حمل) ١٩١ : ٢١ وبيروت ١٨٠ والمخطوطة أيضاً قول الجعدى :

كلبـانى حس مـامسه
وأفـانين فـؤاد محتمل

وهكذا ورد صدر البيت محرفاً مشوهاً وصوابه « كلِباً من حِسِّ ماءٍ مسَّه » كما فى إحدى روايتى البيت فى المعانى الكبير لابن قتيبة ١٢ قال : « ويروى من حس ماءٍ مسَّه » . وفسَّره بقوله : « أى لمَّا وجد مسَّ العرق أخذه شبيه بالجنون من شدة العدو » . وهذه هى الرواية التى تنسجم مع تصحيح البيت . أما الرواية الأُخرى فهى فى الديوان ٨٩ والحيوان ٢ : ٨ والمعانى الكبير ١١٣٣ وهى : « كلبا من حسِّ ما قد مسَّه » . والأُولى أوفق بهذا الموضع .

١٩٣ ـ (دخل) ٢٢٨ : ٢١ وبيروت ٢٤١ والمخطوطة : ومن كلامهم :

تـرى الفتيـان كالنخل
ومـا يدريك بالدَّخـلِ

وصوابه الرواية « ما الدَّخلُ » كما فى البيان ١ : ٢٢٠ وشرح الحماسة للمرزوقى ٩٢٤ وأمثال الميدانى ١ : ١٢٣ واللسان (حبجا ١٨٠) مع نسبة الشعر فى اللسان إلى ابنة الخُس . والصواب أيضاً أن أول من قال هذا المثل هو عثمة بنت مطرود البَجَاية ، كما قال المفضل بن سلمة فى الفاخر ١٥٦ ، وأن ابنة الخس ضمنت شعرها هذا البيت وقالت قبله :

قـالت قـالـةً أُختى
وحَجـواها لهـا عقلِ

وتعنى بأُختها هذه « عشمة بنت مطرود » صاحبة المثل . وبعد بيت ابنة الخس كما فى البيان :

وكلٌّ فى الهوى ليثٌ
وفيها نابه فسل
وليس الشأن فى الوصل
ولكن أن يُرى الفصل

٩١٤ـ (ذأل) ٢٧٠ : ١٤ وبيروت ٢٤٥ : « والذألان : مشى سريع خفيف فى مَيَس » . والصواب إسكان الياء فى « مَيْس » ، يقال ماس يميس مَيْساً وميساناً : تبختر واختال .

٩١٥ـ (رعل) ٣٠٦ : ١٨ وبيروت ٢٨٨ والمخطوطة : « قال الفِند الزِّمّانى ، واسمه سهل بن شيبان » ، والصواب « شهل » بالشين المعجمة كما فى الاشتقاق ٣٤٤ وجمهرة ابن حزم ٣٠٩ والخزانة ٢ : ٥٩ بولاق و ٣ : ٤٣٤ هارون . قال البغدادى : « وشهل بالشين . وليس فى العرب شهل بالمعجمة إلا هو وشهل بن أنمار من قبيلة بجيلة » . ولم يكن البكرى موفقاً فى زعمه فى اللآلى ٥٧٩ أن ليس فى العرب شهل بشين معجمة غير شهل بن شيبان ، إذ وضح أن هناك شهل بن أنمار . أما اشتقاق شهل فقد ورد اللسان (شهل) : « ولا يقال رجل شهل كهل ولا يوصف به ، إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل » .

٩١٦ـ (رقل) ٣١٢ : ١١ـ١٢ وبيروت ٢٩٣ : « وروى أبو عبيد عن أصحابه : الإرقال والإجذام والإجماز : سرعة سير الإبل » . وفى المخطوطة : « والإحمار » بالحاء والراء المهملتين ، وليس لأية واحد منهما وجه ، فإنه لم يرد من جمز إلا الثلاثى ؛ يقال جمز الإنسان والبعير والدابة يجمز جمزاً وجمزى ؛ وهو عدو دون الحضر الشديد ، كما أن الإحمار بالمهملتين لا وجه له ، وصوابهما جميعا « الإجمار » بالجيم والراء المهملة كما فى التهذيب ٩ : ٨٦ . وفى اللسان (جمر ٢١٨) : وأجمر الرجل والبعير : أسرع وعدا . ولا تقل أجمز بالزاى . قال لبيد :

وإذا حرَّكتُ غرزى أجمرت
أو قِرابى عدْوَ جَوْنٍ قد أَبل

٩١٧ـ (سبل) ٣٤٤ : ١ وبيروت ٣٢٣ والمخطوطة : « الشعر لجهم بن شِبْل » وفى المخطوطة : « شبل » بدون

ضبط ، وإنما هو « سبَل » بالسين المهملة ، كما يدل عليه الرجز الذى أنشدَه ، وهو :

أنا الجـواد بنُ الجوادِ بنِ سبَل

إن ديَّموا جادَ وإن جادوا وبلْ

٩١٨ـ (سحبل) ٣٥٢ : ٢٣ وبيروت ٣٣١ : « قال جعفر بن علبة الحرثى » ، وإنما هو « الحارثى » كما هو واضح فى المخطوطة . وهو من شعراء الحماسة ، انظر له المرزوقى ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٣٥٦ والخزانة ٤ : ٣٢٢ بولاق . وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين .

٩١٩ـ (سرل) ٣٥٦ : ٣ وبيروت ٣٣٤ قول ابن مقبل :

أتى دونَها ذبٌّ السرِّيادِ كأنَّـه

فتًى فـارسىٌّ فى سراويلِ رامحِ

ولم تضبط « سراويل رامح » فى المخطوطة . والصواب فى إنشاده « فى سراويلَ رامحُ » بالرفع فى « رامح » لا بالإضافة ، فإن البيت من قصيدة له مضمومة الروى فى ديوانه ، مطلعها :

دعتنـا بكَهفٍ من كُنابين دعوةً

على عجلٍ ، دهماءُ ، والركب رائح

والبيت المستشهد به من شواهد ـ الخزانة : ١١١ وابن يعيش ١ : ٦٤ والمقاييس ٢ : والمقالى ٢ : ١٦٤

٩٢٠ـ (سندل) ٣٧٠ : ٢٥ وبيروت ٣٤٨ : « والسندل : طائر يأكل البيش عن الحائط » . وفى المخطوطة « عن الحايط » ولا دخل للحائط بالبيش ، ولا علاقة بينهما . فإن البِيش نبت يكون ببلاد الهند ، وهو نبت سامّ ، يموت من تناول منه . والصواب « عن الجاحظ » ، أى إن هذا القول مأثور عن الجاحظ . ومن الحق أن الجاحظ قد ذكر السندل فى الحيوان ٦ : ٤٣٤ كما ذكره بلفظ «السمندل » فى ٢ : ١١١/ ٥ : ٣٠٩ ولكنه مع هذا لم يذكر أنه يأكل البيش بل ذكر أنه يسقط فى النار فلا يحترق ريشه . وقال فى ٥ : ٣٠٩ : « وفأرة ـ البيش : دويبّة تغتذى السموم فلا تضرُّها . والبيش سم . وحكمه حكم الطائر الذى يقال له سمندل ، فإنه يسقط فى النار فلا يحترق ريشه » . فهو يشبّهه بفأرة البيش فى أن لكل منهما أعجوبة خاصة ، لا أنهما اشتركا فى أعجوبة أكل البيش .

٩٢١ ـ (شعل) ٣٧٨ : ٩ـ١٠ وبيروت ٣٥٥ والمخطوطة : « والإطنابة أمه ، وهي امرأة من بني كنانة بن القيس بن جسْر ابن قضاعة » . وليس في قبائلهم «القيس ابن جسر » ، وإنما هم « القين » بالنون . وهو القين بن جسر بن شيع الله بن أسد ابن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحافى بن قضاعة . جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٥٤ والاشتقاق ، وحواشيه ٥٤٢ . وقالوا : إنما سمى النابغة الذبياني نابغة لقوله (الديوان ٢٥٦ـ واللسان نبغ) :

وحلت في بني القين بن جسْر
وقد نبغتْ لنا منهم شئون

٩٢٢ ـ (شمل) ٣٩٤ : ١٥ قول امرئ القيس :

كأني بفتخاء الجناحين لقوة
دفوفٍ من العقبان طأطأتُ شِمالى

صوابه « الجناحَيْن » كما في المخطوطة وبيروت ٣٧١ والديوان ٣٨ واللسان (فتخ) .

٩٢٣ ـ (طفل) ٤٢٨ : ١٩ وبيروت ٤٠٣ والمخطوطة أيضاً قول لبيد :

* وعلى الأرض غيابات الطَّفلْ *

والصواب « غيايات » بياءين كما في ديوان لبيد ١٨٩ واللسان (غيا ٣٨١) حيث ورد على الصواب . والغياية ، بياءين : ظل الشمس بالغداة والعشى .

٩٢٤ ـ (طول) ٤٤٠ : ١٨ وبيروت ٤١٤ : « ولم يحُلَّ منه بطائل لا يتكلم به إلَّا في الجحد » . والصواب « ولم يَحْلَ » مضارع حَلِي ، كما في اللسان (حلا ٢٠٩) وفيه : « قال ابن برى : وقولهم : لم يحْلَ بطائل ، أى لم يظفر ولم يستفد منها كبير فائدة ، لا يتكلم به إلا مع الجحد . وما حلِيتُ بطائل لا يستعمل إلا في النفى » .

٩٢٥ ـ (عصل) ٤٧٥ : ٢٥ وبيروت ٤٤٩ والمخطوطة كذلك : قال لبيد :

فرميتُ القومَ رِشقاً صائباً
ليْسَ بالعُصْل ولا بالمقْتعلْ

والصواب « ليس بالعُصْل » كما في ديوان لبيد ١٩٤ لأنه صفة للرِّشق ، وهو بالكسر : رمى السهام الكثيرة دفعة واحدة . قال أبو زبيد الطائي :

كلَّ يوم ترميه منها برشق
فمصيبٌ أو صافَ غير بعيدِ

٩٢٦ـ (عقل) ٤٨٩ : ٢١ وبيروت ٤٦٢ والمخطوطة ، قول يزيد بن الصعق :

أُساورُ بيض الـدارعين وأبتغى
عقال المئينَ فى الصباع وفى الدهر

وردت « الصياع » كذا مهملة النقط وبالعين فى آخرها . والصواب « فى الصباح » كما فى التهذيب ١ : ٢٤٠ ويراد بالصباح الغارة صبحا . ويـوم الصباح هو يوم الغارة ، كما فى اللسان (صبح) . وأنشد للأعشى فى ذلك :

به تُرعف الألفُ إذا أُرسلتْ
غَـداةَ الصباح إذا النقعُ ثارا

٩٢٧ـ (عهل) ٥٠٩ : ٢٤ وبيروت ٤٨١ والمخطوطة كذلك : « قال ابن الزُّبير الأسدى » . وهذا الشاعر هو « عبد الله بن الزَّبير » بفتح الزاى ، كما فى الخزانة ١ : ٣٤٤ بولاق و ٢ : ٢٦٤ من نشرتى، حيث ورد ضبطه ونسبه وترجمته . وهو من شعراء الدولة الأُموية .

عبد السلام هارون

عضو المجمع



فن الكتابة فى الأدب العربى

للدكتورة نعمات احمد فؤاد

حين يدور الحديث عن الإسلام تقول كتب الدين والتاريخ معاً :

إن الهجرة من مكة إلى المدينة هى نقطة التحول فى المرحلة الأولى . ولكنى أقول : إن نقطة التحول بادئ ذى بدء هى القراءة أى العلم فالآية الكريمة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) هى الخط المميز بين محمد الإنسان ومحمد الرسول وهى مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الإسلامية. وتأتى الآية الكريمة (ن . والقلم وما يسطرون) فتعززها .

غالية السطور قد تفوق الجواهر حين تصاغ منها الكتب المنزلة ، والوصايا المرسلة والحكم الخالدة .

غالية الكتابة حل وحد . فحين تعتلج فى صدر الإنسان مشكلة ، ينفضها على السطر ، وإذ يكتبها تتحدد هى ، ويتخفف هو .

وينتشر الإسلام فى الأرض وتصير له دولة وصولة وحضارة وفن فإذا بالخط العربى جدول من نهر الفن الإسلامى يموج مثله ويسيل حلاوة : إن من يتأمل الحروف الهجائية العربية يجدها عبارة عن ألف متحركة تميل وتتقوس وتستقيم .

فى الكتابة العربية تسمع موسيقى الشكل .

حقاً تأثر الخط العربى الكوفى بالصين دون أن يقلده . وبهذا تحولت العطايا الصينية إلى هدايا إسلامية .

وعظم الإسلام العلم والتسطير ونزل كتابه بياناً رائقاً وفائقاً . . . باهراً وفاخراً ، فانبثق الخط العربى من هذا النبع الروحانى فجوده أصحابه ، وقدموه إضافة حضارية إلى تراث الإنسان .

ولم يقتصر الخط العربى على حروف مرسومة عاطلة ، أو منقوطة ، بل غدا غاية ووسيلة حتى ليقول الإمام على (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا) . وقد فصل القلقشندى الحديث عن هندسة الحروف العربية فى الجزء الثانى من صبح الأعشى .

وصارت له أصول وقواعد ونسق وهيئة تتغير وتتطور ما بين تحرير وتحوير : وينبلج على الصفحة كالنية الحسنة ، أو يغمض كالرمز ، ويستخفى كالسر . . . وهو فى الحالين يغترف من نبع صاف يقف وراء المسلم كاتباً وراسماً ومصوراً ، آيات م قرآنه

إلهامات وإشراقات تضيء جوانب نفسه وتنعم إحساسه فيجود بالفن ويجيد .

ودخل الخط العربى فى الفن الإسلامى حتى صار أحد معالمه. وبلغ من أمره أن قال النقاد الفنيون فى مؤتمر الفن الإسلامى الذى عقد بلندن سنة ١٩٧٦ فى شبه إجماع : إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه متشابه، وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى .

الفن الإسلامى يشد بعضه إلى بعض رباط بلا شك ، فما الذى يربطه ؟

فى رأيى أن العنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الإسلامى فى أوطان عدة إنما هو الفكر الإسلامى ثم تجئ الكتابة العربية فتستوعبه .

وهنا أنتقل بالحديث من الشكل إلى الموضوع:

إن فن الكتابة هو فن الفكر والذوق معاً .

فن الفكر بما يضمنها الكاتب من معان ، وفن الذوق بما يخلع عليها الكاتب من حُلاه ورؤاه .

والتقاء المعنى بالأسلوب فى الكتابة لون من (العلاقات الفاضلة) .

وهنا تصبح الكتابة عطاء نفس ، وحكمة روح من يؤتها فقد أوتى خيراً كثيراً ، ولعل القلقشندى كان يعنى هذا حين قال : (إن الكتابة هى الصناعة التى لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها) .

إن كتاب صبح الأعشى جمع أطرافا من المعارف على طريقتهم فى التصنيف والتأليف فى عصره ولكنه قام أصلا من أجل التعريف بالكتابة والكتاب حتى استمد اسمه منها فهو (صبح الأعشى فى كتابة الإنشا) .

واعتزاز قومنا بالكتابة ، عز حضارى يجب أن تلتفت التربية إليه فى عصر يفاضل فى إصرار بين (العلمى) و (الأدبى) كأن المعرفة الإنسانية تتفاضل أو كأن علوم الوسائل تتعارض مع علوم الفن والتصوير والتعبير .

لقد كان من قومنا من يقول : (الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهى الفضل ، وعندها تقف الرغبة) .

على أن الكتابة فى رأيى بل ورأيهم أيضاً خير وأبقى من الخلافة حتى قالوا : كفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه . ومن ثم صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخدم أرباب كل صناعة ومصرفهم على أغراضه، يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلة له مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة ، وأنفته أن يقع اسم من أسمائها عليه . وأن كل ملك وسلطان يؤثر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط ، وفى ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبة وأعلاها درجة .

العتبى وحده هو الذى رأى ، وشايعه المأمون ، (الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فضيلة، وفى غيره نقيصة؛ لأن

الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكن الإنسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام ، واستنباط المعانى فيتوسل الكفار إلى أن يقولوا اقتدر بها على ما جاء به) .

يا أيها الأمى حسبك رتبة
فى العلم أن دانت بك العلماء

والمتأمل فى التاريخ الإسلامى يجد أن الخلفاء الراشدين كانوا كتاباً للرسول وأن مؤسس الدولة الأموية وغير واحد من خلفائه كانوا كتاباً .

ووجوه الدولة العباسية وفى مقدمتهم جعفر ابن يحيى بن خالد كانو كاتبين .

والأدب العربى المولع بالجدل والمفاضلات والترجيحات ، فيه صفحات فى ترجيح النثر على الشعر ، وبالطبع فى تفضيل الشعر على النثر . ومن طرائفه أوصاف للكاتب تجعل منه (جنتلماناً) فالمهذب بن مماتى فى كتابه (قوانين الدواوين) يرى أن (يكون الكاتب أديباً ، حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الرؤية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة مؤدب الخدام).

ويضيف محمد بن ابراهيم الشيبانى إلى هذه الصفات ، ملاحة الزى ، وعطر الرائحة ، ورفاهة المركب ، والوسامة والرشاقة. فى رأيه أن الكاتب (لا يكون فضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة فانهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة) . ؟ ؟

وهى رقة حس تحسب لهم .

ولكن أعذب وصف عندى للكتاب قول شاعرهم :

وشمول كأنما اعتصروها
من معانى شمائل الكتاب

كان (كاتب الرسائل) أخص الخاصة عند الملوك فهو موضع المشورة وهو مستودع السر . وأهم من هذا أنه (يؤامره فى مشكل رأيه حتى يتنقح ، ويراجعه فى مهم تدبيره حتى يتضح) .

وهذه الصفة الأخيرة حلم الصحافة فى الحرية ، وحلم الشعوب فى الديمقراطية.

وفى الدولة الفاطمية كان الكتاب (أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ، ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص ، وله حاجب من الأمراء الشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة) .

وحين أخذ حكام المسلمين ، بعد الخلفاء الراشدين ، سمت الملوك ومظاهر الممالك

والدول ، خلعوا على الكاتب ألقابا فهو عند الأمويين (الكاتب) كما يقول القفاص ، وهو بدرجة وزير عند العباسيين — كم من أدباء العصر الحديث يتحسرون الآن — وهو فى الدولة الفاطمية (كاتب الدست) كما يقول ابن الطوير ، وهو عند المماليك كاتب السر فإذا شاء العامة أن يستبدلوا الميم بالباء ، فهو كاتم السر »

وهو بين هذا وذاك صاحب الديوان بل صاحب القلم.

وهذا الوصف الكريم بالطبع لمن له فن الخلق فى الكتابة .

أما ماعدا هذا فدونه بكثير .

والكاتب الخالق فى رأيى أكبر أيضا من الصورة التى رسمها ابن قتيبة وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين . وقد يكون ابن الأثير أقرب إلى وصفه منهما .

ولكن أن يكون الكاتب موسوعيا ، فى رأيهم ، خير من أن يكون الكاتب دعيا كما حدث بعد تقدم الطباعة وتعدد الصحف :

ومما اشترطوا علم الكاتب به ، (مانطقت به العجم على وفق لغة العرب لعدم وجوده فى لغتهم (صبح الأعشى جـ ١ ص ١٥٨) . وهو اعتراف من الأسلاف بالتعريب وبما فى طبيعة اللغات الحية من الأخذ والعطاء

بل اشترطوا علم الكاتب بما تلحن فيه العامة وتغيره عن موضعه . وقد تكفل ابن قتيبة بلحن أهل المشرق فى (أدب الكاتب) كما تكفل ابن مكى التونسى بلحن أهل المغرب فى كتابه (تثقيف اللسان)

ومن فطنتهم أن استحبوا للكاتب معرفة اللغات الأجنبية .

وقد أوجبوا ضرورة المعرفة بعلوم المعانى والبيان والبديع ووجه احتياج الكاتب الى ذلك من سلوك سبل الفصاحة ، واقتفاء سنن البلاغة وطول ترديد النظر فى المنظوم والمنثور ، ورياضة القلم على الإنشاء للانطباع والصقل : إلخ ما ذكره أبو هلال العسكرى .

ومن الطريف أن الشيخ بهاء الدين السبكى رأى فى (شرح تلخيص المفتاح) أن أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرونها بالطبع ، (بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم . أكسبهم النيل تلك الحلاوة . وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ، فضلا عن الأغمار ، الأعمار ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار .

والسيف مالم يلف فيه صيقـــــل
من طبعه لم ينتفع بصقال

ومصر بالحس الحضارى لها فى الفنون أسلوب يمت إلى أصالتها فى الذوق ، ومنهج يمت إلى عراقتها فى المعرفة . وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى إن الفارابى عندما دخل مصر ومعه كتابه (المدينة الفاضلة) سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

وبمناسبة الحديث عن علوم المعانى والبيان والبديع ، يحق لنا القول أن مصر كانت لها مدرسة بلاغية أدبية تقابل مدرسة المشرق البلاغية الكلامية . ولمدرسة مصر ، فضلا عن المسامتة ، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم ، مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسهم الرازى والتفتازانى .

كانت مصر فى تصنيفها البلاغة تستبعد بروحها الفنية ، الفلسفة الكلامية ، استبعادا فيه بغض لها حتى ليسمى رجلنا السبكى هذا الاستبعاد ، تطهيرا

وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بنفرتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا .

كما تتميز بالموضوعية فى البحث ، والتعمق والمقارنة ، والربط ، والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ، والأناقة الحضارية ، واللباقة ، والرهافة ، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف والدقة وسعة الأفق ، والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عسر ولا تزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر .

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع . فقد وصل المشارقة وعلى رأسهم السكاكى إلى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت مصر على يد ابن أبى الإصبع إلى بضع وعشرين فوق المائة منها عشرون من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع ما فى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء ، وإلا فلماذا لم يلتفت غيرها إلى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس ؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت إليه مصر بالذوق الحضارى :

النزاهة : نزاهة الهجاء عن الفحش.

والتدبيج : وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان .

والتصرف : وهو اللعب بالكلام فى براعة وغضارة وغندرة

والتهكم والتندر : ومصر بخفة الظل لا تجارى فيه .

وطبيعى أن تهتدى مصر إلى هذه الألوان بوحى من طبيعتها ، وبمدد من ماضيها ، ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين أذاعت فى

الأدب العربى شعره ونثره فن التورية .

ولاأحسب غير مصر قادرا على التورية بكل هذا الظرف والرقة اللذين أشاعهما ابن نباتة فى بيتيه وقد أهدى إليه صديق تمرا رديئا :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته
بيد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسوم فودنا
باق ونحن على (النوى) أحباب

ولاأريد أن أسترسل فى الحديث عن دور مصر فى البلاغة حتى لايشغلنا عن الموضوع الأصلى.

وفن الكتابة لمن وهبها تعين عليه العربية فهى كما قلت غنية بشاعريتها وبألفاظها وموسيقيتها وحساسيتها المفرطة فى التفريق بين الحروف حين تجر ، ومدها الصوت بالألف والواو والياء حين تلين ، وتوليفها الهاء والسين حين تهمس ..العربية القادرة على اللعب بحروف قليلة تقدم فيها وتؤخر فيختلف المعنى اختلافا واسعا وبارعا فمن الفاء والياء ومعهما الحاء مرة والراء مرة والزاى مرة والشين مرة، نستطيع اللغة العربية أن تعطى هذه الأصوات والمعانى :

حفيف الشجر
وزفيف الريح
ورفيف الورد
وشفيف النفس
ورهيف المشاعر فى كل صورة من هؤلاء.

ولكن هل الكتابة بالعربية تعد لها ، المدرسة أو تعين عليها الكتب . أو يستقبلها القراء ، أو تحتفى بها الحياة .

هل العربية تتغلغل فى شعور أهلها وتعيش معهم أفراحهم ومسراتهم تعبر عنهم وتغدو جزءا لاينفصل من أيامهم .. يحبونها حبهم لأنفسهم لأنها بضعة من النفس ؟

محرومة اللغة العربية من هذا الحنان والولاء . وفى هذا الجو لايجيدها متعلم ولاهو يرغب فى إجادتها ... ويجد المنتصر لها عزوفا وعنتا يملؤه حسرة وحرجا فيغدو بتمسكه بها كالقابض على الجمر ، ثم لا يطول احتماله للتضحية فيتخفف من وعده الشخصى لها غير المكتوب وغير المطلوب ، إذ بذله من تلقاء نفسه حسبة واحتسابا .. والحب لايعيش على الاحسان أو الامتنان بل ينمو على الحنان الواصل ، والشوق المتجدد والاقتناع الواثق والوثيق .

نتحدث عن فن الكتابة فى الأدب العربى واللغة العربية اليوم تعيش فى مجتمعها فى غربة نفسية ، تلقى الزهد من القريب ، والإعراض من الحبيب ، والمنافسة من الغريب ، والمناوأة من الدخيل ، والمحاربة من العدو .. كان لها الله .

لقد قلت وكتبت أكثر من مرة أن العربية الفصحى لكى تصير لغة كتابة لابد أن تعمل لهذا ، بمواجهة مشكلتها مواجهة أمينة وشجاعة ، فإن العلاج إن لم يكن

جذريا فقد الجرح على نغل ، ولم على فساد ، ونم على تفريط وتوريط الطبيب .

لابد من علاج جذرى يسهل اللغة ويبسط ، ويحبب ويؤلف القلوب قبل الكتب لتجد اللغة العربية من يقبل عليها ، ويقرؤها ويتحدثها ، ويتذوقها ، ويفخر بها .

لن يجدى شيئا على العربية الخطب المنبرية وإلصاقها بالدين للتخويف والارهاب فإذا بالبعد يزيد بعدا وإبعادا واستبعادا لأن الحب لايصدر به أمر من السلطان، وحاشا أن يصدر به أمرا ، القرآن .

ما الحل لكى تصبح العربيه لغة كتابة؟

للعربية الفصحى ثلاث أزمات :

ــ أزمتها الذاتية من جراء نحوها وصرفها فى المقدمة .

ــ أزمتها الداخلية مع العامية (العايشة) المتجددة المتبغددة التى تسيل عذوبة من طول ماأترعها النيل ودللها أهلها. ومن التدليل، الذكر المتصل ، والتحدث الدائم ، والتنعيم والتنغيم .

ــ أزمتها الخارجية مع اللغات الأخرى وأصحابها .

أصحابها من أهلها ، وأهلنا .

أزمتها الذاتية يكفى فيها على سبيل المثال (الفعل فى النحو العربى) .

الفعل فى اللغة العربية أفعال عادية وأفعال القلوب وهذه تنقسم الى أفعال اليقين ، وأفعال الرجحان .

وهناك أفعال التصيير والتحويل .

وهناك أفعال مستثناة من كل هذا أى جامدة لاتتصرف ، فالفعل تعلم من أفعال اليقين (ملازم لصيغة الأمر) .

والفعل هب من أفعال الرجحان(ملازم لصيغة الأمر) أيضا.

والفعل وهب من أفعال التصيير (ملازم لصيغة الماضى) .

وفى اللغة العربية ، الأفعال النواسخ وهى ثلاثة عشر فعلا : كان وأخواتها مثل: أمسى أصبح ــ صار .... الخ .

و (صار) ، هذا وردت أفعال أخرى بمعناه عددها عشرة أفعال : (أمن ــ رجع ــ عاد ــ استحال ــ قعد ــ حار ــ ارتد تحول غدا ــ راح ..) .

هذه الأفعال تصير ناسخة إذا ورد استعمالها بمعنى الفعل ــ (صار). وهناك حالة استثنائية لأخت من أخوات (كان) أو أخ وهو الفعل (عسى) فهذا الفعل لديه القدرة على الحركة أو تزييف نسبه بالدخول فى أسرة أخرى أى؛ أنه يمكنه أن يكون من أخوات (إن) بدلا من أخوات كان . كيف كان ذلك ؟

بسيطة .. إذا اتصلت به ياء المتكلم أو كاف الخطاب أو هاء الغائب ، فى فى هذه الساعة ، ينصب الفعل (عسى) الاسم الأول ويرفع الثانى !

أى نصب ؟

وهناك أفعال ناسخة ناقصة تماثل كان وأخواتها . وناقصة يقصد بها النحويون أنها لاتكتفى بالاسم المرفوع بعدها. ويختص خبرها بطريقة متفردة يأتى عليها وهى أن يكون جملة فعلية ، فعلها مضارع ،رافعا لضمير الاسم السابق، مقترنا بأن أو مجردا منها.

وهناك طبعا أفعال المقاربة ! وأفعال الرجاء،وأفعال الشروع -وأسماء الافعال - ، والأفعال الماضية التى تجيء على صورة الأمر فى أسلوب (التعجب) .

والفعل فى النحو العربى له تقسيمات أو متاهات أخرى :

فهو أولا صحيح ومعتل :

والصحيح ينقسم بدوره إلى :

سالم — مهموز — مضعف .

والمعتل كذلك :

مثال — أجوف — ناقص .

الفعل المعتل حين يسند ، يعمل ، فالنحويون يحتمون أن تحذف واوه من الأمر والمضارع المكسور العين ، وأن تبقى واوه مع الأمر والمضارع المفتوح العين والمضموم العين :

أما الأجوف منه فيحذف حرف العلة مع ضمائر الرفع المتحركة. ويبقى حرف حرف العلة مع ضمائر الرفع الساكنة.

تأتى للناقص : يحذف حرف العلة مع واو الجماعة وياء المخاطبة ويبقى حرف العلة مع ألف الاثنين ونون النسوة .

وليست الأفعال وحدها التى تتمتع فى اللغة العربية بهذه المتاهات . إن الميم والألف أى (ما) لايخطر فى بال جن أن (ما) فى اللغة العربية لها هذه التخريجات والتفنينات فهى : اسم موصول ، واسم استفهام، واسم شرط ، ونكرة موصوفة و (ما) للتعجب . و(ما) للنفى .

و(ما) هذه تكون : كافة ، وتكون زائدة ، وتكون مصدرية ظرفية وتكون مصدرية غير ظرفية ، وتكون مهيئة أى تدخل على كلمة غير شرطية فتجعلها شرطية ..

و (ما) تكون مغيرة أى العكس فتدخل على أداة شرطية فتجعلها غير شرطية ..

و (ما) تقع صفة للتحقير ، أوالتفخيم ، أوالنوعية.

أما حين تصحب الميم الكاف فتلك «فزورة» أخرى . فى اللغة العربية (كم) تكون مرة عددية ومرة استفهامية ومرة خبرية : وتعرب مرة مبتدأ مبنية على السكون فى محل رفع . ومرة خبرا إن كانت استفهامية .. وتمييز هامرة ظرف زمان منصوب : ومرة (فى الخبرية) مفرد أو جمع مجرور .

حتى الحرف المفرد لديه القدرة على اللعب بناء فالنون مرة تكون نون النسوة ، ومرة تكون للتوكيد. ونون التوكيد بدورها مرة تكون ثقيلة

ومرة تكون خفيفة .. ربما بعد أن خفت عقول كثيرين بسببها . والله أعلم .

وهذا جزء بسيط من مادة (الفعل) في النحو العربي ..

أما أزمتها الداخلية مع العامية التي استأثرت دونها بالبيت : والحديقة والمصنع والمتجر والسوق والمسرح والسينما فظلت تثرى بالمفردات الجديدة والعبارات الطبيعية والاصطلاحات الطريفة واللمحات الذكية والابتسامات والضحكات .. فهى شباب على طول .

حتى حين تتكلم العامية بالعربية فهى تفعل هذا باختيار حين تختار من ألفاظها مايعجبها فيكون الإعجاب علامة فى الوقت نفسه على الإعراض عن المتروك والمهمل بل تفصح العامية عن هذا الرأى حين تمسخ الفصيح (بالحلمنتيشى) وتقحم القافات فى خبث، والظاءات فى نهرها الجارى فى كاريكاتيرية، مداعبة أو ملاعبة .

وكأن مصر حين عرّب عبد الملك الدواوين سنة ٨٧ هـ تبتسم وتقول «بناقص الدواوين» ،واصطنعت لنفسها لغة تمنحها مع القلب، المنزل والمجلس، والسوق والنهار والليل. ومضى الشعب يسجل عواطفه وتجاربه وأيامه بلغته العامية .. بلغته الشعبية. وتجمعت له فى الأربعة عشر قرنا ثروة تنضم إلى ثرواته السابقة فى فن القول .. والفصحى تنظر وتتململ فى قيودها التى أثقلوها بها وهم يحسبونها حلى لها ويحسبونها عليها، ميزة وامتيازا فإذا بها أغلال تعوقها عن مسايرة الزمن فلا تروق ولاتشوق فى العصر التركى ، ولاتسعف ولاتطرف فى عصر التكنولوجيا. فلم يك بد من نفض ماعليها ، وماعلاها ، لتنطلق فى التعبير ، وتستوعب الجديد، وتجد فى الترجمة ، وتقلد بادئ الأمر ثم تبتكر وتسهم فى حضارة العصر بالتعبير والتسجيل والتحصيل أيضا فبعض الكليات العلمية تتخذها وسيلة للتعليم إلى جانب لغات العلم الحاضرة .

وحين حصرت العامية الفصحى فى الرسميات، وحاصرتها فلم تتغلغل فى حياة كل يوم ، حرمتها النماء والتفتح والازدهار والطواعيــة والتفــاعل والتجارب . حرمتها أن تكون سجلا ورباطا ومستودعا للحياة المصرية خلال بضعة عشر قرنا . وكأنها أيام ضائعة منها وضائعة عليها ؟

تعيش العامية على سجيتها فى الأخذ والعطاء من اللغات الأخرى وتعين الناس على الحياة بما تسعفهم به من مسمياتها ، وعلى وجه السرعة ، (عايشة) .

إن اللغة كائن حى ، يموت إذا توقف عن النمو والحركة وتنفس الهــواء الخارجى وتمثل الغذاء الخارجى ، فإن لم يمت عاش سقيما هزيلا لايقوى على منازلة الخصوم ، أو رد الهجوم، أو تسيد موقف.

وشبيه بهذه الحال العربية حين ترهق بالقيود وتصاب بالجمود ، وتتوقف عن

النماء بعزلتها عن لغات الحياة . ناسين أن كتابها الأكبر وفخرها الأعظم استعمل كلمات مثل (إستبرق) وهى لفظة فارسية ! !

وبعد : فأين الحل؟

تراجع العربية فى عملية تنقية – وتحلية فى محاولة تجديد شبابها باستبعاد البالى من صيغها وجلاميد الصخر المعهودة .. ثم اصطفاء الرائق الجميل من صورها وعباراتها وما أكثره .

نحاول التقريب بينها وبين العامية فليست العامية لغة أخرى أو أجنبية ، إنها العربية المصرية ..

فما خف وشف ، مع الصحه اللغوية فى اللغتين نأخذه ، ونشيعه فى الكتابة والحديث حتى تسهل مهمة المدرسة ومهمة الفصحى فلا ينظر إليها النشىء على أنها علم مدرسى للامتحان ولكن على أنها لغة حياتهم فى البيت والمدرسة على السواء .

تسهيل اللغة بقصر النحو على ما يصح به التعبير دون الدخول بالطلاب فى متاهات القواعد واستثناءاتها ، وتسهيل اللغة بقصر المتن على السائغ الشائع .. وتخفيفها من المترادفات وتعدد الأسماء للسيف والأسد وغيرهما . فهذا البحر من الكلام لا يخدم غير أصحاب البحور وحروف الروى .

عدم فصل النحو بل تعليمه مع النص الجميل كجزء منه يضبط إيقاعه فى محاولة إساغة الإعراب . فإذا أخطأ الطالب بعد هذا فلا نكبر من خطئه الإعرابى أو نعلن صعوبة النحو ، بل نحاول الإتيان بشبيه من اللغات الأخرى التى تدرس له فى محاولة إقناع بأن اللغات كلها لها نحوها الذى يضبط الكتابة والنطق .. ونضيف إلى هـذا فى عملية تحبيب أن كل جهد مبذول طبيعة تعلم الجديد وثمن الوصول إلى مرتبة الخاصة الذين يعرفون الصواب إذا تكلموا أو كتبوا .

الترفق فى تعليم الإعراب والاقتصار بادئ الأمر على الحركات الأساسية والأصلية مع التبسيط وتنحية التفريعات والتخريجات والاستثناءات حتى لا تشوش الطلاب وحتى لا نثقلهم ونثقل عليهم .

تعميم الضبط حتى يتعود القارئ القراءة الصحيحة بطول المران وطول المدة .

غربلة التراث مع إحاطة مبصرة بالظروف الاجتماعية والسياسية والعلمية التى أحاطت بأصحابه وأثرت فيهم وبالتالى شكلت ، من خلالهم هذا التراث .

غربلة التراث مع تقدير واع لفروق الذوق النفسى والاجتماعى بين الأمس واليوم فروق العادة والخلقيات والخلفيات المؤثرة ، فليس بلازم أولازب أن نؤمن على كل رأى . وليس بلازم أولازب أيضا أن نعارض لافتعال المعاصرة أو ادعاء التجديد فهناك أشياء كثيرة يلتقى عندها الإنسان فى كل زمان ومكان .. وأشياء كثيرة تتأثر باختلاف الأوضاع والملابسات .

لكى تنطلق الفصحى أو ينطلق محبوها والصادقون فى إصلاحها يجب أن نفصل بين أن القرآن الكريم نزل بها فهى فى قدسه مقدسة لاتمس ، وبين أن الذين يتكلمون بها بعد القرآن من بلاد مختلفة ومشارب مختلفة ومستويات حضارية مختلفة. واللغة على ألسنتهم تتبع هـــذا كله فهى هنا، بعيدا عن القرآن، وسيلة حياة كسائر الوسائل لاأكثر ، تخضع للتحوير والتغيير والتطوير ، وتخضع هذا بدوره للصواب والخطأ. ؟ وهذا طبيعى فلا داعى لأن يتصايح قوم ويثور ويفور آخرون حفاظا على القرآن .. إن الله نزّل الذكر وإنه له لحافظ . فليهدأ الأصدقاء والأعداء على السواء..

القرآن بعيد بعيد .. ولكن اللغة - لغة الناس لالغة القرآن يجب أن تطوع نفسها للناس أو يطوعها الناس لمقتضيات حياتهم فى غير حرج أو خوف .. إذا أريد لها الإصلاح والتطور ثم النمو والازدهار .

فى كل عصر يحس القائمون على اللغة والقائمون بتعليمها حاجة أبناء جيلهم إلى بعث جديد فى اللغة. أحس هذه الحاجة المرصفى بل أحسها الشيخ حمزة فتح الله وهو الذى يتحدث الفصحى مع رجل الشارع ..أحس هذه الحاجة حفنى ناصف ، وأحسها لطفى السيد كما أحسها فى الأربعينيات الخولى ثم أحسها محمود تيمور ويحيى حقى . كل من زاوية وكل من منطاق خاص ، ولكنهم على اختلاف (وسائلهم) ومصادرهم يلتقون فى القلق وإحساس الصعوبة المؤرقة.

وقد أضاف الأستاذ حمد حسن الزيات إلى أسباب التنكر للبلاغة العربية : السرعة، والصحافة ، والتطفل . وأنا أشير هنا إلى كتابه القيم (دفاع عن البلاغة) الذى عالج فن الكتابة من جميع وجوهه وزواياه بالتفصيل والتحليل والتدليل من واقع التاريخ الأدبى والواقع القولى والعلمى. تحدث بعامه عن الإمتاع والإقناع ، واللغة والطبيعة، والنفس والذوق، وتحدث بخاصة عن الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة اجل بكثير من الجمل البيانية أو المحسنات البديعية .

وهنا عرض لتاريخ الأسلوب والصفات القومية أو العامة التى تشكل أسلوب أدب بعينه فى جملته، وتميزه عن أدب آخر حتى لايخفى الفرق أو الفروق العامة بين اللغات الشرقية واللغات الغربية .

ومن رأى الأستاذ الزيات أن صفات الأمة كما تؤثر فى طبيعة اللغة، تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب . فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ ، وأناقة العبارة ، ومن شاعريتهم جمال الصور وروعة الأخيلة، تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر) ص ٥٨ . وسلك

فى هذا النوع اللغة العربية. وهى فى رأيى كما قلت فى مقدمتى لهذا الكتاب الجليل الذى أشرف بكتابتها له، ميزة وآفة معا، فالأدب العربى فى جزء كبير منه حافل بالأصوات والأجراس ولكن المحصل الذهنى منه قليل لقد تتالت عصور وقرون لاهم لها إلا تنضيد اللفظ ، وترصيع العبارة ، بل إتخامها بضروب من المقابلات والتوريات والبديعيات المختلفة حتى غدا الأدب صناعة ثم تردى أكثر فانقلب شعوذه حتى قرّ فى النفوس كما يقول الأستاذ الزيات أن الأسلوب إنما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام، وما دروا أن الأسلوب جهد موصول لإشاعة الحياة فى اللفظ ببث المعنى وتجسيمه . إنه عبارة عن (النظام والحركة المودعين فى الأفكار) .

وفن الكتابة فى عصرنا أو فن البلاغة لا يتحقق فى رأيه إلا من خلال صفات ثلاث جامعة هى :

(الأصالة والوجازة والتلاؤم) :

الأصالة سمة الشخصية .

والإيجاز طبع وطبيعة العربية .

والتلاؤم فن الصياغـــة .

وصعوبة فن الصياغة تأتى من ضرورة مطابقة الأسلوب لحركات النفس، وصور الذهن، وسير العاطفة ودرجتها فيه من الإبطاء أو الإسراع. وهذه الحالات التى تصاحب الخلق الفنى تحدد طريق الكاتب فيخرج الأسلوب موجزاً أو مرسلا أو مستديراً أمها أوله لآخره ، وبين هذا وذاك يأخذ المعنى دورتـــه .

هذه لمحة من دورة فن الكتابة فى الأدب العربى من القديم إلى الحديث، هى على تشعب الآراء طواف، وليست نهاية مطاف. فعند يأتى اليوم الذى تصبح فيه العربية ، لحلينا لغة كتابة ، أو للأجيال القادمة، سيكسب الاستعمال الدائم والحميم ألواناً من فنون العرض والأداء ، والتشويق والنفاذ . نتصير كتابتها فناً ، ويغدو فنها علماً له أصول جديدة وقواعد يثرى بها حديث الكاتبين .

نعمات أحمد فؤاد

المُعرَّب في العصر الحديث

للدكتور نيقولا دوبريشان

إن قضية قبول أو عدم قبول الألفاظ المعربة تعد من القضايا التي اهتمت بها الدوائر اللغوية في العصر الحديث اهتماماً كبيراً، ويبدو أن الخوف من تكاثر الألفاظ الأجنبية التي لم تُحدَّد أصول وقواعد لاستخدامها بأي نوع من الأنواع مثَّل سبباً من الأسباب الأساسية لتأسيس المجامع اللغوية العربية.

إن عملية التعريب هي استعارة المفرد لأجنبي، وهي المرحلة الأولى في تكييف اللفظ لأصول الكلمات العربية، ولكنه لا يمثل الاندماج الكامل في نظام اللغة العربية. والحق أن النحويين القدامى لم يضعوا تعريفاً واضحاً تمام الوضوح لهذا المصطلح، وأما التعريف الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة فيحتوي على لبس[1]، وكذلك القرار الخاص بالتعريب الذي وافق عليه المجمع في إحدى جلساته الأولى[2]. ثم طال الكلام عن هذا اللبس في السنوات التي تلت اتخاذ القرار الخاص بالتعريب. ونلاحظ من نص هذا القرار أن المجمع قد وضع من البداية عدداً من الحدود، لكنها كانت فيما بعد سبباً لمناقشات عديدة، وذلك لعدم وضوحها.

وعمل المجمع انطلاقاً من القرار الذي تمت الموافقة عليه، ولكن المحاولات المتطرفة الرامية إلى تبديل الكلمات الأجنبية التي دخلت في اللغة فيما مضى، وتكييفت بكلمات مأخوذة من اللغة العربية، لإغناء تراثها من المفردات عن طريق الاشتقاق، وإحياء الكلمات القديمة، ولكن هذه المحاولات قد باءت بالفشل.[3]

(١) راجع حسين والي، المعرب، محاضر جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة، ١٩٣٦، ص ٣١٠

(٢) راجع مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الثاني، ١٩٣٥، ص ٦، ومحاضر جلسات المجمع، ١٩٣٦، ص ٣٠٩

(٣) ونذكر هنا أنه قبل سنوات كثيرة بذلت جهود لإقامة مؤسسات لغوية كان هدفها الأساسي تنقية اللغة العربية من الألفاظ الأجنبية، ففي ١٨٩٢ أقام توفيق البكري أول مؤسسة من هذا النوع (راجع عبد القادر المغربي مجامعنا اللغوية وأوضاعها في مجلة مجمع اللغة العربية، ١٩٥٢، ص ١٢٤). وكثير من المفردات التي اقترحها لتبديل الألفاظ الأجنبية لم تستعمل وزالت، ومنها الـ « مدره » الذي كان مقترحا لتبديل الـ « أفوكاتو » وبدلها فيما بعد « المحامي » وفي حالات أخرى بقي المفرد المقترح إلى جانب مفردات أخرى تخصصت فيما بعد لنفس المعنى ومنها « النبرة » المقترحة لتبديل « النوميرو » والذي بقي إلى أيامنا إلى جانب العدد والرقم. وجرت عملية متشابهة بالنسبة إلى جهود مؤسسة لغوية أخرى أقامها في ١٩١٧ لعلي السيد وسليم البشرى.

إن الدعوة إلى بعث الألفاظ العربية القديمة لإطلاقها على المستحدثات العلمية العصرية، وخاصة فى علوم مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والعلوم التكنيكية قد باءت بالفشل كذلك .

لقد كان عبد القادر المغربي العلامة اللغوى المشهور ينبه في عام ١٩٣٨ إلى أن عبارة « عند الضرورة » من نص قرار المجمع هي نسبية جداً ، وفى نفس الوقت قابلة لأكثر من معنى ؛ وذلك لعدم دقتها . إنه كان يعنى بصورة خاصة عدداً من المفردات من اللغة الجارية ، التى لم يكن باستطاعة اللغة الاستغناء عنها ، برغم أن هناك كلمات مقابلة أخرى وضعت فى اللغة العربية الفصيحى . لكن هذه الأخيرة إما أنها فشلت فى فرض نفسها ، وإما أنها تعايشت مع الكلمات المستعارة . إنه يذكر مثلا الأزواج التالية : « بريد وبوسطة » : « حوذى وعربجى » ، « ردهة وصالون » : « مضخة وطلمبة » ، « فندق وأوتيل » وغيرها، كما يذكر عددا من الكلمات التى لم يجد أى مبرر لاستبدالها بكلمات عربية مقابلة ، مثل : « سينما » و « جرنال » و « غاز » و « بنك » و « فلم » و « كادر » إلخ ... (١) إن اقتراحه الخاص بقبوله قد رفض برغم أن هناك عدداً من هذه الكلمات لا تزال تستعمل حتى فى أيامنا ، وهى الوحيدة لهذه المعانى .

وهناك من اعتبر أن التحديد الذى تعنيه به عبارة « عند الضرورة » من نص قرار مجمع اللغة العربية . وهو القرار الوحيد الذى لا يزال يسرى مفعوله حتى الآن برغم الإضافات التى جاءت فى السنوات التالية على النص الأصلى — هذا التحديد يتناول لهذه المستحدثات العصرية المصطلحات العلمية والتكنيكية فقط . ولا يعنى بمفردات لغة الأدب أو الكلمات الدارجة .

إن الاقتراح الخاص بالالتجاء إلى اللفظ الأجنبى حين لا توجد ألفاظ أو مصطلحات عربية لهذه المستحدثات العصرية المتلاحقة — إن هذا الاقتراح يبدو معقولا ومبرراً ؛ لكن الصعوبة التى تظهر هى أنه فى حالة الالتجاء إلى كلمات أجنبية — وهذا بالنسبة لجميع اللغات — لا تتم استشارة الهيئات اللغوية ، ولا يتم الحصول على موافقتها ؛ بل هى موضوعة أمام الأمر الواقع ، وتصبح مجبرة على تسجيل هذه الأمور .

وإذا تم التعبير عن آراء متناقضة بشأن قبول اللفظ المستعار (٢) فى فترة أقدم ،

---

(١) عبد القادر المغربي ، حول قرار التعريب ، فى مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الخامس ، ١٩٣٨ ، ص ٩٤ — ٩٩

(٢) Vincent Monteil, L'Arabe Moderne, Paris 1960 pp: 155-156

فيبدو أن الباحثين العرب وافقوا على قبوله فى فترة أقرب منا زمنياً ، واعترفوا بنفعه بالنسبة إلى اللغة . ولكن المواقف تختلف حين تطرح قضية اعتباره سماعياً أو قياسياً[1].

وقد اعتبر عبدالقادر المغربى فى بداية قرننا هذا أن التعريب طريقة من طرق إغناء مفردات اللغة العربية ، وقدر أنه لا يمثل فى أى حال من الأحوال خطراً بالنسبة إلى نماوة اللغة العربية، فهو يرى أن التغييرات التى تطرأ على اللغة من مرحلة إلى أخرى أمر طبيعى ، ولكن الشىء المهم هو ألا تسبب ضراراً للأسلوب [2] .

كما أكد نفس الفكرة عباس حسن الذى اعتبر أن اللفظ المعرب يمثل خطراً فقط فى حالة استخدامه حين لا تحتاج اللغة إليه [3].

ومن الباحثين من يرى فى قبول اللفظ المعرب طريقاً لتسهيل الأمر أمام المختصين ، لتفهم مختلف الأبحاث والدراسات ، حيث أن العديد من المصطلحات لها تداول دولى . [4] وفى هذا قال عباس حسن : « وفى التعريب فائدة قد تكون أجل فوائده ، هى إشاعة المصطلحات العلمية والفنية بين الناطقين بالعربية ، وهى مصطلحات عامة عالمية ، تكاد تكون مشتركة بين العلماء والباحثين والمختصين فى مختلف البلدان المتحضرة ، فمعرفة نصوصها تمكن الباحثين من معرفة مسمياتها الحقيقية معرفة دقيقة ، لا لبس فيها ولا إبهام ، فيتابعون ما يدونه الفنيون عنها ، وما يطرأ عليها فى البلدان الأجنبية » [5] . وهناك أسباب أخرى تجعل اللفظ المعرب مقبولا ، وفى ذلك يقول أيضاً عباس حسن: «أما إضاعة الوقت وبذل الجهود المضنية فى البحث عن كلمات عربية للكلمات الأجنبية أو لأكثرها فتلك طريقة مضنية ، بطيئة ، قاضية على اللغة » [6] ثم يشير الباحث إلى أن علماء الدين فى عصرنا الحاضر يخالفون بعض الأحكام القديمة التى ارتضاها الأئمة السابقون ويستبدلون بها أخرى تلائم الحياة الحديثة ، ويوفقون بها بين أحكام الدين ومطالب الحياة ، إذ ليس الدين الإعنات ، وتكليف الناس مالا يطيقون ، وأخيراً يتساءل : « وإذا كان هذا هو الشأن فى مسائلنا الدينية المقدسة أفلا نتبعه فى مسائلنا اللغوية ؟ » [7] إن المحاولات الهادفة إلى

(١) صحيح أن مضمون هذين المصطلحين لم يبق جامدا ، بل تطور على مر السنين ، ولا حظنا أن كثيرا مما كان يعتبر سماعيا انتقل فى العصر الحديث إلى القياسى . راجع كذلك : أحمد أمين ، مدرسة القياس فى اللغة ، فى مجلة المجمع العلمى العراق ، الجزء العاشر ، ١٩٥٠ ص ٩٥ – ١٠٤ .

(٢) عبد القادر المغربى ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ١٤٣ .

(٣) عباس حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٤ .

(٤) مصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، العدد الثانى ، ١٩٥٢ ، ص الثانى ، ١٩٥٢ ، ص ٢١٠

(٥) عباس حسن ، الكتاب المذكور ، ص ٢٣٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٣٠

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٣١

بعث الألفاظ القديمة ، بأى ثمن ، من أجل استخدامها للتعبير عن وقائع العصر الحديث نعتبر أخطاء أو أخطاراً ؛ لأنه من الصعب التصور أن هذه الكلمات الخاصة بماض بدائى جداً تتناسب مع الواقع العلمى والصناعى لعصرنا الحديث [1] .

ومن ناحية أخرى يؤدى اللجوء للألفاظ العربية إلى نشوء المترادفات التى تسبب هى بدورها لبساً وإبهاماً [2] . ومن الواضح أن تعدد الدلالات ضار بالمصطلحات العلمية الحديثة ، وقد لفت المستشرق « جب » النظر إلى ذلك ، وأكد ضرورة اللجوء إلى التعريب أو الاشتقاق ، بدلا من تضييق المعانى للألفـــاظ [3] .

وفى حالة ظهور الألفاظ المعربة بجانب الألفاظ المشتقة من الطبيعى أن يكون اللفظ العربى مفضلا على مثيله المعرب .

والذلك ، عند اشتقاق ألفاظ عربيـــة لمعان معينة يُفَضَّل استخدامها بدلا من الألفاظ المعربة التى تصبح بذلك غير ضروريـــة وغير نافعة [4] .

وهناك أمثلة كثيرة تؤيد هذا الرأى .

ومن المعلوم أن هناك إمكانية التعايش بين اللفظ الأجنبى الدخيل فى لغة واللفظ الصادر عن وسائل اللغة الخاصة ، كما يمكن كذلك ظهور اللفظ الناتج عن هذه الوسائل اللغوية بعد الالتجاء إلى اللفظ المعرب .

وفى بعض الأحيان يهدف اللفظ المشتق من أول الأمر إلى تبديل اللفظ المعرب . وهذا هو ماحدث على سبيل المثال فى حالتى الكلمة « قطار » والكلمة « سيارة » . ولما وصلت إلى العراق الآلة المسماه حالياً بـ « القطار » كانت اللغة الفرنسية أكثر اللغات انتشاراً فى الشرق الأوسط ، ونتيجة لذلك سميت هذه الآلة باللفظ « شمين دفير » (من العبارة الفرنسية Chemin de fer)

ثم جاء الإنجليز وسميت هذه الآلة باللفظ الإنجليزى « ريل واى » من الكلمة الإنجليزية Railway وباختصار « ريل » فقط . وفيما بعد سميت بالكلمة العربية الكلاسيكية « قطار » التى معناها فى اللغة القديمة « إبل يلى بعضها بعضا على نسق واحد » . وقد استبعد أى احتمال للبس من البداية حيث أن الكلمة « قطار » كانت لا تستخدم فى اللغة الحديثة لمعنى آخر . وجرى تطور

---

(١) ، (٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٧

(٣) محاضر انعقاد الدور الأول لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٤٢٢

(٤) مصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، العدد الثانى ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠٧ .

يشابه تطور هذه الكلمة فى حالة الكلمة « سيارة »[1] .

وقد ظهر فى كل هذه الحالات لفظ معرب إلى جانب اللفظ الناتج عن الوسائل الداخلية للغة العربية . وجرت نفس الظاهرة فى حالة كلمات أخرى مثل : « بنك — مصرف » و « بوليس — شرطة » و « ديالكتيك — جدلية » إلخ . . . وفى بعض الأحيان نتج عن ذلك لبس وإبهام ، وهذا ماحدث على سبيل المثال مع كلمة « استعمار » المستخدمة لمعنى كلمة « إمبريالية » والتى استخدمت لاحقاً لمعنى كلمة « كولونيالية » ، ومن أجل تجنب هذا اللبس التجأت اللغة المعاصرة إلى مختلف الطرق، ولكن الميل السائد هو استخدام الكلمة « استعمار » لمعنى « الكولونيالية » ، وقبول اللفظ المعرب « إمبريالية » ؛ وهناك الكثير من الأمثلة المنتقاة من الصحف والكتب السياسية العربية تدل على هذا الميل :

« المعركة ضد الإمبريالية » و « معسكر الإمبريالية» و « الإمبريالية العصرية» الخ .

ويبدو أنه فى الآونة الأخيرة تنتشر الكلمة المعربة « كولونيالية » كذلك، حيث نجدها فى عبارات من النوع التالى : « الحكم الكولونيالى » و « الإمبريالية ونظامها الكولونيالى » إلخ ... ولكن الأمر الأكثر غرابة هو أن اللفظ المعرب يستعمل حتى لمعنى الكلمة الفرنسية (Neocolonialism) على الرغم من أن العبارة العربية « الاستعمار الجديد » لا يسبب أي لبس ، أي بالإضافة إلى « الاستعمار الجديد » نلقى « الحكم الكولونيالى الجديد » أو « الحـــــكم النيوكولونيالى » ؟

ومما تجدر الإشارة إليه أن نفس الازدواجية نلقاها فى حالة الكلمة لا« فنّىّ » المستخدمة لمعنى الكلمة الفرنسية Technique ولمعنى الكلمة الفرنسية « Artistique » ، مع ملاحظة الميل إلى استعمال اللفظ المعرب « تكنيكى » لثانى معنى مذكور .

إن تسجيل اللفظ المعرب إلى جانب الكلمة العربية له دور تفسيرى أحيانا وهذا ، القول يناسب العبارات التالية : « يحرم المجتمع القبلى من الديناميكية أو القوة الدافعة» و « يتميز بالديناميكية أو سرعة الحركة»؛ إن القيمة التفسيرية للعبارة العربية التى تستعمل لمعنى الكلمة الأجنبية واضحة تمام الوضوح ، وخاصة أن الحرف «أو » تربط بينهما . ولكن فى حالات أخرى لاتربط بين الكلمتين العربية والأجنبية حرف «أو» ويربط بينهما الحرف «و»:

---

(١) مصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، العدد الثانى ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠٥ ، وأحمد الإسكندرى ، أسماء عربية لمسميات حديثة ، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ، العدد الأول ، ١٩٣٤ ، ص ١١١ — ١٣٤

« نشاطهم التهويشى والديماغوجى » «وروح التعصب القومي والشوفيني» ، « والنشاط الفكرى والأيديولوجى » إلخ .

هذا ، وقد وضع بعض الباحثين عددا من الشروط لقبول اللفظ الأجنبى :

أولا : إمكانية الانتشار فى اللغة العربية نتيجة لدخوله فى أحد الأوزان العربية الاسمية أو الفعلية ، وضرورة التعبير عن معنى لايدل عليه لفظ عربى .

ثانيا : مرونته بحيث يسمح الاشتقاق منه ، مثله فى ذلك مثل الكلمات العربية .

ثالثا : التعبير عن معنى محدد لايعبر عنه لفظ آخر . (١)

ويلاحظ مما سبق ان الشرط الأول يتعلق بالتكيف الصرفى ، بينما يتعلق ثالثها بضرورة الكلمة ، وقد أكد هذا العنصر قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وقد ذكرنا أن لا أحد ينكر ضرورة استعمال اللفظ المعرب . وقد عبر الباحث العربى جرجي زيدان قبل سنوات كثيرة عن ضرورته ، إذ قال : « وقد آن لنا أن نخلص أقلامنا من قيود الجاهلية ، ونخرجها من سجن البداوة ، ... وإلا فلا نستطيع البقاء فى هذا الوسط الجديد . فلا ينبغى لنا احتقار كل لفظ لم ينطق به أهل البادية منذ بضعة عشر قرنا ، لأن لغة البوادى والخيام لاتصلح للمدن والقصور ، إلا إذا ألبسناها لباس المدن ... إلخ (٢) ثم يضيف مشيراً مباشرة إلى الأمر الذى نهتم به : « وإذا عرض لنا تعبير أجنبى لم تستعمل العرب مايقوم مقامه لابأس من اقتباسه » (٣)

ويجب الإشارة كذلك إلى أن بعض البحاثة العرب ألحوا على ضرورة تحديد أصول وضوابط لقبول اللفظ الأجنبى ، وتحديد استخدامه للضرورات العملية فقط ، ولكنهم عنوا بهذه الضرورات :

لأعلام وأسماء المأكولات ، والمشروبات والأثاث والأدوية وأسماء الحيوانات والأمراض غير المعروفة لهم (٤)

---

(١) إسحاق موسى الحسينى ، ألفاظ معربة ، فى البحوث والمحاضرات ، ١٩٦٣ ١٩٦٤ ، ص ٤٥ .

(٢) جرجى زيدان ، اللغة العربية كائن حى ، دار الهلال ، ص ١٣٩

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٤) عباس حسن ، الكتاب المذكور ، ص ٢٣٤ ومصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠٨ . راجع كذلك تفاصيل أخرى : أهم القرارات العلمية فى مجلات المجمع اللغوى بالقاهرة ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ٣٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٥٨٠ ومصطفى الشهابى انتخاب الألفاظ المولدة وإقرار الصالح منها ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ٤٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٧١٢ وابراهيم بيومى مدكور ، فى اللغة والأدب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٤٠

ولكن أكثر الباحثين قد وافقوا على قبول المصطلحات الجديدة بالترتيب التالى :

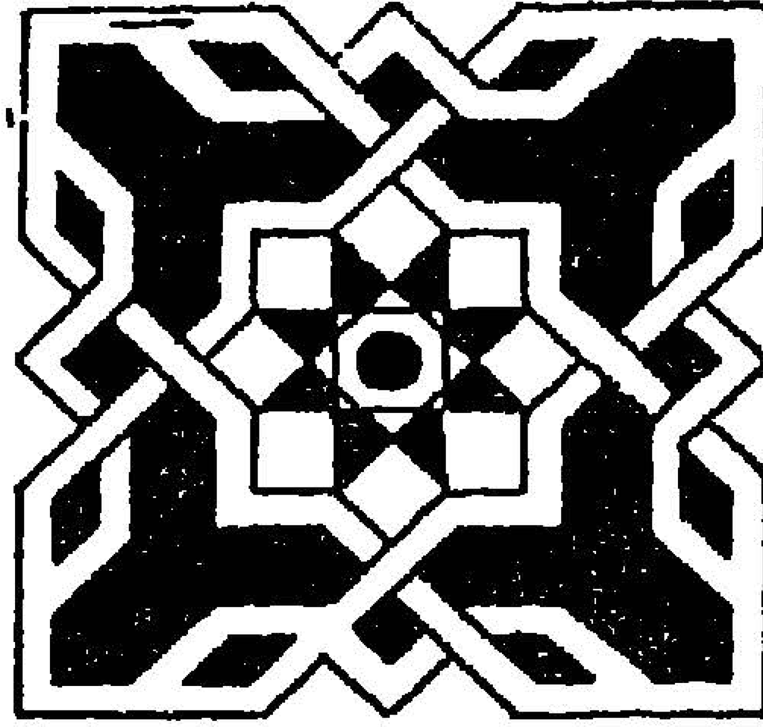
أولا الترجمة ، وثانيا الاشتقاق ، وثالثا المجاز ، ورابعا التعريب .

ونستنتج من هذا أنه يجب الالتجاء إلى التعريب فى آخر الأمر فقط . أما المبالغة فى الالتجاء إلى اللفظ المعرب فيرفضها الباحثون رفضا مبدئيا [1] باتا ، كما يرفضون كذلك محاولات تنقية اللغة العربية من الألفاظ المعربة لأن مثل هذه المبادرة من شأنها أن تخلق فراغا [2] فى اللغة من الصعب ملؤه بالكلمات العربية .

نيقولا دوبريشان

أستاذ قسم اللغات الشرقية .

جامعة بوخارست — رومانيا



---

(١) إبراهيم بيومى مدكور ، فى اللغة والأدب ، القاهرة ، ص ٤٠ وعبد القادر المغربى ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، ص ١٤٣ ومصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، العدد الثانى ، ١٩٥٢ ، ص ٢١٠ الخ .

(٢) عبد القادر المغربى ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، ص ١٤٣ وعباس العزاوى ، المعربات والمصطلحات مجلة المجمع العلمى العراقى ، ٨ ، ١٩٦١ ، ص ٤٨ الخ .

*

في القرآن والعربية : (٥)

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

ط : في الكمية (الحذف والزيادة) .

ثالثا :

١ - تسقط العرب الواو وهى واو الجماعة اكتفاء بالضمة قبلها فقالوا : في « ضربوا» قد ضربُ ، وفى قالوا قد قالُ ، وأنشد للفراء :

إذا ما(شاءُ) ضرّوا من أرادوا
ولايألو لهم أحد ضرارا

كما أنشد الكسائى :

متى (تقولُ) خلت من أهلها الدارُ
كأنهم بجناحىْ طائرٍ طاروا[1]

فحذف الواو من (شاءوا) والواو من (تقولوا) .

وجاء فى الخزانة :

ولو أن الأطبا(كانُ) حولى
وكان مع الأطباء الأساة[2]

وورد فى همع الهوامع :

« هلع إذا ماالناس(جاعُ) وأجدبوا »[3]

كماأن بعض العرب تحذف ياء التأنيث اكتفاء بالكسرة ، ومنها قول عنترة :

إن العدو لهم إليكِ وسيلة
إن يأخذوكِ تكحّلى وتخضّبِ[4]

وقد عزا الفراء تلك الظاهرة إلى (هوازن وقيس) - وهذا يؤيد ماتذهب إليه ، فهوازن من قيس وهى من القبائل الضخمة التى سكنت فى مواضع متعددة من نجد - وقيس كانت تتناثر ديارها بين نجد والحجاز - وأكثرها قبائل متبدية تميل إلى هذا الحذف الذى قررته ، ويظهر أن هذا الحذف كان يشمل مناطق بدوية أكثر مما ذكره الفراء ، فسيبويه يرى أن هذا الحذف كان عند ناس كثير من قيس وأسد[5] ، بل يظهر ان مناطق شاسعة من قيس وأسد كانت تحذف الواو والياء - وهما علامة المضمر

---

(١) معانى القرآن للفراء : ١ / ٩١

(٢) خزانة الأدب للبغدادى : ٢ / ٣٨٥ وفى معانى القرآن للفراء : عندى : بدل : حولى

(٣) الهمع : ١ / ٥٨

(٤) معانى القرآن للفراء : ١ / ٩١ ط دار الكتب .

(٥) الكتاب ٢ / ٣٠١ / ٣٠٢

(*) انظر الجزء السابق من مجلة المجمع .

ولاسيما فى القافية ، ودليل ذلك أن سيبويه سمع منهم من ينشد :

(أ) طافت بأعلاقه خوْدٌ يمانية
تدعو العرانين من بكر وما جمعْ

(ب) وقول عنترة :

(يادار عبلة بالجواء تكلم) [١]

وأنشد السيرافى للخزر بن لوذان :

(ج) كذب العتيقُ وماء شنّ باردِ
إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي [٢]

وأصل الكلام فى البيت الأول : وماجمعوا ، والبيت الثانى : تكلمى – وهو لعنترة ، وعنترة من عبْس من ذبيان التى ينتهى نسبها إلى قيس – تلك التى يشيع فيها ظاهرة الحذف ، على أنه قد سمعت نغمة أخرى ترى أن مثل هذا الحذف الذى عزى إلى قيس وأسد وهوازن – ليس بلهجة وإنما هو ضرورة شعرية [٣] ، ولكننى أردت سبر غورهم فوجدت الحق بجانبهم ، لأننى عثرت على شواهد نثرية – لا يمكن أن يقال بأنها جاءت ضرورة ، لأنه لاضرورة فى النثر فمن ذلك :

(أ) قرأ بعض القراء «سندع الزبانية» ، وقوله تعالى «ويدع الإنسان بالشر [٤]» وأصلها سندعو ، ويدعو – فحذفت الواو وبقيت الضمة دليلا عليها .

(ب) كما أورد صاحب الكشاف فى سورة المؤمنين شاهدا لقراءة من قرأ « قد أفلح المؤمنون » بضم الحاء اجتزاء بالضمة عن الواو ، والأصل «أفلحوا المؤمنون » [٥] كما نقل ابن هشام فى المغنى قراءة يحيى بن يعمر قوله تعالى «تماما على الذى أحسنُ » بالرفع وأصله «أحسنوا» فحذفت الواو واجتزىء عنها بالضمة . كما قرأ ابن محيصن «لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة» [٦] والأصل أن «يتموا».

(ج) وحكى السيوطى قائلا «من العرب من يقول « الزيدون قامُ » [٧] .

---

(١) سيبويه : ٢ / ٣٠٢

(٢) شرح السيرافى على سيبويه : ٥ / ٤٧٨ .

(٣) خزانة الأدب : ٢ / ٣٨٥

(٤) معانى القرآن للفراء : ١ / ٩١ ، خزانة الأدب : ٢ / ٣٨٥ .

(٥) حاشية الصبان على الأشمونى : ١ / ١١٢ .

(٦) مغنى اللبيب : ٢ / ١٣٠ ، خزانة الأدب : ٢ / ٣٨٥

(٧) الهمع : ١ / ٥٨

(د) ورد أن حذف الواو والاكتفاء عنها بالضمة ظاهرة سامية عامة وجدت فى الحبشية والعبرية والآرامية[1].

فهذه أدلة قاطعة من قراءآت القرآن الذى هو مرآة صافية للهجات العرب – يليه مثال من النثر، ولا ضرورة فى القرآن ولا فى النثر – فهى لهجة لا ضرورة

٢ – ومن أمثلة الحذف ما رواه ابن منظور لأعرابى من بنى نمير أنه قال «ينحِطْن من الجبل» [2] وماعزاه صاحب التصريح من قولهم: ظلت ومِست وأحَسْت وأنه لغة سليم»[3] ولتفسير هذا الحذف نرى أن أن الفعل أصله: ظَلَلت ومسست وأحسست. ويظهر أن القبائل العربية كانت تختلف فى نطق مثل هذه الأفعال – فبعضها كان ينطقها تامة كاملة: مثل الصيغ السابقة، وبعض كان ينطقها بحذف لامها مع نقل حركة العين إلى الفاء مثل: ظِلت. وبعض آخر كان يحذف لامها مع إبقاء الفاء على حركتها مثل: ظَلت وسيبويه كان يرى شذوذ هذه الصيغ المحذوفة[4] ومن ثم فلا يقاس عليها – وكلامه مردود، لأنه متى ثبت أنها لهجة عربية فلا ضرر من أن يقاس عليها. والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء. قال[5] ابن جنى «اللغات على اختلافها كلها حجة» على أن النحاة قيدوا هذا الحذف بأن يكون الفعل ثلاثيا مكسور العين[6]. وأرى أنه لا يلتفت إلى قولهم: لأن ظاهر إطلاق الموضح أن هذا الحذف مطرد فى كل فعل مضارع أيضا، بل حكى ابن الأنبارى الحذف فى المفتوح وسمع من العرب: همت فى هممت وكان صاحب التسهيل على حق حيث لم يشرط للحذف ما شرطه النحاة بل جعله شاملا للمفتوح والمكسور و الثلاثى ومزيده [7].

فالذى دعا بنى نمير وبنى سليم إلى الحذف، أنهم يتجنبون النطق بالحروف المتقاربة والمتماثلة، لأن أعذب التأليف ماتباعدت حروفه وتباينت مخارجه؛ فلما اجتمعت الحروف المماثلة فى كلمة واحدة وتعذر الإدغام لسكون الثانى منهما حذفوا الحرف الأول فقالوا: ظلت، حطت ومست فتخلصت نمير وسليم من التكرار

---

(١) No Ldâke. clie Endungen des Perfelek p, 15 Strâssburg 1909

(٢) اللسان: ٦/ ٣٩٤

(٣) التصريح: ٢ / ٣٩٧.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الاقتراح: ٢٤، ٧٨ والمزهر: ١ / ٥٧.

(٦) ابن عقيل: ٢ / ٤٥٧.

(٧) التصريح: ٢ / ٣٩٧

فى: ظللت وحططت ، وليس أدل على كراهيتهم تكرار الحروف من أنهم أبدلوا من أحد المثلين ياء كما فى: التظنّى والتقضّى والتسرّى وأصلها التظنن والتقضض والتسرر

والعلاقة واضحة بين القبيلتين اللتين آثرتا الحذف . فنمير – بطن من عامر بن صعصعة[1] تلك التى ينتهى نسبها إلى قيس عيلان، وعامر كان بعض بطونها بدوا إذ كانوا ينزلون نجدا، بل أثر عن بنى عامر أنها تقول : ظلت وملت[2] وعليها جاء قوله تعالى «فظلتم تفكهون[3]» وقوله تعالى «إلهك الذى ظلت عليه عاكفا[4]». وكذلك سليم وهى قبيلة عظيمة تنتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة وينتهى نسبها إلى قيس وكانت منازلهم فى عالية نجد[5]، ويظهر أن بعض بطونها كان ينزل مع طيئ بدليل ما جاء عن الهمدانى من قوله «فمن وادى القرى إلى خيبر إلى شرق المدينة إلى حد الجبلين إلى ما ينتهى إلى الحرة – ديار سليم ، لا يخالطهم طيئا[6]»، وإذا عرفنا أن طيئا قد آثرت مثل هذا الحذف فى مثل تلك الأفعال التى وردت محذوفة فى نمير وسليم – لم يكن عجبا، جاء فى الخصائص فى باب تحريف الفعل : «من ذلك ما جاء من المضاعف مشبّها بالمعتل وهو قولهم فى ظللت : ظَلْتُ قال :

خلا أن العتاق من المطايا
أحَسْنَ به فهنّ إليه شوس[7]

والأصل أحسسْنَ – فحذف، والبيت لأبى زبيد الطائى[8].

كما جاء فى مجالس ثعلب :

عوى ثم نادى هل أحَسْتُمْ قلا ئصا
وُسِمن علىَ الأفخاذ بالأميرِ أربعا[9]

والأصل : أحسستم . وهذا البيت لابن عناب الطائى وهو بدوى[10]، ومن هنا يبدو أن طيئا شاركت سليما ونميرا فى تلك السمة وقد بينت العلاقة التاريخية والجغرافية بين لإصرم من الأنصار سيارة، وقد يحالفون هذه القبائل الثلاث.

---

(1) معجم كحالة : ٣ / ١٩٥ .
(2) دروس التصريف : ١٦٨ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ط الرحمانية .
(3) سورة الواقعة: ٦٥
(4) سورة طه آية ٩٧ .
(5) معجم كحالة : ٢ / ٥٤٣
(6) صفة جزيرة العرب للهمدانى : ١٣١ ط ليدن .
(7) الخصائص : ٢ / ٤٣٨ .
(8) ابن يعيش : ١ / ١٥٤ هامش .
(9) مجالس تعلب : ٢ / ٦٠٥
(10) خزانة الأدب: ٤ / ٥٨٤

٣ – نقل أبو حيان فى تفسيره عن الزمخشرى : أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير فى لغة هذيل ، وأنشد الطبرى :

كفاك كفّ ما يليق درهما
جوداً وأخرى (تعط) بالسيف الدّما[1]

ويرى الألوسى أن حذف الياء فى مثل ما تقدم ضرورة، إذا لم يتقدم[2] عليها جازم حتى يحذفها ، ونحن هنا أمام موقف محير موقف القائلين بالضرورة ، وموقف القائلين بأنها لهجة هذيل ، ولكنى أرجح أنها لهجة هذيل وليست من الضرورة فى شىء ، والدليل على ذلك :

(أ) قرأ النحويان ونافع قوله تعالى «يوم يأت لا تكلّم نفس إلا بإذنه[3]» يأتِ – بإثبات الياء وصلا وحذفها وقفا ، وابن كثير بإثباتها وصلا ووقفا ، وهى ثابتة فى مصحف أبىّ ، وقرأ باقى السبعة بحذفها وصلا ووقفا[4].

(ب) ما جاء فى الإتحاف من أن الياءات المتطرفة كقوله تعالى: الداع . والجوار ويأت ، والليل إذا يسر ، دعانى ، أخرتنى . أثبتها بعض القراء مراعين الأصل كيعقوب وهى لغة الحجازيين ، ومنهم من يحذف هذه الياء كخلف وهى لغة هذيل[5] .

(ج) ما جاء عن العرب من قولهم[6] : أقبل يضربه لا يأل . بحذف الواو والاكتفاء بالضمة على اللام ، وقولهم «لا أدر[7]» بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة على الراء ، وقولهم : «ما أدر ما تقول[8]» وقولهم «لا أبال» بحذف الياء والاجتزاء بالكسرة عن الياء[9] .

(د) وردت بعض القراءات بحذف الياء والاكتفاء عنها بالكسرة كقوله تعالى «يوم ينادى المناد[10]» وقوله «أتمدونن بمال[11]» وأصلها : المنادى ، أتمدوننى وقرأ ابن مسعود «الزانية والزان» بغير ياء : شواذ القرآن لابن خالويه : ص ١٠٠ وانظر سورة النور٢ فإذا كان القرآن الكريم قد نطق بتلك اللهجة ؛ والقرآن ليس شعرا حتى نقول إنه حذف الياء وأبقى

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥ / ٤٧٩ ، البحر ٥ / ٢٦١ / ٢٦٢ .
(٢) الضرائر : ١٧٥ للألوسى
(٣) سورة هود آية ١٠٥
(٤) البحر المحيط : ٥ / ٢٦١ / ٢٦٢ .
(٥) الإتحاف : ١١٣ .
(٦) مقدمتان فى علوم القرآن : مبانى : ١٣٨ .
(٧) اللسان : ١٨ / ١٤ .
(٨) تفسير الطبرى ١٥ / ٤٧٩ ، والجاسوس : ٣٤٢ .
(٩) البحر ٥ / ٢٦١
(١٠) سورة ق . آية ٤١ .
(١١) سورة النمل آية ٣٦ .
(١٢) سورة النور آية ٢

الكسرة دليلا عليها — ضرورة — ثم ما تقدم من كلام العرب النثرى والذى حدث فيه مثل هذا الحذف — والنثر لا يمكن أن يكون محطًا للضرورات .

ومن هنا نرى أن هذا الحذف فى هذيل كما عزاه القراء على حين أن إثبات هذه الياءات لهجة الحجازيين — ومعنى ذلك أن الحجاز كانت تنطق بالصيغة كاملة وافية لا حذف فيها ولا حيف — ولهذا أخالف الأستاذ (برجشتراسر) حيث يرى أن الكسرة الممدودة الانتهائية كانت تقصر فى لهجة الحجاز[1]، ومما يؤيد نى فى الرأى قول صاحب الإتحاف فى إثبات هذه الياءات والإتيان بالصيغ الكاملة « ويعقوب وغيره يثبتون الياء فى الحالين — (أى حالة الوصل والوقف على الأصل وهى لغة الحجاز[2]) .

والسبب فى أن الحجازيين يأتون بالصيغ الكاملة تامة أنهم أهل حضر غالبا والحضرى معنىّ بتحسين النطق وتخير العبارات حتى ينال ما يشتهى من طموح ومركز اجتماعى ؛[3] لهذا يعمد إلى وضوح الكلام وحسن أدائه

كما يبدو أن ظاهرة الحذف فى هذيل لم تكن مقصورة على الآخر . بل وجدت عندها أنماط شتى للحذف فقد تحذف حينا عين الكلمة :

تقول هذيل : رادٌ : أى : رائد[4]
وفى اللسان[5] : أن هذا الحذف كثير فى لغتها ،

ومن حذف العين فى هذيل ما ورد فى قراءة ابن مسعود[6] «فقلا له قولا ليِّنا» بضم القاف من غير واو[7]

٤ — أنا — ضمير المتكلم :

حدث خلاف بين البصريين والكوفيين فى تركيب هذا الضمير ، فيرى البصريون أن الضمير هو الهمزة والنون ، والألف الأخيرة زائدة أتى بها فى الوقف لبيان الحركة فهى كالهاء فى اغزه وارعه — وإذا وصلت حذفتها كما تحذف الهاء فى الوصل[8] .

كما يؤيد ابن جنى رأى البصريين بقوله «فأما الألف فى — أنا — فى الوقف فزائدة وليست بأصل — ولم نقض بذلك فيها من

(١) التطور النحوى : ٤٤ .
(٢) الإتحاف : ١٦٣ .
(٣) فى اللهجات العربية ٨٣ ، ٢ ط ٣ . دكتور إبراهيم أنيس (رحمه الله) .
(٤) المخصص ١٣ / ١٥٠ .
(٥) ٤ — ١٦٩
(٦) طه ٤٤
(٧) مختصر شواذ القرآن ١٥٥ لابن خالويه ، وقارن بالخصائص ٢ / ١٣٢ .
(٨) ابن يعيش : ٣ — ٩٣ .

قبل الاشتقاق : هذا محال فى الأسماء المضمرة لأنها مبنية كالحروف ، ولكن قضينا بزيادتها من حيث كان الوصل يزيلها ويذهبها كما يذهب الهاء التى تلحق لبيان الحركة فى الوقف ألاترى أنك تقول فى الوصل : أنا زيد كما قال تعالى «إنى أنا ربك[1]» يكتب فى الوقف بألف بعد النون وليست الألف فى اللفظ وإنما كتبت على الوقف ، فصار سقوط الألف فى الوصل كسقوط الهاء التى تلحق الوقف لبيان الحركة فى الوصل[2]» ويقرر ابن يعيش زيادة الألف فى أنا — وهو مذهب البصريين[3]

وأما علماء الكوفة فيرون أن الألف بعد النون من نفس الكلمة ، أى الأحرف الثلاثة كلها وهى التى يتألف منها الضمير (أنا) يقول ابن يعيش «وقد كثر ذلك عنهم حتى قال الكوفيون إنها (أى الألف) من الكلمة وليست زائدة[4]» .

- أما اللهجات العربية فى هذا الضمير فهى :

(أ) إثباتها (أى الألف الأخيرة) وصلا ووقفا — وهى لغة تميم ، قال أبو النجم :

(أنا أبو النجم وشعرى شعرى[5])

وجاءت رواية فى كل من الأشمونى[6] والجاسوس على القاموس[7] مؤداها عزو تلك اللهجة إلى تميم ، وجاء فى الخزانة قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى
حميدا قد تذريت السناما[8]

ويميل ابن جنى إلى جعل هذين البيتين من قبيل الضرورة إذ يقول «وقد أجرت العرب كثيرا من ألفاظها فى الوصل على حد ما تكون عليه فى الوقف ، وأكثر ما يجئ ذلك ضرورة فى الشعر[9]» ، وكأنه بذلك ينكر أن تكون (أنا) بالألف فى حالة الوصل — إلا فى الضرائر الشعرية ، ولكن يقف فى سبيله ماجاء فى قراءات القرآن الكريم ، إذ قرأ نافع «أنا أحيي وأميت[10]»

---

(١) سورة طه الآية ١٢ .
(٢) المنصف لابن جنى على كتاب التصريف لأبى عثمان المازنى : ١ / ٩ ط الأولى .
(٣) ابن يعيش : ٩ / ٨٤ .
(٤) المرجع السابق ٩ / ٨٤ .
(٥) الهمع : ١ / ٦٠ ، الدرر اللوامع على همع الهوامع : ١ / ٣٥ .
(٦) الأشمونى ١ / ١١٤ .
(٧) الجاسوس الشدياق : ٤٧ .
(٨) خزانة الأدب البغدادى : ٢ / ٣٩٠ .
(٩) المنصف : ١ / ١٠ ط أولى القاهرة .
(١٠) سورة البقرة : ٢٥٨ .

«أنا آتيك به[1]» بإثبات الألف فى الوصل[2] والقرآن الكريم لاضرورة فيه. بل ساق السيرافى فى مخطوطته قراءة من قرأ «وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم» باثبات الألف فى الوصل (الهمع: ١ / ٦٠) ولكن النحاة تأولوا هذه القراءة (ارتشاف الضرب ١٢٢٢ رقم ٨٢٨ نحو دار الكتب). والذى أميل إليه بين القائلين بالضرورة، والذين يعزونها لتميم أن ثبوت ألف (أنا) فى الوصل لهجة تميم، أما عند غير بنى تميم فلا يكون إلا فى ضرورة شعرية. وهذه الصيغة التميمية (أى النطق بالألف فى أنا وصلا ووقفا) هى التى شجعت الكوفيين بأن يقولوا إن الألف بعد النون من نفس الكلمة أى أن الألف الأخيرة فى (أنا) أصلية وليست بزائدة كما يقول البصريون.

(ب) إثبات ألفه وقفا، وحذفها وصلا[3] — وقال السيوطى عنها «بأنها الفصحى رلغة الحجاز[4]» وإثبات الألف وقفا وحذفها وصلا هو الذى جعل البصريين يقولون بزيادة الألف الأخيرة فى الصيغة. والحق أن البصريين جانبهم التوفيق عندما قالوا بزيادتها، لأن الزائد هو مالا يلفظ به لا وصلا ولا وقفا، والألف اللينة هنا ليست كذلك لثبوتها فى أنا — وقفا لجميع القراء، ولاشك أن الرسم مبنى على الوقف والابتداء فلما ثبتت لم تكن زائدة، ومما يقوى هذا احتفاظ لهجة تميم بالألف فى حالتى الوصل والوقف، ومما استدل به على أصالة هذه الألف ماجاء فى سائر اللغات السامية: ففى آرامية العهد القديم ănā و ʾnā، فى السريانية كما ترد أنا جزءا فى ضمير المتكلم ānŏkhi فى الأكدية و anāku فى العبرية[5]. بل إن بعض العرب كان يكتبه كما كان ينطقه بألف لينة بعد النون، كما يشاهد ذلك فى نقش حران اللجا[6]، وهو فيه «أنا شرحيل برظلمو[7]» فيرى الضمير عبارة عن أنا — بالألف اللينة، فكل هذا يشير إلى أصالة المد — فى أنا فى حالة الوقف وذلك، رأى الكوفيين.

---

(١) سورة النمل آية ٣٩.

(٢) شرح السيرافى: ١ / ٢٥٠ تيمور خط.

(٣) الأشمونى: ١ / ١١٤.

(٤) الهمع: ١ / ٦٠.

(٥) فصلة من مجلة كلية الأدب عن الضمير (أنا) فى اللغات السامية ص ٣٩٧ د. السيد يعقوب بكر (رحمه الله)

(٦) الدكتور: نامى من مقال «ضمير المتكلم المرفوع: الفقرة الأولى. من فصلة فى مجلة كلية الآدب مجلد ١٩ ج ١.

(٧) تاريخ اللغات السامية: ١٩٢ دكتور ولفنسون.

(ح) وجاء فى الخزانة أن من العرب من يقول « أنه» إذا وقف — وهى لغة جيدة ، وهى فى عليا تميم وسفلى قيس[1]. وعلل ابن جنى لتلك الصيغة بقوله « فبينوا الفتحة بالهاء كما بينوها بالألف ». وقد ساق ابن يعيش شاهداً لتلك اللهجة من قول عربى عرقب ناقته لضيف فقيل له: هلا فصدتها وأطعمته دمها مشويا فقال: « هذا فصْدى أنه ». يريد (أنا)[2].

ولا أدرى كيف عزا البغدادى صيغة (أنه) فى الوقف لتميم وقيس ، لأن النصوص تتفق على أن هذه الصيغة فى (طيىء)، وهذا العربى الذى نطق بتلك الصيغة ولا نعرف من أى قبيلة هو فيما جاء عن ابن يعيش ، قد عرف بأنه حاتم طيئ فى شرح الشافية[4] فصيغته (أنه) فى الوقف لطيئ ، ولعل هذه الصيغة — نشأت كما يقول (بركلاند)[5] عن صيغة الوصل أنَ — أى أن بعض العرب ممن يقولون أن — فى الوصل — ظنوا أن هذه هى الصيغة الأصلية فلما أرادوا الوقوف عليها ، وقفوا عليها بالهاء — بيانا لحركة النون ، وهذا معنى قول ابن جنى « فبينوا الفتحة (أى على النون) بالهاء[6].

وأرجح أن هذه الهاء هى هاء السكت جاءت لبيان الحركة — كالتى فى قوله تعالى « ولم أدر ماحسابيهْ » ومثل هذه الهاء التى جاءت لبيان الحركة فى الوقف ماجاء عن أبى زيد من أنه سمع أعرابيا من أهل العالية يقول : « هو لكَهْ وعليكَهْ وجعل الله البركة فى داركَهْ » ولاشك أن هذا الأعرابى يفعل ذلك فى الوقف ، لأن الوقف يحتاج إلى بيان ، فإذا وصل حذف هذه الهاء ، لأن الحرف الذى يلى الكاف فى الوصل يوضحها .

(د) وبعضهم يقول — آن — حكاها الفراء ، وفيها قلبت الألف إلى موضع العين ويقول ابن يعيش « فإن صحت هذه الرواية[8] كان فيها تقوية لمذهبهم » أى الكوفيين وهذه الصيغة تشبه من يقول « راء » فى رأى أى أنها مقلوب — أنا . وقد عزاها صاحب

---

(١) الخزانة للبغدادى : ٤ / ٤٩٢ .
(٢) المنصف : ١ / ١٠ ط القاهرة .
(٣) ابن يعيش : ٣ / ٩٤
(٤) شرح الشافية : ٢ / ٢٩٤/٢٩٥
(٥) الضمير (أنا) فى السامية للدكتور السيد يعقوب بكر ص ٣٩٩ فصلة من مجلة كلية الآداب .
(٦) المنصف : ١ / ١٠ ط القاهرة .
(٧) نوادر اللغة لأبى زيد : ١٧١ .
(٨) ابن يعيش : ٣ / ٩٤ .

التهذيب إلى (قضاعة) واستشهد لها بقول عدىّ :

يا ليت شعرى آنَ ذو عجة
متى أرى شرْبا حوالى أصيص[1]

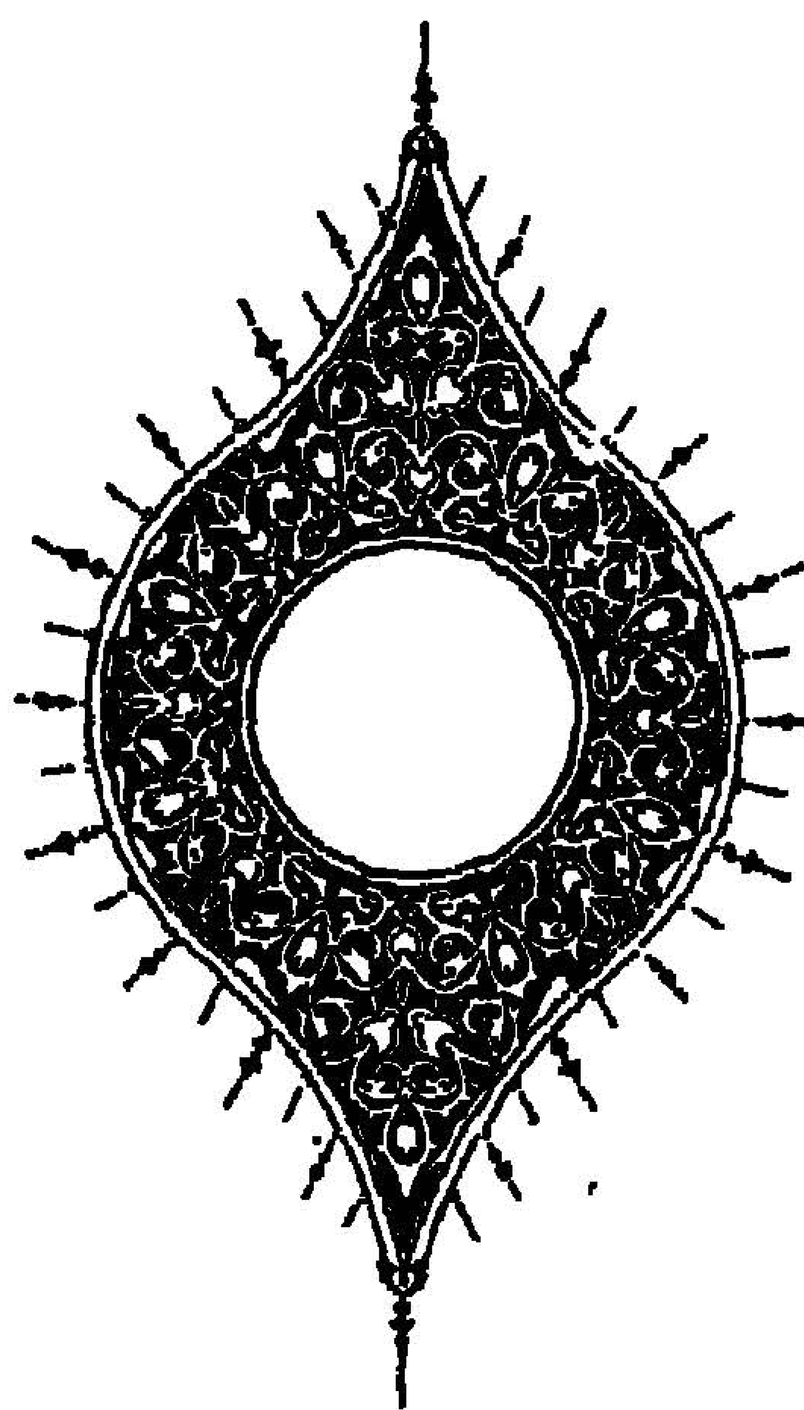
والناظر إلى هذا الشاهد ربما يحمله على الضرورة ، وبذهابنا إلى البحث فى كتب الطبقات عرفنا أن عديًّا هذا من (عاملة . وعاملة من قضاعة[2]) ، ولهذا رجحت أنها لهجة الشاعر القضاعية :

(هـ) ومن العرب من يسكن النون فى الوصل والوقف وحكى «أنْ فعلت[3]» .

(و) أن تقلب همزة الضمير هاء مثل (هنا) فى (أنا)[4]

احمد علم الدين الجندى

البحث بقية



---

(1) اللسان : ١٦ / ١٧٩

(2) الشعر والشعراء : ٢٣٧ تحقيق السقا .

(3) خزانة الأدب البغدادى : ٤ / ٤٩٢ ، ابن يعيش : ٣ / ٩٤

(4) أنظر شرح الشافية : (٣ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

الجغرافيا اللغوية وأطلس "برجشتراسر"

للدكتور رمضان عبد التواب

بحث

علم اللغة فى العصر الحديث بصلات وثيقة إلى علوم أخرى ، فهو يقتبس بعض طرائقها ، فى معالجة الظواهر المختلفة ، أو يفيد من النتائج التى وصلت إليها ، فى محاولة لفهم أسرار اللغة ، وهى أرقى ما وصل إليه النشاط الاجتماعى لدى بنى البشر .

ومن فروع علم اللغة فى العصر الحديث علم الاجتماع اللغوى ، وعلم النفس اللغوى كما أن عالم اللغة لابد له من الإلمام بعلم الفسيولوجيا أو وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح ، وعلم الطبيعة ، فى دراسة الأصوات اللغوية بأنواعها المختلفة .

ويتصل علم اللغة الحديث كذلك بعلم الجغرافيا اتصالا وثيقا ، فقد اقتبس علم اللغة ، منذ أكثر من نصف قرن مضى طرائق علم الجغرافيا ؛ ليضع حدوداً لغوية للهجات المختلفة ، فى خرائط تبين معالم كل لهجة ، وتفرق بين لهجة وأخرى ، ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا إلا فى أن ما يدون عليها ظواهر لغوية ، تطلع القارئ على أدق الفروق فى الأصوات والمفردات ، بين اللغات المختلفة واللهجات المتباينة .

وتطلعنا هذه الخرائط على الاختلافات الصوتية بين المناطق المختلفة ؛ فقوم يجهرون أصواتا ، وقوم يهمسونها ، وطائفة تنطق الفتحة صريحة ، وأخرى تنطقها ممالة ، ولهجة تنبر الكلمة فى مقطعها الأول ، وأخرى تنبر المقطع الأخير منها . . وهكذا .

كما يبرز فى هذه الخرائط الدرس الواسع للمفردات ، من حيث البنية والمترادفات المختلفة للمعنى الواحد ، واختلاف الألفاظ باختلاف المناطق اللغوية ، ومقدار انتشار الكلمات فى الأقطار والأقاليم ، وغير ذلك مما يتيح لنا معرفة الواقع اللغوى للغة من اللغات ، سواء أكانت لغات فصحى أو مشتركة أو خاصة ، أو لهجات اجتماعية أو إقليمية أو عاميات خاصة .

هذه الدراسة الجغرافية اللغوية ، تعد من أحدث وسائل البحث فى علم اللغة ،

ولها وظيفة ذات أثر بالغ فى الدراسات اللغوية فى العصر الحديث ؛ لأنها تسجل الواقع اللغوى للغات أو اللهجات على خرائط ، يجمعها آخر الأمر أطلس لغوى عام ، وتختص كل خريطة بكلمة أو بظاهرة صوتية معينة ، يبدو فيها الاتفاق أو الاختلاف بين المناطق اللغوية المتعددة ومما لا شك فيه أن هناك تشابها بين لهجة إقليمية وأخرى أو بين لهجتين اجتماعيتين ، أو بين عاميات خاصة ، ما دامت هذه جميعا ترجع إلى أصل لغوى واحد .

وعلى الرغم من تقدم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية ، لدى علماء الغرب ، فإنه لا يزال غض الإهاب فى بلادنا ، فليس لدينا فى لغتنا العربية إلا محاولات قليلة منها محاولة قام بها المستشرق الألمانى برجشتراسر Bergstraesser لعمل أطلس لغوى لسوريا وفلسطين ، نشره فى ليبزج سنة ١٩١٥ م .

و« برجشتراسر » مستشرق ألمانى مشهور ، ولد فى عام ١٨٨٦م ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج سنة ١٩١١م ، برسالته عن « استعمال حروف النفى فى القرآن الكريم » ، ودرس فى جامعات ليبزج ، وبرسلاو ، وهيدلبرج . واستقر به المطاف بعد ذلك فى ميونخ سنة ١٩٢٦م ، وانتخب عميداً لكلية الآداب بها سنة ١٩٢٨م .

وفى العام الجامعى ١٩٢٩–١٩٣٠ م دعته كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، لإلقاء محاضرات فى النحو المقارن بعنوان : « التطور النحوى للغة العربية » ، وقد طبع فى مصر سنة ١٩٣٠م ، ثم دعته الحكومة المصرية مرة ثانية فى العام الجامعى ١٩٣١ – ١٩٣٢م ليلقى محاضرات فى الجامعة عن تحقيق النصوص ، وقد نشرت هذه المحاضرات بعد ذلك فى كتاب بعنوان : « نقد النصوص ونشر الكتب » فى مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية سنة ١٩٦٩م :

وكان « برجشتراسر » يكره « هتلر » ودعوته النازية ، لتفضيله الحديد على الزبد ، وتفضيله العلوم العملية على العلوم النظرية ، وكان لا يرى مانعا من حمل بندقيته والخروج لمحاربته ، فدفع « هتلر » إليه بمن يقتله ، وكان مغرما بتسلق الجبال ، ففى إحدى المرات ، حينما كان يتسلق الجبال ومعه طالب من طلبته ، إذ تعلق الطالب بقدمه ، فهوى من ارتفاع شاهق إلى قاع الوادى ، حيث لقى حتفه فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٢م .

أما أطلسه اللغوى ، الذى عمله لبلاد سوريا وفلسطين ، فقد قام بعمل تسجيلاته كلها بنفسه فى عام ١٩١٤م ، بعد أن حصل على إجازة من جامعة ليبزج ، ليقضى شهوراً فى بلاد الشرق ، فسافر إلى الآستانة ، ومنها إلى سوريا ، وفيها تنقل بين بلادها باحثا وراء اختلاف اللهجات الدارجة بها ، فمكث أولا فى « دمشق » ، ثم سافر إلى الجنوب فى « معان » ثم إلى « حلب » فى الشمال وفلسطين ولبنان .

وكانت حصيلة هذه التسجيلات ، أن وضع أطلساً لغوياً لسوريا وفلسطين ، وهو عبارة عن ٤٢ خريطة تفصيلية ، وخريطة واحدة إجمالية ، مع شرح لغوى فى كتاب مستقل ، نشر فى ليبزج سنة ١٩١٥م .

وسنعرض فيما يلى لطريقة « برجشتراسر» فى عمله هذا ، كما بين هو ذلك فى مقدمته لأطلسه ؛ إذ ذكر أن بحث اللهجات العربية قبله ، كان مقصوراً على دراسة كل لهجة محلية دراسة مستقلة ، وبين أن هذه الدراسات السابقة ، تفتقر إلى التكملة ، عن طريق دراسة الفروق اللغوية ، فى مناطق كبيرة ، باستخدام الجغرافيا اللغوية .

وقد استخدم « برجشتراسر » الطريقة الألمانية[1] ، فى عرض جمل معينة على راوى اللهجة ، غير أنه اختار جملا متصلا بعضها ببعض ، فى سياق قصة من القصص الشائعة فى المنطقة ، وعلل للسر فى اختياره هذه الطريقة : بأن المقارنة عن طريق قوائم الكلمات ، لا يستطيع معها المرء أن يدرس الظواهر النحوية ، التى تحتاج إلى التراكيب؛ فقال فى المقدمة :

« ويواجه تدبير المادة اللغوية القابلة للمقارنة ، صعوبات كبيرة ، بصرف النظر عن الصعوبات الأخرى ، التى تعترض سبيل تسجيل اللهجات ، فقد يكون من السهل عمل قوائم كلمات لموضوع ما ، ولكن مثل هذه القوائم — كما هو معروف — لاتحتوى فى الغالب إلا على أسماء وأعداد ، وقد تحتوى على أفعال وصفات وحروف ، غير أننا نفتقد هنا الأمر الذى لايزال كل شىء بالنسبة لعرض اللهجة عرضاً كاملا نوعا ما ، وهذا الأمر هو التركيب موضوع دراسة النحو ، فإنه لايمكن الحصول عليه بهذه الطريقة مطلقاً ، فيما عدا بعض التصريفات النحوية ، التى قد يخرج بها المرء بعدساعات طويلة من الأسئلة. وهكذا لم تبق إلا طريقة واحدة ، وهى تسجيل نص متكامل (أو على الأقلّ جملٍ متكاملة) . غير أن مثل هذا النمط من السلوك فى معالجة اللهجة عن طريق النص الكامل ، تصعب معه المقارنة الكاملة المطلوبة ، فلم يبق إلا أن يقسم النص إلى جمل صغيرة ، وينطق بها أمام الشخص الذى يمثل اللهجة (الراوى) وهو يعيدها منطوقة بلهجته وهذا أمر خطير بالطبع ، ويحتاج إلى حذر شديد للوثوق من أن الراوى يتحدث حقا بلهجته ، ولا يحاول حسبما يستطيع أن يردد ما يسمعه من غيره ، غير أنه لا يجوز لنا أن نبالغ فى رفض الصيغ التى تشبه نظائرها فى نطق المسجل أمام الراوى . وقد حدث لى فى أحيان كثيرة ، أن الأهالى عندما كنت أسائل أحد البدو فى حضورهم ،

---

(١) انظر عرضا للطريقتين الألمانية والفرنسية فى عمل الأطالس اللغوية ، فى مقال للدكتور خليل عساكر ، بمجلة مجمع اللغة (الجزء السابع)سنة ١٩٥٣ ص ٣٧٩ — ٣٨٤

كانوا يحاولون — حينما يفهمون ما أريد — أن يصححوا للبدوى كل الصيغ الغريبة ، التى ينطق بها البدوى على سجيته » .

وقد ذكر « برجشتراسر » الصعوبات التى قابلته فى عمله الذى تولاه بنفسه فى منطقة واسعة ، ومدة قصيرة نسبياً ، فقال : «ومن القواعد المقررة أنه لايجوز الاعتقاد فيما يرويه العربى عن لهجة لا يتكلمها هو نفسه . وإلى جانب هذا تأتى صعوبات أخرى ، وعلى الأخص ، عندما يكون فى المكان الذى تبحث لهجته تعبيرات واصطلاحات أخرى ، غير تلك التى ألقاها المسجل أمام الراوى ، فإن المرء لا يحصل عليها عندئذ إلا بطريق الصدفة ، أو فى حاله ما إذا كان راوى اللهجة شخصاً ذكى الفؤاد :

« وعلى العموم فإن الطريقة المبينة من قبل ، تظهر الفروق بين اللهجات ، أقل مما هى عليه فى الواقع — وإنه ليفترض دائماً حتى الآن ، أن الراوى قد أفلح عموما فى فهم ما يريده المرء منه — وذلك عسير مع البدو خاصة — وأنه ذكى بدرجة كافية ، فقد اضطررت إلى قطع التسجيلات فى أحيان كثيرة ، عند أول حديث مباشر فى النص الذى عرضته ؛ لأن الراوى لم يكرره على أنه حديث مباشر بضميره المناسب .

« وقد تضاعفت هذه الصعوبات ، بسبب بعض الأمور الأخرى ، وقبل كل شىء بسبب ضيق الوقت الذى أملكه ؛ إذ اضطررت القيام بتسجيلاتى كلها فى ٤٥ يوما فى منطقة ذات أبعاد هائلة . وهكذا أصبحت مراكز التسجيل أقل مما كنت أرغب . وفيما عدا ذلك ، كان لابد أن يقصر النص المعد للتسجيل ، وأن يصرف النظر فى كثير من الحالات عن فحص التسجيل ومراقبته بسبب ضيق الوقت . وقد تسببت العجلة كذلك ، فى أننى لم أكن حذرا فى انتقاء رواة اللهجة ، إذ يجب أن يختاروا من بين الأفراد الذين لم يتعرضوا لأى تأثير أجنبى » .

ويشير « أنطوان مييه » A. Meillet إلى مثل هذه الصعوبات التى تقوم فى وجه تسجيل لهجة ما ، فيقول[1] : « فإذا كان الأمر يتعلق بلغة محلية ، نجد أن الأشخاص الذين يستخدمونها محرومون عادة من كل ثقافة لغوية لوصفها . وأما الأجانب ، ففضلا عن أنهم يفهمونها فهما غير كامل ، مع تفاوتهم فى ذلك ، فإنهم يجدون مشقة فى تمييز الأشخاص الذين يتكلمونها على نحو عادى ، بل إنهم عندما يعثرون على هؤلاء الأشخاص ، لا يستطيعون بسهولة أن يأخذوا عنهم المعلومات اللازمة ؛ وذلك لأن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، لا يعون على وجه دقيق الطريقة التى يتكلمون بها ؛ بل إن مجرد محادثة شخص يتكلم لغوة ما

(١) انظر علم اللسان لأنطوان مييه ، ترجمة الدكتور محمد مندور ٤٥٤ — ٤٥٥

لشخص آخر لايتكلم نفس هذه اللغوة عادة — ليكفى لإلقاء الاضطراب ، فى استعمال تلك اللغوة ، والحيدة بها عن الدقة » .

وقد بين « برجشتراسر » كيف اختار النص الذى عرضه على رواة اللهجة ، فذكر أنه أخذ القصة المعروفة بقصة « الفلاح والثور والحمار والديك » فى صيغتها الدمشقية ، من كتاب « أوستروب » Oestrup ، غير أنه أعاد كتابتها مرة أخرى ، لكى يتجنب الصيغ الفصيحة فيها ، ولكى يتأكد من عربيتها الدمشقية ، بعد هذا كله ، عرضها على أحد الرواة من دمشق فأقرها .

وفيما يلى جزء من هذه القصة التى قسمها إلى ٩١ فقرة على النحو التالى :

« (١) كان فيه رجل فلاح (٢) بيعرف كلام الحواوين (٣) وعندو حمار وتور (٤) التور بحرت الأرض (٥) والحمار يركب عليه الفلاح (٦) يوم من الأيام قال التور للحمار (٧) أنا طول النهار باشتغل (٨) وانته بتقعد (٩) ما بتعمل شى منوب (١٠) ياريتنى متلك يوم واحد (١١) اعطينى نصيحة إيشما كان (١٢) شوبدى أعمل (١٣) قاللو الحمار عندى نصيحة (١٤) قاللو فرجينى شو عندك (١٥) قاللو الليلة لا تاكل عليقك (١٦) بيجى صاحبنا بيشوفك (١٧) بيظن انك ضعيف (١٨) بيدشرك يومين تلاتة (١٩) قاللو التور ابو الله هادا راى (٢٠) رايح اعمل هيك » .

وفيما يلى أمثلة من دراسته اللغوية ، للهجات التى سجلها فى سوريا وفلسطين ، وأقام عليها أطلسه اللغوى :

ففى الناحية الصوتية مثلا ، لاحظ « برجشتراسر » أن (الكاف) يختلف نطقها بين البدو والحضر ، وأن كشكشة الكاف[1] لاتسود على العموم فى الحضر إلا فى منطقة صغيرة ، وعلى الأخص فى تلك الجهات التى تحول فيها البدو إلى مستوطنين فى العصر الحديث ، وأن المدن كلها تنطق بصوت الكاف ، وأن مدينة « السلط » تنطق الكاف بالكشكشة ، فيما عدا المتعلمين فيها ؛ إذ ينطقون بالكاف ، وأن منطقة « عنيزة » فى الشمال ، تنطق الكاف بالكسكسة ، وأن فى شمال منطقة الكشكشة ، يتأرجح النطق بين الكاف المكشكشة وصوت (ty) كما فى منطقة « سولم » مثلا .

وبالنسبة إلى الصيغ لاحظ «برجشتراسر» مثلا أن الضمير « نحن » ينطق « نحن » بين الحضريين فى الشمال ، وعدد قليل جدا من البدو ، وينطق « إحنا » بين الحضريين فى الجنوب ، والبدو فى الغرب وينطق « حِنَّا » بين البدو فى الشرق ،

---

(١) انظر لظاهرة الكشكشة والكسكسة كتابنا « فصول فى فقه العربية » ١٢٠ — ١٣٠

كما يذكر أن عددا قليلا من البدو ينطق به « لحنا » .

وفى الدلالة على الزمن الحالى ، يذكر « برجشتراسر » أن كل الحضريين يزيدون الباء فى أول المضارع ، وإن لم يكن الجميع تابعين فى هذا لقواعد تطابق تماما القواعد المتبعة فى دمشق ، ودائرة الاستعمال فى معظم الأحوال أوسع منها فى دمشق . أما بين البدو فلا تسود هذه الباء إلا لدى القليل جدا منهم ، وربما يكون ذلك بسبب التأثر بالحضر .

وفى مجال المفردات يذكر «برجشتراسر» أن البدو يستخدمون فى معنى « الآن » مثلا كلمة : « هسّع » أو « هسّاع » وكذلك الحضريون فى شرق الأردن . أما باقى الحضريين فإنهم يستخدمون « هلّقْ » أو « هلاّ » أو « هلقت » أو « هلأت » وما أشبه ذلك . وكذلك يستخدمون « إسّاً » أو « هلْقيت » أو « هلْئيت » .

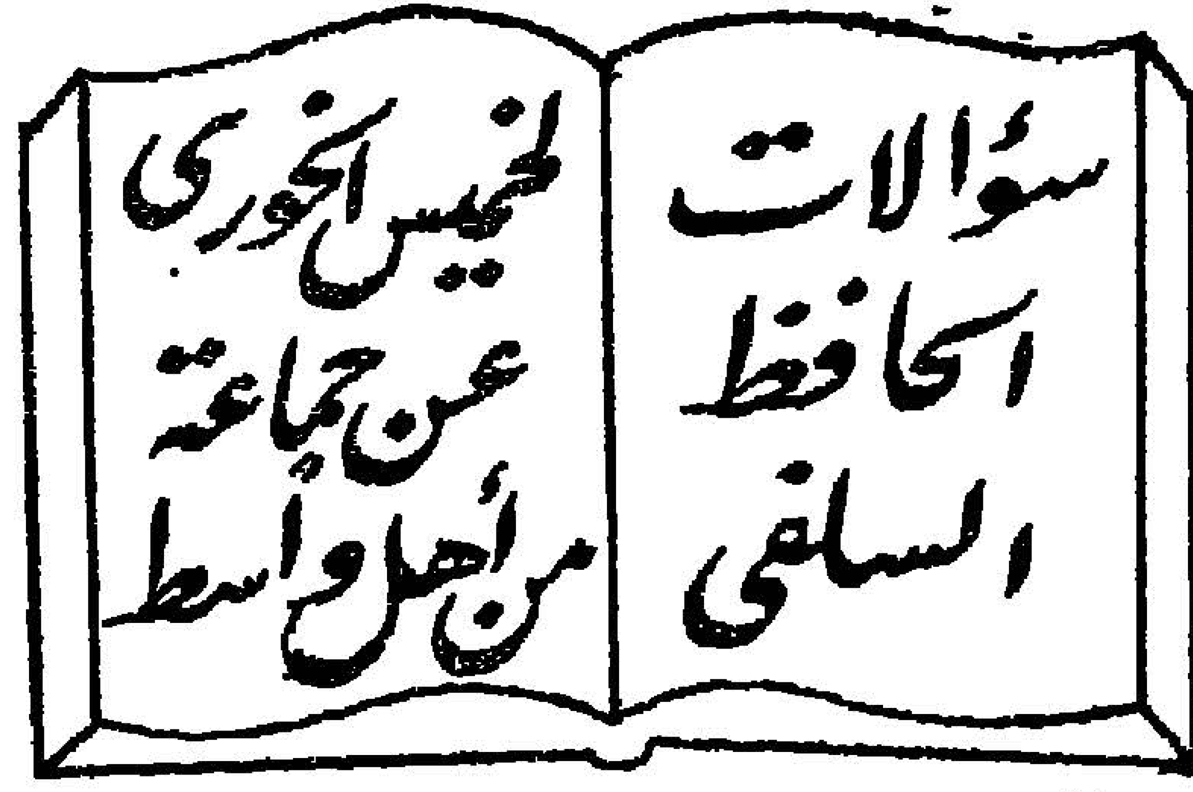
كما يذكر أن الحضر فى الجنوب الغربى يقولون : « فى عرضك » أو « بعرضك » . أما البدو هناك فيقولون : « دخالك » ، وباقى المناطق تقول : « دخيلك » .

هذه بعض أمثلة لما فى هذا الأطلس اللغوى ، من ملاحظات لغوية قيمة ، ويلاحظ فى هذا العمل أنه ككل دراسة جغرافية — وصفى بحت ، يعنى بالواقع اللغوى ويسجله ، ولا يهمه البحث عن الأسباب والدواعى التى قادت إليه ، أو بمعنى آخر ، لايعنى بأصول الظواهر اللغوية ، والقوانين التى أدت إلى تطورها ، وهذا هو الفرق بين منهجين من مناهج الدراسة اللغوية ، وهما المنهج الوصفى الذى يبحث اللغة بحثا عرضيا لاطوليا ، ويصف مافيها من ظواهر مختلفة ، ويسجل الواقع اللغوى تسجيلا أمينا ، والمنهج التاريخى الذى يدرس اللغة دراسة طولية ويتتبع الظاهرة اللغوية فى عصور مختلفة ، محاولا الوقوف على السر فى تطورها .

وقد أشار « برجشتراسر » فى خاتمة أطلسه اللغوى إلى ذلك ، فقال : « وهذا البحث يرمى إلى توضيح الصلات اللغوية الحاضرة بين سوريا وفلسطين .
وأما بحث تطورها التاريخى ، فإنه عمل قائم بذاته ، ويحتاج فى تنفيذه إلى النقل الواسع عن المراجع التاريخية »

وعلى العكس من ذلك لاتكمل البحوث التى تتعلق بلغة سوريا وفلسطين ، ولاتلك التى تتعلق بفتح العرب لهذه المنطقة ، إلا بمعرفة الصلات اللغوية الحاضرة . وإذا كان الفتح العربى لهذه المنطقة قد أدى إلى اندثار اللغة الآرامية ، فإن هذا البحث يحتاج إلى تكملة من جانب اللغة الآرامية ، ممثلة فى بحث تأثير الآرامية على العربية ، وأثر العربية فى اللهجات الآرامية الباقية ، وهى لهجة « معلولا » إحدى قرى ضواحى دمشق . والله أعلم

رمضان عبد التواب



تحقيق الأستاذ مطاع الطرابيشي
تعريف ونقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

ليست

هذه هي المرة الأولى التي تلتقي فيها بالأديب الأستاذ مطاع الطرابيشي محققا لكتب التراث العربي، فقد عرفناه قبل ذلك جامعا ومحققا لشعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو ذلك الشعر الذي أصدره مجمع اللغة العربية بدمشق فيما أصدره من نفائس المطبوعات سنة ١٩٧٤ م

والحق أن عمل الأستاذ مطاع الطرابيشي وصنعه المشكور في جمع شعر الشاعر عمرو ابن معد يكرب الزبيدي يعد من أعمال التحقيق التي لازمها التوفيق. فما ترك مصدرا أو مرجعا أو مظنة لوجود شعر الزبيدي إلا رجع إليه، واستأنس به، وأخذ عنه، ونقل منه، حتى بلغت جريدة مصادره لالتقاط شعر هذا الشاعر قرابة مائتي كتاب لا تنقص عنها إلا كتابين لا غير. ولقد نقر الأستاذ مطاع كل تلك المصادر والمظان وقلبها ظهرا لبطن، وبطنا لظهر، فما أفلت منه بيت واحد للزبيدي، على الرغم من أن أكثر تلك المصادر غير مفهرس القوافي وذلك عمل تنوء به العصبة أولو القوة. ولكن يبدو أن طبيعة هذا المحقق الميالة إلى التنظيم والتنسيق، والحصر والتحديد، والمعاودة والمراجعة قد سهلت عليه جمع هذا الشعر العظيم لعمرو بن معد يكرب، الذي كاد يكون الديوان الكامل له. فأن محققنا تتبع شعر الزبيدي المبعثر كل مظنة، وأخذ يدونه ويرتبه ويقابل بين نص ونص، وقراءة وقراءة، ورواية ورواية حتى استقام له أن يسوى ديوانا كاملا لعمرو ابن معد يكرب بعد أن عفى الزمان على ديوانه الذي جمعه أول الأمر إسحاق ابن مرار الشيباني الكوفي المتوفى ٢٠٦هـ ثم جمعه بعد ذلك أبو عبد الله بن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ، ثم جاء أبو سعيد السكري المتوفى سنة ٢٧٥ هـ فجمع ديوان عمرو ابن معد يكرب بصنعته هو. وظلت هذه

الدواوين متداولة بين أيدى العلماء والباحثين فى أنحاء العالم العربى حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى» ، ومنذ ذلك الحين اختفى ديوان الزبيدى وكأن الأرض قد ابتلعته كما اختفى غيره من كتب التراث ، ومن يدرى لعله الآن يقبع فى زاوية مجهولة من زوايا خزانة للكتب ، وقد عفره التراب ، أو لعل ماء قد أغرقه أو حريقا قد أحرقه أو جاهلا قد انتهبه وطوح به فى مطارح بعيدة لا تصل أليها يد . . . ألى أن أتاح الله لشاعرنا صاحب الصمصامة أديبا من العراق هو : هاشم الطعان ، جمع ما تبعثر من شعر الزبيدى . وما أقدره عليه جهده ونشره فى ديوان صدر عن العراق سنة ١٩٧٠

ولم يسلم شعر الزبيدى صنعة هاشم الطعان العراقى ، من مآخذ كثيرة أخذها عليه الناقدون ، وفى مقدمتهم الدكتور يحيى الجبورى الباحث المحقق العراقى .

ولعل صدور طبعة الطعان بما حوته من أوهام غلاظ قد حفز باحثنا ومحققنا الأستاذ مطاع الطرابيشى على أن ينص عزمه لجمع شعر عمرو بن معد يكرب من جديد ، وأن يتعقبه فى كل مورد مهما كان بعيدا عن الظن ، وأن يحققه على خير الوجوه وأقربها ألى الأصل ، وأن يخرجه إخراجا لعله يبلغ الرضى من روح عمرو بن معد يكرب ، الذى قطع الدهر منذ ثلثمائة عام ما بيننا وبين ديوانه القديم . وهكذا كان شعر الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدى أثرا من آثار الأديب مطاع الطرابيشى ، وجهدا خالصا من أطيب جهوده . »

واليوم — وبعد مرور عامين على صدور شعر الزبيدى من صنعة مطاع الطرابيشى — يسهم صاحبنا فى نشر التراث العربى الخالد بتحقيق (سؤالات الحافظ السلفى) ، وهى تلك السؤالات التى ألقاها الحافظ السلفى على العلامة الواسطى خميس الحوزى وتلقى منه الجواب عنها . وهى سؤالات تتصل بالترجمة لجماعة من أعلام مدينة واسط وقرائها ومحدثيها ، وفقهائها ، ونحاتها وأدبائها وشعرائها وشهودها المعدلين ، وخطبائها ، وزهادها ومتصوفتها ... وبهذا كان كتاب (سؤالات الحافظ السلفى) مصدرا من مصادر الترجمة لجماعة من أعيان واسط فى القرن الخامس الهجرى ، وإن كان هناك قلة من التراجم تعود ألى صدر القرن الثالث وتمتد حتى بداية القرن السادس » :

وكثير من تلك التراجم لا تقع عليها فى كتاب آخر مما بين أيدينا من الكتب مخطوطة أو مطبوعة ، ومن هنا كانت لها

قيمتها التى جعلتها مصدرا منفردا وحيدا عن رجل عالم واسطى لاقى أصحاب هذه التراجم وشافههم أو سمع عنهم، وقد لا يكون بينهم هم أنفسهم لقاء ، ولكن الحوزى جمعهم فى رباط (البلدية) أو المواطنة القريبة العهد ، فهم جميعا أبناء بلد واحد هو مدينة واسط التى أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وفى العقد التاسع من القرن الأول الهجرى .

ويلاحظ على التراجم التى حررها أو أملاها الحوزى على الحافظ السلفى أنها وجيزة كل الأيجاز تحاشى فيها المجيب الأطالة ، وقصد فيها ألى الإيجاز الذى يدل على المترجم له بقليل من الأحداث الواضحة فى ترجمته. ولهذا نراه فى الجملة يغفل تواريخ الميلاد والوفيات ، ويكتفى بالحكم الوجيز الدقيق على المترجم له ، فيقول عنه مثلا إنه له (شعر جيد ، وترسل سديد ، وموضع من النزاهة معروف) أو يقول عن آخر : (ثقة صدوق . شارك ولده فى أكثر أشياخه ،لم يسمع فى حداثته وإنما سمع بأخرة)

ومن تحقيقات الحوزى فى وفيات المترجم لهم قوله عن الزعفرانى أنه (كف بأخرة وتوفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة) ص ٦٩ ، أو قوله عن أبى الحسن بن الصفار الكاتب أنه (مات فى السابع و العشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وأربعمائة) ص ٧٠ ، أو قوله فى مولد أبى على بن غراب (وكان ولد قبل الأربعمائة ، وكان يقول : أحمد الله أنى ولدت قبلها) ص ٧٤

ومهما يكن من أمر هذه المواليد والوفيات فهى قليلة جدا ، بل تكاد تكون نادرة فى تراجم الحوزى لرجالات « واسط » . ولعله لم يجعل هذه الناحية محل اهتمام فى تراجمه ، فلا يكاد يفطن أليها ألا فى النادر ولا يجعلها نهجا فى الترجمة يسير عليه ، ويتقيد به ، ولو فعل لأفاد كثيرا ، كما أفاد غيره ممن اهتموا بهذه الناحية .

وتبلغ عدة التراجم فى (سؤالات الحافظ السلفى) ستا وعشرين ومائة ترجمة لاغير ، وقد يكون هذا العدد قليلا ، ودون ما كنا نطمع فيه من التراجم لأعيان مدينة لعبت دورا هاماً فى التاريخ العربى الإسلامى . ولكن ما الحيلة وقد قيد (الحوزى) نفسه بما سأله عنه الحافظ السلفى ، فلم يزد على سؤالاته واحدا ليزيد به حجم التراجم ، ولم يجعل تراجمه لأعيان واسط فى فترة معينة ابتداء أو مبادءة منه. ولكنه جعلها

جوابا عن سؤالات للسلفى ، فهو لم يعد فى تلك التراجم إلا أن يكون مجيبا عن أسئلة ،أو رادًا على استطلاع ، أو سابقا إلى إجابة ؟

والحوزى كان أخبر بأهل بلده واسط وأكثر استفهاما عنهم وعن موجز أحوالهم .ومن هنا كانت قيمة هذه التراجم التى لم تنقل عن كتاب ، أو تؤخذ عن سفر من تلك الأسفار التى يأخذ بعضها عن بعض. ولكنها تراجم أصيلة بكر ، لجأ إليها المترجمون وكتاب الطبقات بعد ذلك ، ونقلوا عنها وأخذوا منها . كما فعل ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ؛ فقد نقل عنها بعض تراجمه ، وكما فعل ابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩ﻫ فى استدراكه ، وكما فعل الدبيثى المتوفى سنة ٦٣٧ ﻫ فى ذيله على تاريخ بغداد، وكما فعل القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ فى إنباه الرواة المطبوع فى دار الكتب المصرية بتحقيق صديقنا المحقق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .. وكما فعل جماعة من أصحاب كتب التراجم والطبقات ، منهم الإمام الحافظ الذهبى ، والصفدى ، وابن رجب الدمشقى ، وابن حجر العسقلانى ، والإمام السيوطى ، وابن العماد الحنبلى وغيرهم

ولقد عرف تلاميذ الحوزى ، كما عرف الآتون بعده وبعدهم ، قيمة هذه التراجم وأهميتها فحرصوا على روايتها وبالغ بعضهم فرواها عن الحافظ السلفى نفسه ، مثل تلميذه أبى الفضل جعفر الهمدانى الذى سمعها عنه تلميذه ابن نقطة فى ثغر الأسكندرية ، ومثل الإمام المحدث الذهبى الذى رواها عن طريق ابن رواحة تلميذ الحافظ السلفى ، كما ذكر ذلك فى « سير النبلاء » فى آخر ترجمة خميس الحوزى .

والحافظ السلفى صاحب هذه السؤالات وموجهها إلى الحوزى هو صدر الدين أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الإصبهانى الجروآنى . ولقب « صدر الدين» هذا هو الصحيح ، وإن كان قد جاء فى «تذكرة الحفاظ » و « حسن المحاضرة » للسيوطى أنه « عماد الدين » . وقد حدث ذلك على سبيل الوهم أو السهو ، وإن كانت بقية المصادر الأخرى قد تنبهت له وصححته ، وممن فعل ذلك من المحدثين محققنا الأستاذ الأديب مطاع الطرابيشى ، وصديقنا المرحوم المؤرخ الإسلامى الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه الثمين :

(أعلام الأسكندرية فى العصر الإسلامى) ص١٣٢ ، فقد كان متنبها لهذا الوهم فى اللقب الذى لم يتنبه له باحث مصرى

معاصر هو صديقنا المرحوم الأستاذ «نقولا يوسف » فى كتابه المشهور : (أعلام من الأسكندرية)ص١٥٥ .ولاأدرى كيف وقع الأستاذ نقولا فى هذا الوهم ، ولم يحقق على عادته ؟ ولعله سقط فيما سقط فيه الذهبى والسيوطى من قبل ، فلم يخالف ماجاء فى كتابيهما

وكم كنت أود وأنا آقرأما أثبته المحقق مطاع الطرابيشى من اختلاف فى الأقوال عن تاريخ ميلاد الحافظ السلفى ، ص ٧ أن يذكر لنا بالتفصيل هذه الروايات التى ناقشها الذهبى فى« سير النبلاء »، حتى يكون القارىء على بينة منها . وقد كفانا المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال مؤونة هذا العمل فى ترجمته الوافية الدقيقة للحافظ السلفى ، فقد ذكر تراوح التواريخ فى مولده بين سنوات ٤٧١ هـ ، ٤٧٢ هـ ، ٤٧٥ هـ ، ورجح آن سنة ٤٧٥ هـ هى أصح التواريخ ،" فقد ذكر السبكى فى طبقات الشافعية أن السلفى حكى عن نفسه أنه حدّث سنة ٤٩٢ هـ ، وما فى وجهه شعرة ، وأنه كان يومئذ ابن سبع عشرة سنة أونحوها . . . كما ذكر الحافظ عبد الغنى أنه سمع السلفى يقول : (أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة ٤٨٥ هـ وكان عمرى نحو عشر سنين . وقد كتبوا عنى فى أول سنة ٤٩٢ هـ وأنا ابن سبع عشرة سنة أو أكثر أو أقل ، وليس فى وجهى شعرة كالنجارى . . .) ".

على أن من تحقيقات المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال مايتصل بتاريخ خروج السلفى من الأسكندرية إلى مصر القاهرة أو الفسطاط ، وقول السبكى صاحب طبقات الشافعية أن ذلك كان فى سنة ٥١٧ هـ . وقد تابع الأستاذ مطاع ذلك القول بدون تحقيق ، فقال فى ص ٩ : (واستوطن السلفى الأسكندرية خمسا وستين سنة إلى أن مات ، ماخرج منها سوى خرجته إلى القاهرة سنة ٥١٧ هـ للسماع من أبى الصادق مرشد بن يحيى المدينى وطبقته . . .) .

ولا بأس أن نسجل هنا ما قاله الدكتور الشيال فى هذا الصدد . . . : (والتاريخ الذى ذكره السبكى — أى سنة ٥١٧ هـ — غير دقيق . والصحيح أنه سافر إلى الفسطاط فى أوائل سنة ٥١٥ هـ ، ومكث بها ثلاث سنوات إلى أواخر ٥١٧ هـ ، ثم عاد إلى الاسكندرية . يؤيد هذا السلفى نفسه فى بعض النصوص التى ذكرها فى كتابه « معجم السفر » فقد قال فى ترجمته لأبى الحسن على بن المؤمل ابن غسان الكاتب المصرى : « وتوفى سنة ٥١٥ هـ بالاسكندرية وأنا بمصر ». وقال فى ترجمة أبى البهاء عبد الكريم بن عبد الله ابن محمد المقرىء الصقلى : «وتوفى فى شعبان

سنة ٥١٧ هـ بالأسكندرية وأنا بمصر » فكأنه كان لا يزال مقيما بمصر – أى الفسطاط – إلى شعبان سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه غادرها عائداً إلى الأسكندرية فى ذى القعدة من هذه السنة) . . . ص ١٣٩ من كتاب أعلام الأسكندرية .

وهكذا نجد فى ترجمة الدكتور الشيال للحافظ السلفى أخبارا وتحقيقات لا نجدها فيما بين أيدينا من السؤالات . وإن كانت قد جاءت فى مصادر ومراجع قديمة ، ثم تنبه لها الدكتور الشيال بحسه التاريخى الدقيق فأبرزها فى ترجمته الوافية . . . كالذى فعله حين تحدث عن وفاة الحافظ السلفى بالأسكندرية سنة ٥٧٦ هـ وعن دفنه فى مقبرة « وعلة » ، وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، فزاد ماذكره ابن خلكان » فى وفيات الأعيان من أن هذه المقبرة دفن فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره . . .

ولقد كان كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان مصدرا من المصادر التى عول عليها المحقق الأستاذ مطاع الطرابيشى فى ترجمته للحافظ السلفى . والحق أنه قد عنى نفسه بذكر كثرة كاثرة من مصادر الترجمة للسلفى وهو جهد مشكور ، إلا أنه قد ذكر فى مصادره : (إيضاح المكنون جـ ٢ ص ١٩٥ ، ٥٠٨) ، ولا أدرى كيف يستقيم أو يصح أن يكون إيضاح المكنون مصدرا للترجمة للسلفى مع أنه – باعتراف محققنا ص ١٧ قد خلط فى اسم السلفى وفى تاريخ وفاته حين تحدث عن كتابه) الفضائل الباهرة ، فى محاسن مصر والقاهرة) فقال إن اسمه : أبو طاهر محمد بن أحمد السلفى الأصبهانى المتوفى سنة ٤٨٢ هـ . وقد جمع هذا القول بين تخليطين : الأول فى الاسم : فهو أحمد بن محمد . لا محمد بن أحمد ، وهو قد توفى سنة ٥٧٦ هـ لا سنة ٤٨٢ هـ

وقد يقال إن محققنا استعان بإيضاح المكنون على ذكر كتاب من كتب الحافظ السلفى ولم يضره إذا كان صاحب الإيضاح قد وهم فى سطر واحد وهمين ، لأنه لم يكن بصدد تحقيق الاسم والوفاة . ولكنه بصدد تدوين مؤلف للحافظ . وأيا ما كان الأمر ، فإن محققنا لم يقف أمام هذا الوهم ساكتا ولا معرضا ، ولكنه تصدى له فى الموضع نفسه ، وحققه بما يرد الحق إلى نصابه .

ومحققنا لا يتهجم على التحقيق ولا يقول إلا بالذى يعلمه ، ويتيقن له . وهذا طراز من المحققين نحن فى أشد الحاجة إليه ، وخاصة حين بلغ بنا الزمن إلى سطحية

فى التحقيق لا تتفق مع الأصالة والتعمق .
فهو حين ييأس من التوفيق إلى العثور على ترجمة شخص ما — مع كثرة ما يبذل من جهد لا يمكن خفاؤه — يقول نحو هذه العبارة : (لم أصب له ذكرا فيما وقفت عليه من مصادر) ، أو : (لم أعثر على ترجمة له فى المصادر ..) هامش ص ١٠ ، أو : (لم أصب ترجمة أخرى له فى الاستدراك والتبصير ذكر آخرون بهذا اللقب ، ولم يذكر أبو نعيم هذا) هامش ص ٣٠ ؛ ونحن مقدرون ما بذله المحقق من جهد فى سبيل الوقوع على ترجمة جاءت فى إجابات الحوزى ولم تجئ فى مصدر آخر ، فإن مصادر التحقيق كثيرة بين يدى صاحبنا ، وكأنها منه على أطراف أصابعه .. فلو أصاب ترجمته أو إشارة إلى ترجمته لذكرها ، دعماً لما ذكره الحوزى ..

ومما يدل على كثرة تقليب محققنا النظر فى كتب المراجع أنه لا يكاد يفوته اختلاف الروايات فى شعر ذكره الحوزى وسجله الحافظ السلفى ، ففى الترجمة لأبى طالب سعد بن محمد الوحيد يذكر الحوزى ما أنشده أياه « أبو طالب الوحيد » لنفسه من قوله :

لو تخليت للزمان للاقى
مسمعاه منى عتاباً يطول

إنما تكثر النوائب فى الدنيا
لأن الكرام فيها قليل

فهو يعلق على هذين البيتين ، ص ٣٥ بقوله : (الشعر من البحر الخفيف ، وفى معجم الأدباء ، وبغية الوعاة رواية ثانية للبيتين :

لو تجلى لى الزمان للاقى
مسمعيه منى عتاب طويل

إنما تكثر الملامة للدهر
لأن الكرام فيه قليل

وحين يترجم الحوزى للشاعر الكاتب على بن محمد بن دينار فإنه — أعنى الحوزى — يذكر أنه :

(لقى المتنبى وسمع منه ديوانه ومدحه بقصيدة هى عندنا موجودة فى ديوانه أولها :

رب القريض إليك الحل والرحل
ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبل

تضاءل الشعراء اليوم عند فتى
صعاب كل قريض عنده ذلل

ويعلق محققنا الأستاذ الطرابيشى على ذلك بقوله : (الشعر من البسيط ولم أصب ذكرا آخر لديوان ابن دينار هذا)

ويدلنا هذا التعليق الوجيز على أن المحقق خبير بالشعر عليم بالعروض والقوافى ؛

وأنه يذكر الشعر الوارد فى التراجم بأوزانه وبحوره على الضد مما يفعل بعض المحققين من إغفال فهرسة الشعر لأن ذلك يجرهم إلى ذكر القوافى التى لا يعرفون عنها شيئا؛ كما يدلنا التعليق على أن محققنا اهتم بما ذكر من نسبة ديوان إلى ابن دينار وقرر أنه لم يصب له ذكرا. وهذا يجرنا إلى السؤال المعاد المكرور ، وهو أين هذا الديوان الذى ذكره الحوزى ، ونقله ياقوت الحموى فى معجمه ؟ وأين مئات الكتب التى ذكرها رواة الأخبار ولم نصب لها ذكرا ، ولم يضع الزمان أيدينا عليها إلى الآن ؟

ولقد حمدت للأستاذ الطرابيشى تتبعه لما جاء فى سؤالات السلفى من تراجم ، ومتابعته لأخبار هؤلاء الرجال فى كتب ومصادر أخرى ، وتسجيله ذلك فى هوامش الكتاب. ولكنه ما باله أغفل ذلك التتبع فى معرض ترجمة الحوزى (لعبد الملك بن مروان الكاتب أبى منصور)؟ فالحوزى يذكر أن ابن مروان هذا كان فى قديمه نصرانيا فأسلم ، كما يذكر أنه — أعنى الحوزى — رأى له قصيدة فى رمى البندق تزيد على خمسمائة بيت لم يقل أحد مثلها، أجاد فيها أوصاف المياه والصحارى والرياض والشجر والغياض والسماء والأفلاك والنجوم وصنوف الأطيار .. ولقد أعيانى البحث عن عبد الملك هذا وعن قصيدته فى رمى البندق ، كما أعيانى طلابه وطلاب تلميذه أبى السعادات بن بختيار فى الخريدة للأصبهانى وفى مراجع أخرى أضنانى الرجوع إليها . ولكن المحقق الطرابيشى لم يقل لنا شيئا عن عبد الملك هذا ، ولا عن قصيدته ، وخرج بالصمت عن : لا ، ونعم . وإن كنت هنا قد اعترفت بعجزى عن العثور على ما كنت أبغيه . فهل عند قراء هذا المقال من يهدينا ، والله يهديه؟!

لقد سبق أن قررت أن التراجم فى سؤالات الحوزى موجزة جدا ، ولكن الحق أنها تحتوى على طرائف من حياة المترجم لهم ، وعلى صور للمجتمع العربى العراقى لا نجدها فى كتاب من كتب التاريخ : فاتهام الجنود بأنهم كانوا يضعون الخمور وآلاتها فى بيوت من يريد الحكام معاقبتهم أو الانتقام منهم مما نجده فى ترجمة (القاضى أبى تمام) ص ١٢ . ومواساة أصحاب المال والثراء لأهل العلم كانت ملمحا ملحوظا فى المجتمع الأسلامى العربى نصادفا فى ترجمة «ابن القصاب البيع» ص ٢٨ ، واكتناز بعض العلماء الأموال — مع مخالفة ذلك للشرع — كانت بعض الظواهر التى

بدت فى الترجمة لابن بحتر ، ص٧٥، فقد روى الجوزى عن شيخه ابن غراب أن ابن بحتر (كان يتهم بأن معه مالا ، وله ذخيرة . وكان ينكر ذلك . فقرأت عليه يوما سورة براءة ، فلما بلغت إلى قوله تعالى :« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ...» الآية قال ! وى ! وى ! وى ! وجعل يلطم على وجهه .قال : فتحققت مايقول الناس فيه. فلما مات دخل أصحاب السلطان داره فنبشوها فوجدوا جرة خضراء مملوءة دنانير ، فأخذوها وانصرفوا ، فعرفت أنه كان يولول من أجلها ..)

وهذه مناسبة تجرنا إلى الحديث عن منهج الجوزى رحمه الله فى التحدث عن الرجال. فقد كان متحفظا كل التحفظ فى ذكر المعايب ،عفيف اللسان ، يذكر السيئات بطريقة لبقة لا تجرح : كتب فى ترجمته لأبى منصور العكبرى : — (قدم علينا سنة ثمان وستين فسمعنا منه كثيرا ، ولا أعلم من حاله ألا الخير ،غير أن أبا على البردانى كتب إلى بما فيه عليه غميزة، ولعله علم من حاله غير الذى علمت ..) ص٧٢ ، وذلك من أخلاق العلماء الذين لا يحبون أن يقعوا فى غيرهم بما لا يعلمون

رحم الله الجوزى وتلميذه الحافظ السلفى ، وشكراً لمجمع اللغة العربية بدمشق جهوده الموفقة الظاهرة فى نشر كتب التراث وإصدارها على نحو من التحقيق سليم ،وعلى نحو من الإخراج جميل : وشكر للأديب المحقق مطاع الطرابيشى جهوده فى باب تحقيق التراث ، وخاصة ماكان منه فى جمع وتحقيق لشعر عمرو بن معديكرب الزبيدى ، وفى تحقيق لكتاب (سؤالات الحافظ السلفى) الذى كان حظنا أن نتحدث عنه فى هذا المقال

محمد عبد الغنى حسن

كلمة الأستاذ على النجدى ناصف

فى استقبال الأستاذ



بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الرئيس ، زملائى المجمعين ، أيها السادة والسيدات .

من فضل الله على الأمة أن يهب لها إبان يقظتها ، واستقامة الأمر فيها — صفوة من أبنائها الصالحين ، من أولى الكفاية الفائقة ، والموهبة البارعة فى العلوم والآداب والفنون ، فتتقسمهم بينها مطالب الحياة فيها ، ومنازع العصر الذى يظلها ، كل فى الموقع الذى هو به أحق ، وله أصلح فإذا هم هنا وهناك مشارق نور ، وروافد خير وصلاح ، تجرى فى الناس بما ينير العقول ، ويعمر القلوب ، ويسمو بالأذواق ، فيتهيأ للحياة أن تتوازن ، ولركبها أن يواصل مسيرته إلى الغاية المرجاه .

ولقد وهب الله لمصر — فيمن وهب من هؤلاء — نخبة ممتازة من علماء التاريخ وأصحاب القدمة فيه ، وخار الله للمجمع الموقر أن يصطفى بعضهم أعضاء فيه ، ليشاركوا فى حمل أمانته ، ويجاهدوا فى العربية معه ، فكانوا له أمنية المتمنى : حسن بلاء ، وسخاء عطاء ، بما قدموا من عون ، ووثقوا من مصطلحات ، رحم الله منهم من قضى ونسأ فى عمر من بقى ، وبارك عليه فى الخالفين .

واليوم يستقبل المجمع الموقر مؤرخا منهم نابها ، وعلما فيهم راسخا ، وكاتبا من كتابنا المعدودين ، هو الأستاذ الكبير محمد عبد الله عنان .

ولم يتبوأ الأستاذ عنان مكانه هذا بين أنداده ، وفى قلوب قرائه عفوا ميسورا أو قدرا مقدورا ، ولكن جهادا كبيرا وصنيعا مشكورا ، يتمثلان فى آثار له حسان ، وبحوث شائقة متعددة ، أصاب الناس منها علما غزيرا ، ومتاعا طيبا لا لغو فيه ولا تأثيم .

لكن أكثر ما يقترن به اسمه ، وتروى فيه أخباره هو تاريخ الأندلس ، لا لأن الأندلس هى وحدها مدار علمه وشاهد فضله ، ولكن لأنه آتاها من جهده وذات نفسه أقصى وأجل ما يؤتى عالم موضوعا أصفاه الحب ، وأخلص له العمل . ثم إن للأندلس فى التاريخ مقاما معلوما ، وذكرا مرفوعا ، وأثرا باقيا فى رقى البشرية ،

وازدهار الحضارة الإنسانية ، وهى بعد ذلك أو معه مهوى أفئدة العرب خاصة والمسلمين عامة ، يفاخرون بعبقريتها الملهمة ويأسون لمحنتها الفاجعة

لكنهم لم يكونوا يعلمون عنها إلا يسيرا ، لا غناء فيه ، ولا مقنع به . ثم هم ينظرون فلا يرونها قد ظفرت من حفاوة الدرس وأصالة البحث بمثل ما ظفرت به أخوات لها فى المشرق ، فيرتد إليهم طرفهم حسرة وأسفا ، ولكن مع بارقة من رجاء ، فى غد ميمون ، يكون أو فى لها ، وأحنى عليها وأنهض بحقها المقسوم .

فإذا ندب الله لها مؤرخنا الجليل ، فألقى إليها باله ، وشحذ لها من عزمه وأقبل على تاريخها المجيد ، ينشر مطوية ويوضح غامضة ، ويمحص حقائقه ، ثم يعرضه عرضا وافيا شافيا — فقد عمل صالحا ، وحقق أملا عزيزا ، وكان حقيقا أن يذكربا لأندلس ، وأن تذكر الأندلس به ، ولكن ذكر إكبار وعرفان ، لاذكر حصر واقتصار .

ويزيد من فضله وإعظام صنيعه فى هذا المقام — أنه لم يشأ أن يدرس الأندلس بالغيب ، ولكن عن مشاهدة وعيان ، فأعد للأمر أو فى عدة ، وأدلها على علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فدرس اللغة الأسبانية لأنها لغة البيئة التى سيدرس فيها ، والوسيلة التى لا وسيلة غيرها للدراسة المباشرة ولو شاء لغنى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ؛ وهى اللغات التى يجيد التكلم بها . والترجمة منها وإليها . ثم سافر إلى الأندلس وأسبانيا من أجل ذلك ، لا مرة واحدة ، ولا مرتين اثنتين ، ولكن سبع عشرة مرة ، فلم يدع هنالك مكتبة ، ولا دارا من دور الوثائق والمحفوظات إلا زارها وأكب على كنوزها ، يدرس ويحقق . ثم لم يدع هنالك أيضا معلما إلا زاره ، ولا مشهدا إلا وقف عليه وتلبث به ، يخطط الخرائط ، ويصور الآثار والأطلال ، يطالع ويتدبر ، يستلهم ويستشعر ، لذلك كله لم يكن حديثه عن الأندلس من فيض الدرس والبحث وكفى ، ولكن من فيض القلب والوجدان أيضا .

على أنه لم يقصر رحلاته فى هذا السبيل على الأندلس وإسبانيا ، ولا جعل اختلافه إلى المكتبات وقفا على مكتباتهما ، فكانت له رحلات إلى المغرب ، واختلاف إلى خزائن كتبه ؛ إلى اتصالات بمكتبات أكثر الحواضر فى أوربا كذلك .

ولقد أبى عليه توفر نشاطه ، وتعدد آناقه إلا أن يجعل من نفسه نصيبا مفروضا لجوانب أخر من عالم التاريخ ، فانتظم له من دراستها عقد ثمين ، يتألف من عشرين كتابا ، وهى :

(١) تاريخ المؤامرات السياسية .

(٢) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة

(٣) مواقف باسمة فى تاريخ الإسلام بالعربية والإنجليزية .

(٤) ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى .

(٥) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية.

(٦) مؤرخو مصر الإسلامية .

(٧) الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية .

(٨) تاريخ الجامع الأزهر

(٩) ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى بالعربية والإنجليزية .

(١٠) دولة الإسلام فى الاندلس ، فى جزأين :

(١١) دول الطوائف .

(١٢) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (فى جزأين) .

(١٣) نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين :

(١٤) الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال

(١٥) لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكرى .

(١٦) الإحاطة فى أخبار غرناطة (تحقيق)

(١٧) تراجم إسلامية ، شرقية وأندلسية.

(١٨) مأساة ما يرلنج ، بالعربية والإنجليزية .

(١٩) المذاهب الاجتماعية الحديثة .

(٢٠) المآسى والصور الغوامض .

ولئن تكن هذه الكتب تتخالف موضوعا وتتعدد مذهبا — إنها لتصدر عن نبع واحد وتشقق من أصل جامع ، هو الإيمان بالقومية العربية والجامعة الإسلامية ، ثم بالحقيقة الخالصة من غواشى الغموض وخفايا الأسرار . وهو لذلك يجاهد فى كتبه ليبوئ العرب والمسلمين مكانهم الحق من التاريخ لا بالعصبية والافتعال ، ولكن بالدرس النزيه ، والرأى الحصيف ، والمنطق القويم ثم هو موكل بالحقيقة لا يألوها طلبا . ولا يبخسها جلاء وكشفا ، أينما كانت ، ومهما أحيط بها . وأعد لطمس معالمها من دعوة الدعاة ، وكيد الكائدين ، وتدبير المتآمرين .

ولم يكن يجشم قراءه الترقب والتلبث ريثما يخرج لهم كتبه . كتابا كتابا ، فقد يطول بهم الترقب ، ويثقل عليهم التلبث ، لذلك كان يغاديهم غير مخلفهم ، ولا متراخ عنهم ببحوث ومقالات جادة ممتعة يطلع عليهم بها فى السياسة الأسبوعية ، ومجلتى الرسالة والثقافة ، فكان من ذلك ثروة فكرية وأدبية قيمة ، نرجو مع السيد الاستاذ أن يتاح له نشرها مصنفة مرتبة فى مجموعات إن شاء الله .

هذا إلى المؤتمرات والندوات التى دعى إليها ، وشارك فيها ، لا فى مصر وحدها ، ولا فى البلاد العربية معها ، ولكن فى البلاد الأجنبية أيضا ، ثم إلى المحاضرات الأندلسية التى ألقاها فى الجامعات العربية وغير العربية . فيض غزيز من النشاط العلمى الرفيع لا تحده حدود ، ولا يعتريه توقف ولا فتور .

فلم يكن عجيبا أن تجاوز شهرته حدود الوطن العربي فى أطرافه المتباعدة وأن يقدره المستعربون حق قدره ، ولاسيما فى ألمانيا ، فجعلت مجلة در اسلام التى تصدر عن معهد اللغات الشرقية ترجمته مع تراجم زعماء الأدب المعاصر فى المجموعة الإنجليزية التى أصدرتها عنهم سنة ١٩٣٢ وأن يتناوله بروكلمان مع من تناولهم من أعلام العصر فى تاريخ الأدب العربي فى الطبعة الجديدة من كتابه، وأن يصفه فى الملحق الثانى منه بأنه « من الصحفيين الرواد فى العصر الحاضر ».

وللأستاذ عنان فيما يكتب أسلوب متميز يأنس القراء به ، ويقبلون عليه ، مهما اختلفت حظوظهم من الثقافة ، وأياما كانت ألوانهم من المعرفة : فالجمهرة لقرب متناوله ، ووضوح محجته ، وانبساط مادته ، والخاصة لصفاء معدنه ، وإحكام نسجه ، وصدق بيانه ، وبراءته من التكلف والاعتساف . ولايزال قارئه يتنسم صفحات طيبة من الأدب والفن فى كثير من مواقفه .

هذا هو محمد عنان فى أوج مجده ، حين أصبح : كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء توتى أكلها كل حين بإذن ربها كما قال الله تعالى فى الكلمة الطيبة . أما محمد عنان فى منبته ، وتدرج نموه وتقلب الأحوال به فنمط من أنماط الجد والدأب ، لايكف عن معاملة الحياة أخذا منها ، وإعطاء لها وتأثرا بها وتأثيرا فيها .

وقد كان مولده سنة ١٨٩٨ ، بقرية بشلا ، من أعمال ميت غمر — مديرية الدقهلية ، من أسرة عريقة الحسب ، من فروع السادة العنانية ، الذين ترجع نسبتهم إلى قرون طويلة من تاريخ مصر الإسلامية وكان منهم على مر العصور علماء وفقهاء ذكر بعضهم فى كتب الطبقات والتواريخ المصرية .

وتلقى دروسه فى كتاب القرية ، حيث حفظ أجزاء من القرآن الكريم ، ثم انتقلت الأسرة إلى القاهرة ، فتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة العقادين ودروسه الثانوية فى المدرسة الخديوية ثم درس القانون فى مدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩١٨ ، فآثر الاشتغال بالمحاماة على مناصب الإدارة والنيابة العمومية ، مع أنه دعى إليها غير مرة ، كأنما كانت الأقدار تدخره لعمل أبقى له وأجدى عليه وعلى الناس .

وكان منذ صباه يأنس من نفسه ميلا إلى الكتابة والترجمة ، فتعلم الألمانية إلى جانب الأنجليزية والفرنسية ، ليكون أكمل أداة، وأوسع الترجمة مجالا ، ونازعته نفسه أن يستجيب لميله ، فجعل يكتب المقالات لبعض الصحف ، فلقيت من القائمين بأمرها قبولا ، ومهدت له السبيل إلى العمل فيها مع جمع من أكابر أدباء العصر ،

، شيوخ الصحفيين فيه فلمع اسمه، واتسعت شهرته :

وقد مر زمان كانت فيه الكثرة الغالبة من كتاب الصحف قسمة بين الأحزاب يدعون لها، ويذودون عنها لكن كاتبنا المرموق أعرض عن هذا ، إيثاراً للحرية والانطلاق ووقف قلمه على السياسة الخارجية والشئون الدولية .

ومازالت الصحافة والبحوث التاريخية والأدبية تجذبه إليها حتى استأثرت به ، فاضطر أن يتخلى عن المحاماة ، أو بالحرى أن ينصرف عن نوع منها إلى نوع ، انصرف عن قضايا الحياة الماثلة إلى قضايا الحياة الخالية ، أو عن قضايا الناس وحدانا إلى قضاياهم جماعات وأمما لكن ليقضى فيها ، لاليحامى عنها ، ولهذا لم يتخل عن فقه الشرع والقانون فى المحاماة الجديدة فهو يورد حكمهما فى كثير من القضايا ولايستغنى عن حكمهما بحكم التاريخ وحده .

وعندى أن المحاماة والصحافة قد مكنتا له فى الكتابة، فارتاضت له ، وألقت مقاليدها إليه : المحاماة بالمرافعة المقولة، والمذكرات المحررة ، والصحافة بمواصلة المعالجة وطول الممارسة فتيسر له بذلك كله أن يعقب هذه الثروة الفكرية الكبيرة المتعددة الأنواع ، وماكان ليعقب مثلها فى مثل زمانها لولامطاوعة اللغة وانثيالها إليه كلما أراد .

ثم إنه قبيل الحرب العالمية الثانية قبل العمل فى إدارة المطبوعات ، ولبث فيها حتى صار وكيلا لها، ثم نقل إلى وزارة المعارف مراقبا للثقافة العامة ، وقضى فيها خمسة عشر عاما ، استقال بعدها نادما على فعلته تلك، ساخطا على بيئة الوظيفة الحكومية ، ناعيا على أخلاقيات العمل فيها . وكان يرى أنه إذ قبلها قد ارتكب خطأ جسيما ، لكن كان يعزيه عنه أن الوظيفة لم تشغله عن الكتابة فى الأدب والتاريخ ، ولاحالت دون سفره إلى أوربا لمواصلة بحوثه ، فى المكتبات العالمية .

ثم نظر بعد الاستقالة ، فإذا الظروف والملابسات غير مهيأة، لاللعودة إلى المحاماة ولا إلى الصحافة ، فعكف على بحوثه ودراساته ، لايبغى بها بدلا ، ولاعنها حولا .

واليوم يستقبل عملا جديدا فى بيئة جديدة ، لكنه ليس غريبا عنها ، ولادخيلا فيها ، فما أصحاب أمرها إلارفقة متكاملة من شيوخ العصر ، وأعلام الفكر فيه، يأوون إلى محرابهم هذا حيث العمل الصامت، والجهاد الدائب ، لتيسير أسباب العربية وإثراء مادتها وإحياء تراثها والتمكين لها ، لتكون فى يومها الحاضر ، وغدها القابل ، كما كانت فى أمسها الدابر لغة الدين والدنيا معا .

فأنت إذا منهم ، وعلى شاكلتهم — فهلم إليهم ، فهم يرتقبون مجالستك بينهم وعملك معهم ، وسيلقون منك أصدق العون ، وأحمد المشاركة ، إن شاء الله تعالى

٦–٤–١٩٧٦

كلمة الأستاذ محمد عبد الله عنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية

زملائي العلماء الاجلاء

سيداتي وسادتي ،

لم يكن يدور بخلدى أن أحظى بشرف الانضمام إليكم ، والمثول بين أيديكم فى هذا الحفل المؤثر ، وبهذه الطريقة المذهلة ، التى شعرت حين أنهى إلى خبرها ، وأنا بعيد عن القاهرة ، أنها لم تكن سوى إحدى هذه المفاجآت السعيدة القليلة ، يهيؤها القدر دون أية مقدمة . فالواقع أنى لم أرشح نفسى لانتخابات المجمع الموقر ، ولا أعرف ماذا حدث فى تلك الدورة التى تم انتخابى فيها . وما من شك أن الفضل فى كل شيء يرجع إلى هؤلاء اللفيف من الزملاء والأصدقاء الأوفياء الذين رأونى جديرا بحسن تقديرهم فإليهم أقدم أصدق الشكر والعرفان ، راجيا من الله التوفيق فى تحقيق ثقتهم وجميل ظنهم .

وإنى أنتهز هذه الفرصة المباركة لأوجه أخص تحياتى وأصدق تمنياتى لسائر الزملاء الذين أسعدنى الحظ بالانتماء إلى جماعتهم ، وأصبحت بعناية الله واحدا منهم ، وأدعو الله أن يوفقنا جميعا إلى خدمة لغتنا العربية العريقة ، وإنماء ثرواتها اللغوية الزاخرة بالابتكار والاشتقاق والتعريب .

ولقد كان هذا الشرف بالانتماء إلى مجمعكم مقرونا بشرف آخر ، هو أنى قد حللت مكان الزميل الراحل ، الفقيه العظيم ، والعلامة الاقتصادى الجليل ، المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، طيب الله ثراه . وإنه لمن شديد الأسف أنى لم أحظ بشرف معرفته الشخصية وإن كنت كآلاف المواطنين ، قد تتبعت أعماله وجهوده الموفقة فى التدريس بكلية الحقوق . ثم فى خدمة الاقتصاد المصرى فى أخطر ظروفه ، وعلى الصعيد الأعلى . ولقد كنت أود من صميم القلب أن تتاح لى فرصة أوسع وشمل لاستعراض هذه الثروات الفقهية والاقتصادية العظيمة ، التى فتح الله على الفقيد بإحرازها ، والتى أنفقها فى خدمة وطنه ومواطنيه . ولكنى أرانى مضطرا مع الأسف أن أكتفى فى ذلك بترداد ماسبق ان أضفاه عليه صديقه وزميله فى الدراسة ، الدكتور محمد مصطفى القللى يوم تقديمه إلى المجمع ، من شرح واف لرفيع خلاله ، وزاخر علمه وكفاياته الفقهية والاقتصادية ، وماأحرزه فى كلا الميدانين من رفيع الدرجات

وإنه لتؤنسنى فى ذلك واقعة ، كانت أيضا من تهيئة القدر بالنسبة لى . وهو أنه كما يشرفنى أن أحل اليوم مكان الزميل العظيم الراحل ، فإنه مما يؤنسنى

ويشرفنى معا، أننا قد درسنا ، وتخرجنا
من معهد واحد ، هو مدرسة الحقوق القديمة
تفصلنا فى التخرج بضعة أعوام ، وأننا
قد درسنا القانون والشريعة ، على البعض
من ذلك اللفيف من الأساتذة الأعلام
من المصريين والأجانب ، الذين كان يزدان
بهم ، ويفخر بعبقريتهم ذلك المعهد القديم
، إن هذا الاشتراك فى تلقى تراث ذلك
الجيل اللامع من فقهاء القانون ، بينى
وبين زميلى الراحل ، ليبعث إلى شعورا
من الفخر والاعتزاز ، وإن كان
هو قد جاز فى دراسته إلى مراحل
التخصص العليا، فى دراسة القانون والاقتصاد
وهى مراحل لم يكن لى فى ظروف هذا
العصر حظ الجواز إليها ، وقد ألقت
بى هذه الظروف إلى ميادين أخرى .

والآن فإنى سوف أحاول ، أن أعرض
عليكم بعض لمحات من عبقرية تلك الشخصية
المتعددة الجوانب والكفايات ، شخصية
المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى .

إن ما كان يتميز به الزميل الراحل من
التفوق والامتياز فى فرعين من التخصص
العالى ، وهما القانون بمختلف فروعه
من الرومانى والمدنى والجنائى ، والاقتصاد
السياسى ، مما يندر أن يجتمع لعالم واحد .
ولقد بدأ حياته العلمية بمزاولة الجانب الفقهى
من كفاياته ، وكان فقيها لامعا خلال
تدريسه القانون بكلية الحقوق ، وقد تخرج
على يديه فيها أجيال من طلاب القانون،
بيد أنه بالرغم من أن القانون
والاقتصاد علمان متقاربان فى كثير من
المبادئ والأصول ، فإنه يبدو أن الفقيد
كان فى مراحل حياته اللاحقة ، يميل
إلى الميدان الاقتصادى ، بأكثر من الفقه
القانونى ، وإن كفاياته العلمية والعملية
كانت أكثر ظهورا فى هذا الميدان
الدقيق الزاخر بالقضايا والمشكلات .
يبدو ذلك بوضوح فيما تولاه من المناصب
العليا ، التى تقوم قبل كل شئ على البراعة
فى الشئون والكفايات الاقتصادية ، وما بذله
لمعالجة العديد من المشكلات الاقتصادية
التى واجهتها البلاد فى العصر الأخير .

ولقد كان من يمن الطالع أن كفايات
الدكتور الرفاعى ، الاقتصادية العالية ،
كانت تؤهله لأن يخدم اقتصاديات وطنه
فى أى عهد، وفى ظل أى نظام ، وخلال أية
ظروف ، لا يحتاج فى ذلك إلى أية مداراة
أو مداجاة ، ولا يخشى فى ذلك أية مصادمات
أو اضطهاد . لقد كانت خدماته عملية إنقاذ
تطلب وتستمد فى سائر الظروف والأحوال،
ومن ثم فقد استطاع فى هذه الظروف
الاقتصادية العصيبة التى تجوزها بلادنا ،
أن يلقى بسائر كفاياته الاقتصادية لخدمة
وطنه حر الرأى ، طليق المناحى ، مستحقا
للشكر من سائر الجهات .

وإن إلقاء نظرة فقط ، على مختلف
المناصب الاقتصادية التى تولاها الفقيد ،
تؤيد هذه الحقيقة : "مدير الشئون الاقتصادية

بجامعة الدول العربية. وكيل وزارة المالية: رئيس مجلس ادارة البنك العقارى . نائب محافظ البنك الاهلى ، ثم محافظ البنك المركزى عند إنشائه .

على أن ماتصدى الفقيد لدراسته ومعالجته من المشكلات الاقتصادية المحلية والعلمية كان فى الواقع ألمع مافى أعماله وجهوده ، وقد لقيت فيه مصر الرائد الحقيقى الذى كانت فى أشد الحاجة إلى كفاياته ، فقد واجهت مصر يومئذ عدة من القضايا والمشاكل الاقتصاديه ، منها قضية الدين العام وقضية الأرصدة الاسترلينية التى تكدست لمصر ضد إنجلترا ، وحقوق مصر فى التعويضات ضد ألمانيا الهتلرية المهزومة فى الحرب العالمية الثانية ، ثم نظام النقد وغيرها من قضايا الوقت ومشكلاته . ولقد تصدى الفقيد لدراسة هذه المشكلات كلها ، وأبدى آراء فى معالجتها وحلها ، فى سلسلة من البحوث والدراسات ، التى ألقت كثيرا من الضوء عليها وأبرزت حقوق مصر ومصالحها فيها . وإلى جانب ذلك فقد عمل الفقيد لحل مشكلة تحرير الجنيه المصرى واستقلاله عن الجنيه الاسترلينى ، ووضع فى ذلك الاسس الفنية والتشريعية التى تحقق هذا التحرير وهذا الاستقلال .

وثمة ميدان آخر من الميادين الاقتصادية التى لمع الفقيد فى معالجتها ، وهو الميدان الضريبى ولقد بدأ الفقيد محاولته فى هذا الميدان فى وقت مبكر ، فكتب رسالته فى الدكتوراه عن « حركة إصلاح الضرائب المباشرة فى مصر » ثم وضع بعد ذلك كتابه عن « نظام الضرائب المباشرة » الذى صدر فى سنة ١٩٤٢ ، وفيه يعالج هذا الموضوع فى دراسة مقارنة ، وتحدث عن عن الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وعن فكرة العدالة فى الضريبة ، وعن نظرية الدخل ومعناها ، وتطورها فى مختلف البلاد . ثم يقوم بعد ذلك بدراسة مقارنة عن الأنظمة المصرية فى ذلك ، والأنظمة المماثلة فى مختلف البلاد الأجنبية ، وعن الضرائب المباشرة القديمة فى مصر ، ونظائرها من الضرائب الجديدة ، وقد فتح هذا الكتاب أبوابا جديدة للإصلاح الضريبى والفقه فى دوائر القضاء .

وأهم مؤلفات الفقيد الاقتصادية هو بلاريب كتابه الجامع « أصول الاقتصاد السياسى » الذى وضعه بالاشتراك مع زميله الدكتور عبد المنعم الطناملى ، وصدر بين سنتى ١٩٣٦ ، و١٩٣٧ فى مجلدين كبيرين ، ثم أعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ .

وهو مجهود علمى بارز ، يعالج النظريات الأساسية لهذا العلم الجليل بأسلوب علمى محدث على نمط المؤلفات الأوربية ، ويمهد لشرحها بمقدمة طويلة.

ثم يتناول نظرية الإنتاج وتنظيمها ومظاهرها الحديثة ، ونظرية التناول ، ثم الائتمان والبنوك ثم يتحدث ، عن الأزمات الاقتصادية وغير ذلك فى مسائل الاقتصاد ومشكلاته

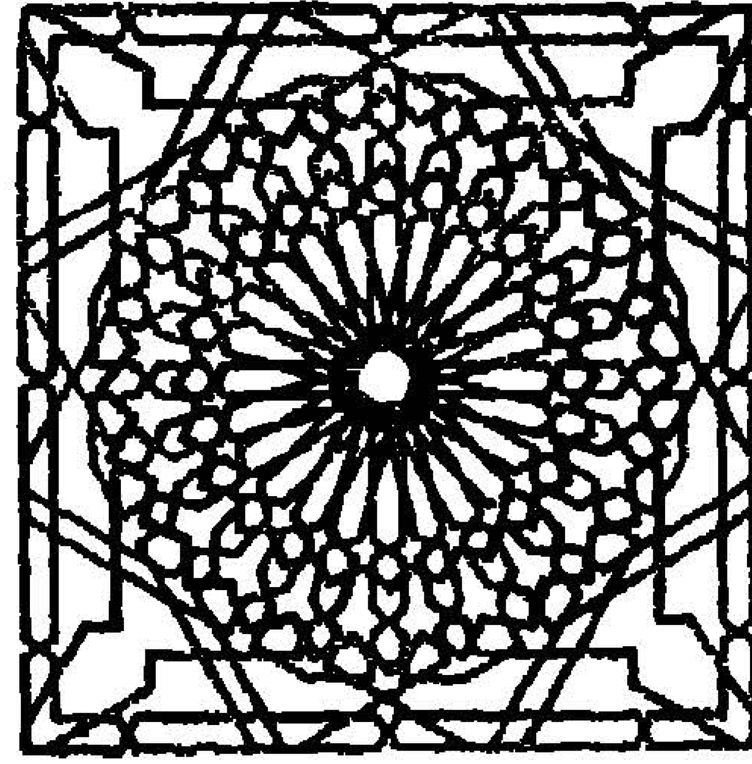
ولقد كان هذا الكتاب ذخراً نفسياً للمكتبة العربية التى تحتاج أشد الاحتياج إلى مثل هذا الإنتاج العلمى المستنير ، الذى يضفى ، فوق ثرواته العلمية على اللغة ثروات نفيسة من الاصطلاحات العلمية والاقتصادية ؟

إن ما ألقيته عليكم من مناقب العلامة العلامة الراحل ، لم يكن حسبا بينت فى فاتحة هذه الكلمة سوى لمحات استعرتها من العرض البديع الشامل ، الذى قدمه عنه زميله الوفى الأستاذ الجليل الدكتور القللى وإنى لمدين له بهذا الفضل . كما أنى سعيد بأن أتلو عليكم هذه الذكريات العطرة عن الفقيد العظيم والزميل الكريم ، الذى اتشرف اليوم بالحلول مكانه فى مجمعكم الموقر جزاه الله خير الجزاء ، بما قدم لوطنه وجيله من جليل الخدمات وأضفى عليه فيض رحمته ورضوانه ، هذا ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأعلن أنى سوف أكرس جهودى لخدمة اللغة العربية فى ميدان لم يحظ حتى اليوم بما يجب له من العناية والتخصص ، هو ميدان الدراسات الأندلسية ولاسيما ماتعلق منها بالاصطلاحات الجغرافية والتاريخية . إن تراث إسبانيا المسلمة يضم من ذلك ثروات عظمية ، وإنه لما يؤسف له أن تكون هذه الثروات بعيدة عن متناول الآداب العربية والصحافة العربية فى عصرنا ، وأن مانراه اليوم من ضروب الخطأ والتحريف فى هذا الميدان فى الآداب والصحافة ، فى مصر وسائر البلاد العربية ، يحملنا هذا المجمع الموقر على أن نبذل مااستطعنا من الجهود لتدارك هذا النقص ، والعمل على إحياء هذا التراث . إن الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية لها أصول عربية قديمة ومستقرة ، وقد حرف الإسبان الكثير منها ، واستبدلوها بأعلام إسبانية يصعب التعرف على الكثير منها . وقد لاحظت منذ بدأت بحوثى الأندلسية منذ أكثر من ثلاثين عاما أن الآداب والصحافة فى مصر ، وسائر البلاد العربية الأخرى ، تجرى باستمرار على تحريف الأعلام الأندلسية بصورة مؤسفة ، حتى بالنسبة لأشهر هذه الاعلام ؛ ويكفى أن نذكر هنا كلمات : البرانس وصقليا ، ومالاجا ، وتوليدو ، والهامبرا ، التى نقرأها كل يوم فى صحفنا ومجلاتنا ، وهى تسميات خاطئة ومؤسفة لجبال البورتات (البرنية) واشبيلية ، ومالقة ، ومالقة ، وطليطلة والحمراء .. وفى جانب ذلك توجد الأعلام التاريخية وهذه أيضا تحتاج إلى تصحيحات عديدة : ومن ذلك ديوان التحقيق أو محاكم التحقيق التى توصف خطأ فى سائر الآداب العربية ، بمحاكم التفتيش L'Inquisition وشانجو Sancho وغرسية Garcia وبطرو Pedro وخايمى Jaime وبنوفسى Banu Casi والبشكنس Vascones والموريسكين Les Morisscos وغيرها من الأعلام التاريخية الأندلسية ترسم كلها بصورة خاطئة.

ولقد حملنى هذا التيار من الأخطاء فى رسم الأعلام الأندلسية الجغرافية والتاريخية على أن أضع لها فهرسا موجزا ترد فيه إلى أصولها الأسبانية . مسترشدا فى ذلك بما بذلته فى بحوثى الأندلسية من تحقيق مستفيض لهذه المصطلحات ، وماوضعته مناطق الأندلس من خرائط تفصيلية .

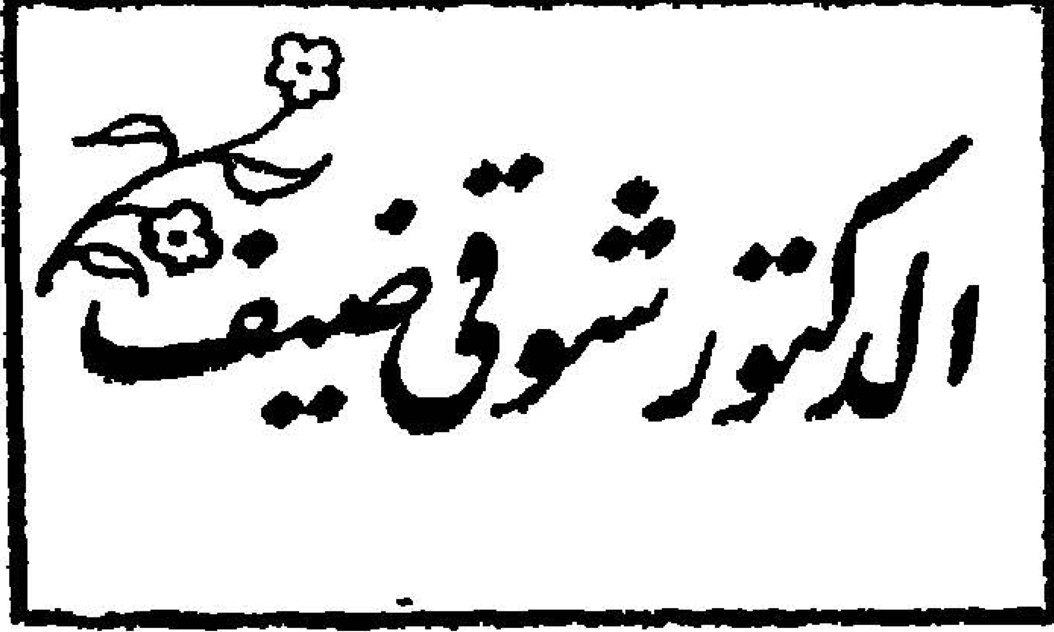
وإنى لأرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع بداية فى إثارة الاهتمام بتراث إسبانيا المسلمة الجغرافى والتاريخى وعلينا نحن فى هذ المجمع أن نعمل على تغذية هذا الاهتمام وإمداده . وإنه لتراث عزيز علينا وعلى العالمين العربى والاسلامى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



كلمة الأستاذ عبد السلام محمد هارون

فى استقبال الأستاذ:



السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى وسادتى

صنعه على يده ، ورعاه رعاية الدين والخلق والعلم ، وصانه كما يصون الصانع تحفه وهو ينظر إليها ، وإلى خطوطها ورسومها ، تتفتح تفتح البراعم غب القطر والندى ، شيخ من شيوخ العلم فى ذلك الزمان الخصيب الجميل ، يزينه الوقار وتحفه التقوى . إنه المغفور له الشيخ عبد السلام ضيف ، والد زميلنا ، الذى كان لى اليوم شرف استقباله وتقديمه إلى أسرة المجمع الخالد . وماسماه والده بهذا الاسم الذى اختاره له ، إلا إعجابا منه بأمير الشعراء أحمد شوقى وتيمناً برفيع مكانته وجليل قدره . ولعله من غير المألوف فى تقديم الزملاء هنا أن يقدم التعريف بآبائهم ، ولكن الوفاء والاعتراف بالفضل الذى يضفيه الدكتور شوقى ضيف على شيخه الوالد كلما سنحت له سانحة أو بدرت بادرة ، وهما الأمارة الصادقة على أصالة الخلق العلمى الذى يعترف بالفضل لذويه دون ماجحد أو ستر : إن هذا الوفاء الملموس هو الذى دفعنى أن أنوه بصاحب الفضل الأول فى صنع هذه العبقرية الخالدة .

إنهم لكثيرون هؤلاء الذين يقدرون شوقى ضيف حق قدره ، ولكن قلة ضئيلة تعرف اسمه معرفة قد تطغى على معرفة حقيقته العلمية ذات الأثر العميق فى جيلنا الحاضر ، وبالتالى فى الأجيال المستقبلة .

ولقد عرفته وعاصرته فى عهود الشباب منذ أكثر من ثلاثين سنة ، لم تنقطع صلتى به صديقا وفيا وزميلا عالما ممتازا . لم تلقنى منه نبوة أو جفوة قد يلقاها الخلان بعضهم من بعض ، لأن كرم الخلق وهو أساس صفة العالم الحق ، والحياء الجميل الذى هو سمة الرجل الواثق ، قد أسبغا عليه اطراد إحسان العشرة ودماثة الطبع مع من يعرف ومن لايعرف .

لذلك لايعجب المرء حينما يجد الدكتور شوقى ضيف ، يظفر فى الجولة الأولى من جولات ترشيحه للمجمع واختياره ، ظفراً مؤزرا من عارفيه وذوى الصلة العلمية والانسانية به ، فيحظى به المجمع بعد إبطاء الدلو وتطويل الرشاء .

فى قرية من قرى دمياط ذات الشهرة العريضة بالعلماء والنبغاء ، يولد الزميل أحمد شوقى ، فى السنة العاشرة من القرن العشرين ، فلا يجد والده الشيخ العالم بدأ من أن يحفظ هذا الوليد كتاب الله ، فهو يسلمه إلى كتاب القرية ، إلى الفقيه والعريف ، يدفعه أحدهما إلى الآخر ، حتى إذا أتم حفظ القرآن وتجويده ، سنحت له الفرصة للالتحاق بالمعهد الدينى بدمياط ، لينهل من معين علوم الدين واللغة ، فى سن مبكرة حقاً هى سن الحادية عشرة ...... ويتم الدراسة فى هذا المعهد حتى يحصل على الشهادة الأولية ، فيتيح ذلك له فرصة ثانية أن ينقل إلى المعهد الثانوى بالزقازيق ، فيقضى فيه سنتين يفكر فى أثنائهما فى الالتحاق بدار العلوم . فيدخل مسابقة الدخول فى تجهيزية دار العلوم — وكانت مسابقة عسيرة — ليكون من بين المقبولين بها . وينال من بعد شهادة إتمام الدراسة بها التى ، كانت حينذاك تدعى « البكالوريا » .

وكأنما أراد أن يعل ّ وينهل من جميع الموارد العلمية المتاحة فى ذلك الوقت ، فتختاره جامعة القاهرة فيمن اختارت من خريجى تجهيزية دار العلوم ليلتحق بقسم اللغة العربية فى كليه الآداب فيتم الدراسة فيها سنة ١٩٣٥ ويكون الأول من بين الناجحين .

وهنا تظهر أول صلة له بمجمع اللغة العربية ، إذ يعين فى تلك السنة محررا فيه للعمل فى الإعداد للمعجم الوسيط .

وحين أخذت كلية الآداب بنظام المعيدين واختيارهم من اوائل خريجها وذلك فى سنة ١٩٣٦ عين الزميل الكريم معيدا بقسم اللغة العربية ، فيدفعه اجتهاده وعنايته بالتحصيل أن يظفر بالماجستير مع مرتبة الشرف سنة ٣٩ و بالدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٤٣ ، وبذلك تنقل فى الوظائف العلمية فى جامعة القاهرة من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ لكرسى آداب اللغة العربية إلى رئيس لقسم اللغة العربية وآدابها . ثم تسعى إليه جامعة الكويت سنة ١٩٧٠ ليكون من بين أساتذتها الأعلام كما سعت إليه جامعات أخرى ليكون بها أستاذاً زائرا .

والأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، أو أحمد شوقى عبد السلام ضيف : أزهرى درعمى جامعى . فهو بذلك قد حصل على معين لاينضب من الثقافة العربية الاسلامية ، فهو أديب نحوى لغوى مؤرخ ، مشارك فى التفسير وعلوم القرآن والقراءات .

وله فى تلك الفنون مؤلفات عدة . فمن تآليفه فى الدراسات الأدبية :

١ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى :

٢ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى

وفى هذين الكتابين يتناول تصوير المذاهب الأدبية ومدارسها فى الشعر والنثر العربيين على مر العصور . وله :

٣ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى . وقد أثبت فيه أن شعراء العصر الأموى قد طوروا الشعر وجددوه قبل شعراء العصر العباسى ، خلافا لمن يزعم أن العصر الأموى ماهو إلا امتداد للعصر الجاهلى .

٤ ـ دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، تناول فيه طائفة من شعراء العالم العربى المعاصرين ، موضحا أبرز خصائصهم ومذاهبهم :

٥ ـ الأدب العربى المعاصر فى مصر . وقد أرخ فيه لهذا الأدب المميز وصور وحلل أبرز أعلامه فى الشعر والنثر . هذا بالإضافة إلى كتب تناولت ثلاثة من الشعراء :

١ ـ أحمد شوقى شاعر العصر الحديث . وقد أتحفنا فيه بدراسات لقصائد من شعر شوقى لم تنشر من قبل .

٢ ـ البارودى رائد الشعر الحديث . وهو دراسة تحليلية لشعره .

٣ ـ ابن زيدون : دراسة لشعره وخصائصه

ومجموعة ثالثة فى تاريخ الأدب العربى هى :

١ ـ العصر الجاهلى

٢ ـ العصر الاسلامى

٣ ـ العصر العباسى الأول

٤ ـ العصر العباسى الثانى .

أما الدراسات النقدية والبلاغية . فنجد له أربعة كتب بارزة :

١ ـ فى النقد الأدبى .

٢ ـ فصول فى الشعر ونقده .

٣ ـ البلاغة تطور وتاريخ :

٤ ـ البحث الأدبى .

وفى مجال الدراسات النحوية له من الكتب :

١ ـ المدارس النحوية . وهو دراسة دقيقة للمدارس النحوية وخصائصها وأعلامها المشهورين

٢ ـ تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء . مع مقدمة تحليلية لهذا الكتاب ومخطط جديد للنحو .

وفى الدراسات القرآنية نجد له « تفسير سورة الرحمن وسور قصار » .

وفى فنون الأدب العربى نأتى له خمسة من الكتب :

١ ـ الرثاء

٢ ـ المقامة

٣ ـ النقد

٤ ـ الترجمة الشخصية

٥ ـ الرحلات

ولم يغب عنه أن يسهم فى سلسلة اقرأ ، وله فيها :

١ ـ العقاد ٢ ـ البطولة فى الشعر العربى

كما أنه قد اضطلع بنصيب وافر من تحقيق التراث العربى يشهد له بالفضل وجميل المشاركة من ذلك :

١ ـ كتاب المغرب لابن سعيد القسم الاندلسى ،

٢ ـ كتاب الدرر فى المغازى والسير لابن عبد البر

٣ ـ كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد ، مع مقدمة دراسية واسعة .

إلى غير ذلك مما أخشى أن يطغى على الوقت المناسب لتقديم الزميل الكريم .

والجدير بالذكر أن هذه المؤلفات الجامعية التى يرجع تاريخ أقدمها إلى سنة ١٩٤٣ قد أعيد طبع معظمها طبعات تتفاوت بين الثامنة والثانية . ولنا أن نتصور عدد الطلاب الذين نهلوا من معين كتبه واستخدموها مراجع فى أكثر من رسالة للماجستير أو الدكتوراه . ولقد تخرج على يديه ممن أشرف على رسائلهم أو ناقشها عشرات الدارسين ممن يكادون يتجاوزون المائة عدا . وكثير منهم الآن يشغل أرفع المناصب العلمية فى جامعاتنا العربية .

وللزميل الكريم من المقالات والبحوث فى مجلاتنا الأدبية والعلمية الأصلية عدد لا يستهان به فى أحاديث الأدب والنقد واللغة.

الذى يسعدنى أن ابدئ فيه وأعيد ، هذا الخلق الممتاز الذى يسعى إليه المجمع فى اختيار رجاله .

يسعدنى أن أقدم أخى الصادق المتواضع ، أخى الثقة فيما يقول وما يفعل .

أهنئه وأهنئ به المجمع ، وأهنئ نفسى بما أتيح لى من فرصة تقديمه إلى زملائه عالما مخلصا مجاهدا ، لا يضن على العلم بوقت أو جهد ، ولا على الصديق بتضحية أو وفاء.

٧ــ٤ــ١٩٧٦

كلمة الدكتور شوقى ضيف

السيد الرئيس ، السادة اعضاء المجمع ، سيداتى ، سادتى :

أبدأ كلمتى بحمد الله تعالى على نعمائه ، وأحييكم أطيب تحية ، وأقدم شكرى شكرا مخلصا صادقا إلى سَدنة الفصحى وحُماتها الذين شرفونى بثقتهم الغالية ، وتفضلوا بضمى إلى مجمعهم اللغوى الموقر : معقل العربية وحارسها الامين ، لأُسْهم معهم فى خدمة الفصحى المجيدة ، لغة القرآن الكريم : دستور الإسلام . وانى لأرجو أن أكون دائما عند حسن ظنهم ، وأنى لى مهما دأبت وتكلفت واحتملت من عناء أن أحقق ظنّ الصفوة من أئمة العربية الأعلام ، ومع ذلك سأحاول بجهدى المقل المتواضع أن أبذل كل ما أستطيع من عون صادق فى نشاط المجمع غير مدخر وسعا ، سائلا الله الرشاد والسداد .

وشكرا جزيلا لأخى وصديقى الاستاذ العالم المحقق الثبت عبد السلام محمد هارون الذى تكرم بتقديمى الى رحابكم ، وقد أبى عليه نبل طبعه وكرم نفسه الا أن يشملنى بأخوته ومودته فى هذا الحفل ، وإلا أن يسبغ على ثناء ضافيا ليشد من أزرى وييسر بيانى . وأنا لا أستطيع أن أوفيه حقه من الشكر جزاه الله عنى الجزاء الأوفى .

وأكرر الشكر للمجمع الموقر ، إذ اختارنى لأشغل المكان الذى خلا بوفاة المغفور له الأستاذ العالم الجليل الشيخ عطية الصوالحى وكان ــ رحمه الله ــ لا يبارى فى العربية اذ كان يتقنها فهما وعلما وتحليلا ، وسيرته تحفل بالنشاط العلمى ، فقد ولد لسنة ١٨٩٣ فى قرية من قرى محافظة الشرقية ، وأخذ يختلف منذ نعومة أظفاره الى كتّاب ، استظهر فيه القرآن الكريم على غرار لداته من أبناء القرى فى الريف المصرى . ودفعه طموحه الى الالتحاق بالأزهر ، فانتظم فى سلك طلابه ، وأخذ يتلقى على شيوخ مختلفين دروس النحو والفقه وغيرهما من علوم العربية والشريعة الإسلامية ، حتى إذا اتسعت حصيلته من تلك العلوم تحول من الأزهر إلى دار العلوم أسوة ببعض رفاقه ، ومضى فيها ينهل من العربية وعلومها حتى استوعبها وتمثلها تمثلا تاما . وتخرج فى الدار سنة ١٩١٨ وظل يشتغل بالتدريس فى المدارس المختلفة نحو خمسة وعشرين عاما ، كان فيها علما مرموقا بين زملائه يرجعون اليه فى مشكلات اللغة والنحو ، فيجدون دائما عنده الحل المنشود .

وفى سنة ١٩٤٣ اختير الأستاذ الصوالحى عن جدارة مدرسا للنحو والصرف فى دار العلوم وفيها تألق نجمه بين زملائه ، ويصف ذلك الأستاذ الكبير عبد الحميد حسن فى

حفل استقباله بالمجمع ، مصورا محاوراته اللغوية الخصبة معه حينا ، وحينا زمالته له فى الدار ، قائلا : «كلما امتد بيننا النقاش والحوار رأيت منه علما غزيرا فيّاضا فى رفق وهوادة ، وتحريا فى التحقيق والتمحيص فى تثبت وأناه ، وإلماما واسع الآفاق بدقيق المسائل اللغوية فى غير زهو ولا مخيلة » . وتنقل فى وظائف الدار العلمية حتّى أصبح أستاذا ، وفى أثناء ذلك كان يشارك فى مناقشة الرسائل الجامعية مشاركة علمية نافذة. وأحيل الى التقاعد فى سنة ١٩٥٢ فرأت الدار أن لا يحرم الطلاب من علمه وفضله فانتدبته للتدريس. وفى سنة ١٩٦٦ اختاره المجمع عضوا عاملا فيه ، ففرغ للدراسة اللغوية الخالصة ، وفى ذلك يقول الأستاذ العالم على النجدى ناصف فى حفل تأبينه : «كان الأستاذ الصوالحى لغويا معرقا ومجمعيا أصيلا تمرس بمباحث اللغة غير آل جهدا ولا ضنين بوقت ، يبحث ويمحص ويستنبط ويستخلص ، مشاركا لزملائه فى العمل الموصول والجهد المبذول». وفى مجلة المجمع وبين قرارات اللجان التى اشترك فيها فيض من مباحثه ودراساته .

وآثار الأستاذ الصوالحى العلمية غزيرة ، وفى مقدمتها ما نهض به من إحياء بعض ذخائر التراث ، إذ رأى أن يعيد إلى الحياة عملين نفسين هما الجزء السابع من كتاب نثر الدرر للآبى : منصور بن الحسين وزير البويهيين ، وكتاب الأمالى لابن الحاجب أكبر نحاة مصر فى القرن السابع الهجرى . وكتاب نثر الدرر من كتب المختارات الأدبية الجامعة ؛ وكتاب الأمالى أمال نحوية متفرقة . وهذان العملان المحققان لما يريا النور ، وحرى أن ينشرا ليفيد منهما الأدباء وعلماء النحو والتصريف. ودفعت الأستاذ الصوالحى ملازمته الطويلة لابن الحاجب فى أماليه أن يهتدى بهديه فى التأليف والتصنيف ، وما كتاباه : الأضواء النحوية والصرفية ومذكرات فى التحليل اللغوى والنحوى اللذان لما ينشرا إلا أمال فى النحو واللغة ، أكبر الظن أنها على طريقة ابن الحاجب فى أماليه . وقد نشر صورا من تحليلاته اللغوية والنحوية فى بحوث له متلاحقة بمجلة المجمع ، وهى بحوث استقصى فيها استقصاء دقيقا آراء النحويين واللغويين القدماء نافذا دائما الى أحكام واستنباطات سديدة قيمة .

وللأستاذ الصوالحى بجانب ذلك ملحوظات لغوية ونحوية على معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى عنى به المجمع الموقر ، وقد استدركتها لجنة المعجم . وله رسالة فى لغة إقليم الشرقية وتقريبها من العربية ، حاول فيها أن يوضح الصلات بين عامية هذا الإقليم والفصحى ذاهبا إلى أننا إذا نحينا عن المفردات العامية مادخل عليها من تحريفات عادت إلى أوضاعها الفصيحة .

وكل ما قدمت يشهد بأن الأستاذ عطية الصوالحى كان لايزال ينفق بياض أيامه وسواد لياليه فى البحوث والتحقيقات اللغوية والنحوية ، يريد أن ينفع الباحثين نفعا متعدد الأنحاء ، ينفعهم بإحياء بعض النصوص الأدبية والنحوية وتقديمها لهم نقية مصفاة خالية من أدران الأخطاء والتصحيفات، وينفعهم بتحليلاته النحوية واللغوية واستدراكاته العلمية، وينفعهم فى تبين الصلات بين الفصحى والعامية . وكل هذه آثار علمية جديرة بكل ثناء وتقدير . تغمده الله برحمته ، وجزاه عما قدم للعربية بخير ما يجزى به عباده المخلصين العاملين .

الأساتذة الأجلاء اعضاء المجمع :

إن الأعمال العظيمة التى ينهض بها مجمعكم الموقر فى خدمة الفصحى والاتساع بطاقاتها لتعنو لها الوجوه فى مشارق العالم العربى ومغاربه ، بما أتحتم لها من مواكبة العصر وحاجات الحياة المتطورة فيه والوفاء بمصطلحات علومه وفنونه ، بحيث لم تعد العربية تكتفى بالأداء الأدبى وحده وتقصر عن الأداء العلمى ، بل أصبحت تضطلع بهما جميعا ، مثلها فى ذلك مثل اللغات العالمية الكبرى.

وللمجمع وراء أعماله اللغوية العظيمة دور كبير فى حياتنا الأدبية ، فإن عمله الدائب على رفع شأن الفصحى وإعلاء مكانتها والمحافظة عليها وحمايتها والوقوف من دونها أشاع فى كل ركن من أركان البلاد العربية شغفا شديدا بتحرى الأداء السليم فيها والتمسك بأصولها وتقاليدها ، مما جعل الكتاب والأدباء يحرصون على أن يكون تعبيرهم فيها صحيحا لا يشوبه لحن ولا آفة من آفات الضعف.

وهو أثر بعيد الغور للمجمع فى الحياة الأدبية المعاصرة ، أثر يزيد الفصحى رسوخا ، ويعدها لتظفر كل يوم من اللغات العامية بمواقع جديدة . والمواقع التى ظفرت بها الفصحى كثيرة ، وفى مقدمتها ساحات الفنون الأدبية ، فقد ظفرت من العاميات بساحة الشعر ، ولم تكد تبقى لها منه إلا ما يتصل بالفكاهة والدعابة . وظفرت منها بساحة المقالة والصحف اليومية ، واتسع تنوع المقالة الى أقصى حد بين سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأدبية ونقدية تحليلية . وكل تلك مواقع كسبتها الفصحى وكسبت معها تطورا واسعا فى اللغة والأداء والمضمون. أما القصة فكانت قديما بالعامية ، إلا ما كان من المقامات المسجوعة القصيرة أما الآن فإن القصة تكتب بالفصحى وبالعامية ، وتوشك الفصحى أن تكون لها الغلبة ، بل لها الغلبة فعلا ، لأنها اللغة القومية المشتركة بين العرب من الخليج الى المحيط .

ومن الحق أن فى الفصحى مرونة تعدها لهذا الظفر المستمر بالعاميات ، وهى مرونة أتاحت للأدباء أن يجروا فيها كثيرا من صور التبسيط والتيسير ، بحيث أصبحت قريبة قربا شديدا من نفوس الجماهير فهى تقرؤها

أو تستمع اليها ، وتفهمها فى غير مشقة ؛ بل لعلى لا أغلو اذا قلت إنها تتذوقها فى غير عناء ، يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نراها تنفر من الأعمال الأدبية المبتذلة المسفّة فى حين تقبل على قراءة الأعمال الأدبية التى تشتمل على بعض قيم البلاغة والجمال الأدبى

وليست المواقع التى تحدثت عنها فى الفنون الأدبية هى وحدها التى ظفرت بها الفصحى من اللغات العامية ، فإنها ظفرت منها بمواقع لها فى داخلها ، وذلك أن هذه اللغات تتطور فى عصرنا باقتراض كلمات وصيغ كثيرة من الفصحى ، بعضها تلوكه العامة ابتداء عن طريق الصحف وأدوات الإعلام الحديث وبعضها تُحلّه محل عبارات قديمة ، تؤثره عليها وكأن هناك شعورا روحيا يجذب العامة دائما إلى الفصحى واستعارة الكلمات والعبارات منها ودورانها فى ألسنتها كلما تهيأت الفرصة. ولو كان لدينا معاجم للعاميات فى أوائل هذا القرن ومعاجم لها الآن لعرفنا فى وضوح كيف تضيق الشقة اليوم تدريجا بينها وبين العربية

وموقع كبير ، بل مواقع كبيرة تكسبها الفصحى من اللغات العامية ، عن طريق نشر التعليم وتعميمه على اختلاف فروعه مما جعل قراء العربية يتكاثرون من الخليج إلى المحيط كثرة مفرطة ، بحيث أصبحت هناك جماهير غفيرة — يخطئها الحصر والعد — تقرأ يوميا ما تنتجه المطابع من الصحف والمجلات والكتب والدواوين ، ولم يعد من يقرءون صحيفة ذائعة من الصحف اليومية يُعَدّون الآن بالآلاف ، بل أصبحوا يعدون أحيانا بمئات الآلاف ، والكتب نفسها التى كانت تطبع بالمئات أصبحت تطبع الآن بالآلاف ، بل أحيانا بعشرات الآلاف . وهى مواقع كبيرة للفصحى تكسبها من العاميات .

وهذه المواقع للكثرة الغامرة من قراء العربية تتسع الآن إلى أبعد الحدود ، فقد أصبحت الناشئة فى كل الأقطار العربية تختلف إلى المدارس ، تتلقى من التعليم ما يؤكد أن الأمة ستصبح بعد حين بجميع شعوبها وأفرادها قارئة للفصحى وناطقة بها متحدثة . وحينئذ تمحى العاميات من الألسنة محوا ، وتحل محلها الفصحى فى كل مكان وعلى كل لسان .

وأنا فى ختام كلمتى أكرر الشكر للسادة أعضاء المجمع الموقر لما أتاحوا لى من شرف زمالتهم فى خدمة اللغة العربية ، وهى زمالة سأظل أعتز بها ما حييت . والسلام عليكم ورحمة الله .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٩ من ذى القعدة سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٧٥ م اقام المجمع حفل تأبين عضوه الراحل المرحوم الأستاذ محمد رفعت .

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ :



نلتقى اليوم لتأبين شيخ جليل من شيوخ المؤرخين المصريين المعاصرين ، ورائد كبير من رواد التربية والتعليم فى بلدنا . إنه مثل من رجالات الرعيل الأول الذين صعدوا السلم درجة درجة فى سبيل خدمة الوطن حتى بلغوا القمة ، وكان يرى أن هذه الخدمة ضريبة تجب أن تؤدى فى عناية وإخلاص وقد حظينا بزمالته وهو شيخ كبير ملىء حماسا ونشاطا فأعطى المجمع فى سخاء ، أعطاه فى بلحتى التاريخ الحديث وألفاظ الحضارة اللتين كان مقررا لهما ، وقد غذانا منهما بغذاء لاينقطع عاما بعد عام . ولم يقنع بهذا ، بل شاء أن يضم إليه نشاطا آخر ، فأمتعنا بدراسات تاريخية حاول أن يوضح فى ضوئها بعض آيات القصص القرآنى . جزاه الله خير الجزاء عما قدم للغته ووطنه ، وسيلقى الزميل الأستاذ على النجدى كلمة المجمع فيه

كلمة الأستاذ على النجدى ناصف :

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الرئيس ، السادة الزملاء ، أيها السادة يودع الناس كل يوم ، بل كل طرفة عين فقيدا عزيزا ، خلى مكانه ، ورحل عنهم إلى ربه ، فيشق عليهم فراقه، وتلتاع نفوسهم حزنا عليه ، ورحمة له ،ويحسون من حولهم نقصا كان هو تمامه ، وفراغا كان هو ملأه ، ويتداعى لمواساتهم والمشاركة فى مصابهم كل من تجمعهم به أو بعشيرته آصرة قرابة ،أو جامعة إلف ومودة . ويكون له بينهم ذكر يكبرون فيقدره ، ويعددون محامده .

وتمضى بهم الأيام، وتجرى من حولهم الأحداث على سننها المرسوم ، ووفق قدرها المقدور . ومع كل يوم يمضى ، وكل حادث ينقضى تهون لوعتهم شيئا ، ويغلب تصبرهم هونا حتى تنزل عليهم السكينة ، ويستشعروا برد الطمأنينية والسلوان ،فتغشى ذكرى فقيدهم غاشية من النسيان لايذكرونه معها إلا لماما، وللمناسبة تعرض حينا بعد حين .

وذلك فضل من الله ونعمة : أن ضن بالحياة أن تذهب ضياعا ، وبالنفوس أن تذهب حسرات فى أثر الراحلين إلى جوار الله . فالحياة لابد أن تمضى لوجهها حتى يتأذن الله بزوالها ويقضى فيها قضاءه الأخير . ذلك هو مآل السواد وصيور أمره فى هذه الحياة

وثمة صفوة متميزة ، وقلة منتخبة من الأعلام النابهين ، والعلماء المقدمين ، لاتخص الفجيعة فيهم ولا الحزن عليهم ذوى قرباهم والآخذين منهم بسبب موصول من مودة أو مشاركة فى شأن من شئون الحياة ، ولكنها تعم جموعا كثيرة وطوائف متعددة ،حتى لقد تشمل أمتهم جمعاء سواء القريب والبعيد، كأنما كان يعنيهم عبدة بن الطبيب إذ يقول :

وماكان قيس هلكه هلك واحد

ولكنه بنيان قوم تهدما!

ذلك لأنهم لايحيون لأنفسهم وأهليهم وكفى ، ولكن لقومهم أيضا ، لكل من هؤلاء وأولئك منهم نصيب . بل لعلهم أن يكونوا لخير قومهم أشد معاناة ، وأكبر جهادا . إنهم عدة قومهم فى مواجهة الأحداث وقادة مسيرتهم إلى حياة أطيب مستقرا ، وأعظم شأنا، وأمنع سلطانا، كل بما هو ميسر له وسابق فيه . وهم لذلك لايحيون فى هذه الدنيا حياة واحدة كسائر الناس ولكن حياتين اثنتين : هذه الحياة الذاهبة ، ثم حياة المجد التالد والذكر الباقى على مر

الأيام ، وتعاقب الأجيال . بل عسى أن يكون منهم من يلاقى فى الآخرين فوق مالاقى فى الأولين . من نباهة الذكر ؛ وجلالة القدر ، وعرفان المزية والفضل . ومهما يلقوا من ذلك أحياء وأمواتا فهم له أهل ، وهو لهم جزاء ومن الناس وفاء .

لقدجالت هذه الخواطر فى نفسى يوم نعى الناعى زميلنا الكبير ، العالم الحجة ، المؤرخ الثقة ، المغفور له الأستاذ محمد رفعت ، عليه رحمة من ربه ورضوان . وما كان لمحزون فارق منه زميلا محببا ، صاحبا ودودا أن تجيش نفسه أو يدور فى خلده إلا خواطر الموت يفرق الجمع ويورث الحزن ، والآمال الموتى من لاندثار والبقاء، على مقدار ما عملوا من صالح ، وأحسنوا من بلاء .

أيها السادة ، لقد ولد الفقيد الكريم بأسيوط أواخر العقد التاسع من القرن الماضى، أيام كان الأبناء بمضيعة من أمرهم ، لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا من رحمه الله . كان الآباء يرون لهم الرأى ، ويتولون عنهم الاختيار ، كانوا يأخذون بأيديهم إلى المستقبل الذى يريدونهم عليه ، ثم يدفعونهم إليه دفعا شاءوا أولم يشاءوا ، دون أن يعرفوا للموهبة قدرا ، أو يقيموا للرغبة وزنا ، فإن نجحوا فللآباء الفضل ، وإن تكن الأخرى فعلى الأبناء الوزر ، لاتقبل منهم معذرة ، ولاتنفعهم شفاعة الشافعين

وشاء الله — تعالت حكمته — أن يكون الفقيد بمفازة من قهر هذا السلطان ، فلم تكن مسيرته فى الدراسة منذ بدأت إلى أن انتهت عن طاعة لأمر ، أوخضوع لضرورة ، ولا كانت خبط عشواء ولا عفو مصادفة . فقد تولت أمره أولا فطرة سوية وهداية ربانية وتولى أمره آخرا نظر وتفكير ثم موازنة وترجيح .

ففى عهد الدراسة الثانوية انس من نفسه ميلا إلى التاريخ ، فأقبل عليه يستكثر من قراءته شغفا بأخباره ، وإعجابا بسير أبطاله ، هنا نتبين السر الأعظم من أسرار نبوغه فيه وتمكنه منه .

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فشتان ما بين الراغب المشوق ، والكاره المضطر ، ذاك يجد من أمره حلاوة ومتعة ، يزداد على الأيام كلفا به وجدا فيه ، ويغلب آخر الأمر أن يكون له فيه شأن مذكور ، ولا كذلك الآخر المكره المسوق .

ومضى الفقيد لطيته فى مدرسة المعلمين العليا ، على ما كان من شغف بالتاريخ وإقبال عليه ، لايصرفه عنه صارف ، ولايحول دونه حائل ، ودرس منه مادرس على شيوخ المؤرخين فى ذلك الزمان .

ولما أن سافر إلى إنجلترا مبعوثا إليها ليواصل دراسته هناك فى جامعة ليفربول —

لم يقبل على التاريخ الحديث عن غفلة من غافل ، أو مجازفة من مجازف ، ولكنه فكر وقدر ، ثم عزم وأقبل . ومن كلامه رحمه الله - فى حفل استقباله بالمجمع ، يصور حاله النفسية ، ومشاعره المتنازعة فى هذا الموقف ، لايدرى أى التاريخين يدرس ، وأيهما يدع ، قال :

« وقفت حائرا مترددا بين دراسة القديم والحديث . وكان كل منهما يشدنى إليه بزمام : القديم برابطة العاطفة ، والحديث بقوة الأمر الواقع . وقلت فى نفسى آن ذاك - مع الاعتذار لصديقى الدكتور أحمد بدوى - إننا إذا كنا لم نستكمل بعد دراسة مافوق سطح الأرض ، ومايدور على أديمها من أخبار الدول ، وأحداث الناس وأعمالهم - فعلام إذا اللجوء إلى باطن الأرض ، والتوغل فى مسارب الظلمات وأودية الحدس والمجهول ، وقضاء العمر كله فى فك الرموز وحل الطلاسم ؟ والحق أقول : إنى أشفقت على نفسى من ذلك كله .

بل لم يفته - رحمة الله عليه كدأبه فى كل عمل جديد يقبل عليه - أن يذكر فى كلمته هذه أى لجان المجمع يختار العمل فيها إذا أذن له فى الاختيار ، فيقول :

« وسيكون قوام عملى بحكم تخصصى فى مجال التاريخ الحديث .. وإذا كان لى أن أختار لجنة ثانية أنضم إليها - فإنى أوثر - إذا تفضلتم بالموافقة - أن أكون بين أعضاء لجنة الحضارة ، أو بالأحرى ألفاظ الحضارة ، لأن التاريخ والحضارة صنوان لايفترقان ».

أيها السادة ، لقد تولى الفقيد بعد رجوعه من إنجلترا كل ما يمكن أن يتولاه معلم مثله من المناصب العلمية والإدارية : فكان مدرسا بالمدرسة التوفيقية ، فمحاضرا بمدرسة المعلمين العليا ، ثم أستاذا للتاريخ بقسم الصحافة ، وأستاذا بقسم الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، وتدرج كذلك فى مناصب التعليم الإدارية ، لم يفته منها منصب . كان ناظرا فى التعليم الثانوى أول عهد المصريين بالنظارة فيه ، ثم مضى صعدا حتى ولى وزارة المعارف يشرف على أعمالها ، ويصرف شئون التعليم عامة.

أيها السادة ، لم أحظ بلقاء الفقيد ، ولا سعدت بصحبته إلا فى دار المجمع . على أنى أخذت أعلم عنه ، وأقرأ له فى بعض المجلات منذ أكثر من ثلاثين عاما ، حين جعلت مناصب الإدارة تتجاذبه منصبا فى إثر منصب ، فالمعلمون وخاصة الذين لايعملون فى القاهرة يومئذ كانوا - كأمثالهم - يطيب لهم أن يعرفوا أصحاب الأمر فى الديوان من الأنباء التى تروى عنهم ، والآراء التى تعزى إليهم . فكان محمد رفعت ممن يذكرون باستقامة الإدارة ، ونزاهة

القصد ، والبصر بما يأخذ وما يدع . في جد وأمانة وإخلاص ؟

ولكنه – مع ذلك – لم يسلم في بعض مناصبه تلك من التعرض لتجربة قاسية ، غير أنه خرج منها ، أصلب عودا ، وأصفى جوهرا ، كدأب المؤمن المتماسك الشخصية ، حين يمتحن في نفسه بأمر عسير .

فقد حدثني ذات صباح قبل أن يحين ميعاد اللجنة – والحديث ذو شجون – أنه حين كان مديرا للتعليم الثانوي دعاه وزير المعارف إذ ذاك إلى مكتبه ليتدارسا بعض مشكلات هذا التعليم . ولم يكد يدور بينهما الحوار ويمضيان فيه حتى تبينا أنهما ليسا في القضية على رأي جميع ، بل لكل رأي يدافع عنه ، ويحتج له . ثم كان مما قاله الفقيد في الاحتجاج لرأيه : المنطق يقضي بكذا وكذا .

فبدا الاستياء في وجه الوزير ، كأنما عز عليه أن يذكر مثله بالمنطق ، فضلا عن أن يحاكم إليه ، ويحتج به عليه ، فقال منكرا : تقول المنطق ؟ قال : نعم . قال الوزير : أولا تعلم أني أكبر منطيق في هذا البلد ؟ قال الفقيد : بلى ، ولكن لي منه نصيبا . فكانت هذه هي الخاتمة ، وافترق الرجلان على ما كان بينهما من خلاف .

ولما أن عرضت قضية التعليم الثانوي على مجلس النواب إذ ذاك – قال الوزير عنها

فيما قال كلا ما لم يرق الفقيد ، ولا وقع منه موقع القبول . فلما كان الغد ، ومضى الوزير إلى مكتبه – كانت استقالة الفقيد في انتظاره هناك . مثل عال من أمثلة الرجولة والحفاظ على الكرامة ، واستمساك صاحب الرأي برأيه الذي يرتئيه ، ويعتقد أنه الحق والصواب ، غير مبال أن يضار فيه ، أو يؤخذ به .

وقررت مجانية التعليم حين كان مستشارا فنيا في وزارة المعارف ، وما يكون لقرار كهذا أن يصدر بالأمر المطاع ، أو الرأي الفطير ، لا تسبقه دراسة ، ولا تحكمه تثبت ولا تدبير ومن غير المستشار الفني إذا يمكن أن يندب للأمر كله ، وأن يكون إليه المرجع فيه ابتداء وانتهاء ؟

أيها السادة ، لم تحل المناصب الإدارية المتعددة التي تولاها الفقيد دون أن يؤلف الكتب ، ويكتب البحوث ، وأن يستكثر من هذه وتلك ويجيد فيهما جميعا . فقد ألف كتبا عامة وأخرى مدرسية .

فأما الكتب العامة فهي :

(١) كتاب التعاون الدولي والسلام العام .

(٢) كتاب التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط .

(٣) كتاب التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة .

(٤) كتاب يقظة مصر الحديثة ، وقد ألفه بالإنجليزية .

هذا عدا رسالته الجامعية عن تاريخ مصر الحديث فى عهد محمد على ، وقد أجيزت بدرجة الامتياز

وأما الكتب المدرسية فهى

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ؛

(٢) ومعالم تاريخ أوربا الحديث

(٣) والتربية الوطنية للمدارس الثانوية

(٤) وتاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ، ذلك إلى الأطلس التاريخى .

وله بحوث وآراء فى ثورة العرب سنة ١٩١٦ ، وثورة مصر سنة ١٩١٩ إلى سلسلة من الأحاديث فى الإذاعة ، بعنوان : «نافذة تطل على العالم» كان يتناول فيها أحداث الساعة بالتعريف والتعليق ، إلى مقالات نشرت فى بعض المجلات المصرية المشهورة وقد ظل – رحمه الله – إلى آخر يوم من حياته رئيسا لقسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بمعهد البحوث والدراسات العربية ويدل هذا الإنتاج بكثرته وتنوعه على رحابة الأفق ، وغزارة المادة وتدفق الحيوية .

ذلك أيها السادة هو محمد رفعت قبل أن ينتخب فى المجمع ، ولم يكن بعد انتخابه عضوا فيه أقل نشاطا ، ولا أوهن عزما منه فى غيره ، برغم السن العالية والشيخوخة البادية .

لقد كان – أحسن الله إليه – مقررا لكل من لجنتى ألفاظ الحضارة ، والتاريخ الحديث ، وقد أنجزت اللجنتان فى العام الماضى قدرا مباركا من الألفاظ والمصطلحات يبلغ نحو مائة لفظ ، ومائة مصطلح .

وكانت له فوق ذلك بحوث ممتعة ألقاها تباعا على مؤتمر المجمع فى دوراته عاما بعد عام ، وجعل لها عنوانا ثابتا هو «الإطار التاريخى لبعض آيات القرآن الكريم» وأشهد إنها لبحوث قرآنية تاريخية فريدة، لا أعلم أن أحدا من العلماء سبق إلى مثلها ، واستقام له أن يقول فيها بمثل ما قال عالمنا الجليل من البراعة والإحسان . إنها بحوث تتميز بالجد والطرافة ، وحسن التأتى وأصالة البحث ، واستقامة النهج ، وحسن العرض ، ورجاحة المنطق .

وهيهات أن يخلو وجه القول فيها على هذا النحو إلا لمؤرخ متمكن ، وعالم كبير قد رزق موهبة لغوية،وبصيرة ذهنية ليتيسر له فهم الآيات على وجهها ، ويتمكن من إدراك مراميها ، واطلاع غيبها ، واكتناه ماتيسر من لطائف الإشارات وقد رأيت الفقيد يحرص فى مستهل كل بحث منها أن يبين على العهد به منهجه فيه ومقصده به. وهاهو ذا يبدأ أحدها فى تواضع العالم واطمئنان الواثق .وعزوف المتحرج من تكلف القول فيما ليس من شأنه ، ولا ما هو فى شأن منه فلنستمع إليه :

« ماقصدت من هذه البحوث أن أستبيح لنفسى أن أتسنم مقاعد الأئمة

من العلماء المفسرين ، وأن أتناول بالتحليل والتفسير الديني واللغوى آيات من القرآن الكريم ،وإنما أردت أن ألق بصيصامن الضوء على الآيات التى تتصل بدراسة التاريخ السياسى العام » .

ولئن كان — أحسن الله إليه — يرى أن ماسيلقيه من الضوء على الآيات لا يعدو أن يكون بصيصا — لقد رأيته ضياء ساطعا وبيانا شافيا . وإذا كان قد وعد ألا يتناول الآيات بالتحليل والتفسير الديني واللغوى فقد رأيت بعض أحداث التاريخ حين يعرضها ويطبق أخبارها على ماجاء به التنزيل العزيز — رأيتها تستدرجه فى غير موضع إلى اللغة يستوحيها ويستعين بها ، وإلى مسائل من النحو يزجيها ويحتكم إليها فى بصر بها وتوفيق من الله فيها .

ورأيته — حين يتصل القول بالمعجزة — يصد صدودا حاسما عن الخوض فيها والاجتراء عليها ، وتكلف تفسيرها بما يدنيها من الممكن ، بل بما يوهم أنها ظاهرة من ظواهره كما يفعل بعض الباحثين ، ويرى خيرا من ذلك للمؤمن ، وأشبه بيقينه أن يعتقدها على مايدل عليه ظاهر الآيات . وتلك سنة من هدى السلف الصالح كان يأخذها فى كل ما يمتنع على العقل فهمه من أمور العقيدة أن يعتقده كما هو ، ويرد العلم بكنهه إلى العليم الخبير

ولم يكن — صنع الله له — يقول مايقول فى الآيات التى يدرسها ظنا أو رجما بالغيب ، بل كان يراجع فيما يراجع فيها أمهات كتب التفسير ، لا لينقل أقوالها على علاتها ، ولكن ليدرسها ، دراسة نقد وتمحيص فيأخذ ويدع ، يوافق ويخالف ، يلتمس العلة ، ويقيم الحجة ، فى منطق قويم وبيان مشرق ، ينبئ عن نضج الفكرة عنده ، وتمثل حقيقتها لذهنه أوضح ماتكون .

وكان فى نقده وخلافه سمحا رفيقا كل السماحة والرفق ، لا يجاوز ؛ جد النبى لما لا ينبغى للمفسر أن يعنى نفسه الخوض فيه ، إعراضا عن التزيد والاعتساف .

وما أحسب إلا أن الفقيد — نضر الله وجهه — أراد أن يجعل من هذه الدراسة قدوة صالحة ، ودعوة عاملة تهيب بالصالحين لها أن يدرسوا آيات الكتاب العزيز التى يرد فيها ذكر لبعض أحداث التاريخ دراسة معاصرة ، تفصل ما أجملت الآيات منها ، وتنفى ما عسى أن يكون عالقا بأنبائها من شوائب ، أو مقحما فيها من أساطير الأولين .

أيها السادة لقد أتاحت لى لجنة التاريخ الحديث أن أعرف الفقيد من قريب ، وأن أصحبه وأشترك معه فى أعمالها ، فآنست منه خلالا فاضلة ، ومواهب عالية ، لا تجتمع إلا لأصحاب الشأن والمنزلة .

لقد كان أليفا محببا ، عذب الروح ، فكه المحضر ، جم التواضع ، نقى السريرة ، رقيق المشاعر ، سمحا ، عطوفا ، ودودا.

وكان ألمعيا متوقد القريحة ، حاضر البديهة، ناقدا ذواقة ، لا تشتبه عليه الفروق بين المعانى المتقاربة . ولا يخفى عليه مواقع المفردات من الأساليب على ما يقتضيه التعبير الأصيل . وكان يتهلل بشرا ، ويطرب استحسانا للكلمة تهتدى إليها بعد لأى حين يجىء على ما يتطلب المقام من كمال المطابقة وحسن التعبير .

وكنا إذا احتوتنا المناقشة ، وذهب بنا الرأى إلى غير وجه فيها — لا نعدم أن أخذ بنا عن بديهة ، وفى غير تعمل إلى فكاهة مرحة ، أو طرفة شائقة ، نعود منها وقد تنسمنا نسمات طيبة من الروح والانتعاش . لذلك لم نكن نحس من الجلسات مللا ، أو نستشعر من وقتها طولا . وما أكثر ما كان تمضى بنا الوقت إلى أبعد من مداه ، ونحن عنه غافلون .

وكان ربما جهر بصوته فى المناقشة، فيحسب من لا يعرفه أنه ضجر أو حاد الطبع . وما به عند من يعرفه ضجر ولا حدة طبع ، ولكنها قوة الإيمان بالرأى ، وحماسة الذود عنه ، فى غير مكابرة ولا إصرار . فإذا وضح وجه الرأى ، وبدا مكان الحق هنا أو هناك تراءت فى وجهه أمارات الرضا والارتياح ، وعاد إلى العهد به من الوداعة والرقة والإيناس .

أيها السادة ، لقد كان الفقيد ذا شخصية جليلة القدر ، شامخة الذروة ، متعددة الجوانب وفيرة الخصب ، غزيرة الإنتاج . ويوم يكتب تاريخ نهضتنا الحاضرة فى الثقافة والتعليم — سيكون محمد رفعت — غير ظن — من معالمها الشاخصة ، ودعائمها الراسخة بما قدم لها من فيض علمه ، وواسع خبرته، وبما شارك به من جهد فى إدارة أعمالها وتوجيه مسيرتها .

ويومئذ يوفى حقه كاملا من القول والدرس جزاء وفاقا .

« أما هذه العجالة فقصارى ما يستطيع مثلى أن يقوله عنه ، وما أظن أن المقام أذن فى المزيد عليها . فلتكن هذه العجالة إذا علالة موقوتة ، نتلبث بها ، ونصبر عليها حتى يأتى اليوم الموعود .

أيها السادة ، أجمل الله عزاءكم عن الفقيد : وأعظم أجركم فيه ، وأجزل الله عز مثوبته ، وأعلى فى الصالحين منزلته ، وجعله — سبحانه — ممن يقول فيهم : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون : لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون) والسلام عليكم ورحمة الله .

●● كلمة الدكتور مصطفى كمال حلمى

الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع :

سيداتى ، سادتى :

لقد حرص الأستاذ الدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التربية والتعليم على أن يشارك المجمع فى تأبين فقيده الوزير السابق للتربية والتعليم المرحوم الأستاذ محمد رفعت ، فبعث إلينا بالكلمة التالية :

السيد الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور

رئيس مجمع اللغة العربية

تحية طيبة وبعد :

فقد تلقيت دعوتكم الكريمة لشهود الجلسة العلنية التى ستعقد بدار المجمع الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء التاسع من ذى القعدة سنة ١٣٩٥ هـ الثانى عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥ لتأبين فقيد المجمع المغفور له : الأستاذ محمد رفعت :

وكان يشرفنى غاية الشرف ألا تفوتنى هذه المناسبة ، ولكنها تأتى فى نفس الوقت الذى يعقد فيه مجلس الوزراء .

وإن ذاكرتى إذ تحاول أن تلم بحياة الفقيد الكريم إلمامة سريعة ترى أنها من الرحابة والخصب والعمق ، بحيث لا تكفى فيها مثل هذه الإلمامة ولا تفى بجوانبها وأبعادها وأعماقها ، ولا باليسير مما تستحق من تقدير وتكريم .

وحسبى من هذه الحياة أن ألقى بعض الأضواء على أظهر ملامحها . إنها حياة الريادة فى العلم ، والخلق ، والعمل .

كان — غفر الله له — فى مجال التاريخ السياسى رائدا ، يصيب الهدف برأيه ويضع الكلمة حيث ينبغى أن توضع ومن وراء رأيه وكلمته عقل العالم المتعمق لفكرته ، وحس المتذوق الذى يعرض الفكرة واضحة سائغة جميلة ، وهو فى ذلك مدرسة تخرج فيها تلاميذه الذين تأثروه وتأثروا به .

وكان — طيب الله ثراه — صاحب مثالية خلقية يتبينها كل من اتصل به : الوداعة المحببة ، واللفظة العفة ، والصوت الهادئ والصدر الرحب ، والقلب الكبير الذى يتسع لآلام الناس ، ويتفتح لإسداء ما يستطيع من خير لهم ، مع إباء مترفع عن كل ما يشوب هذه المثالية ، أو يرنق من صفائها .

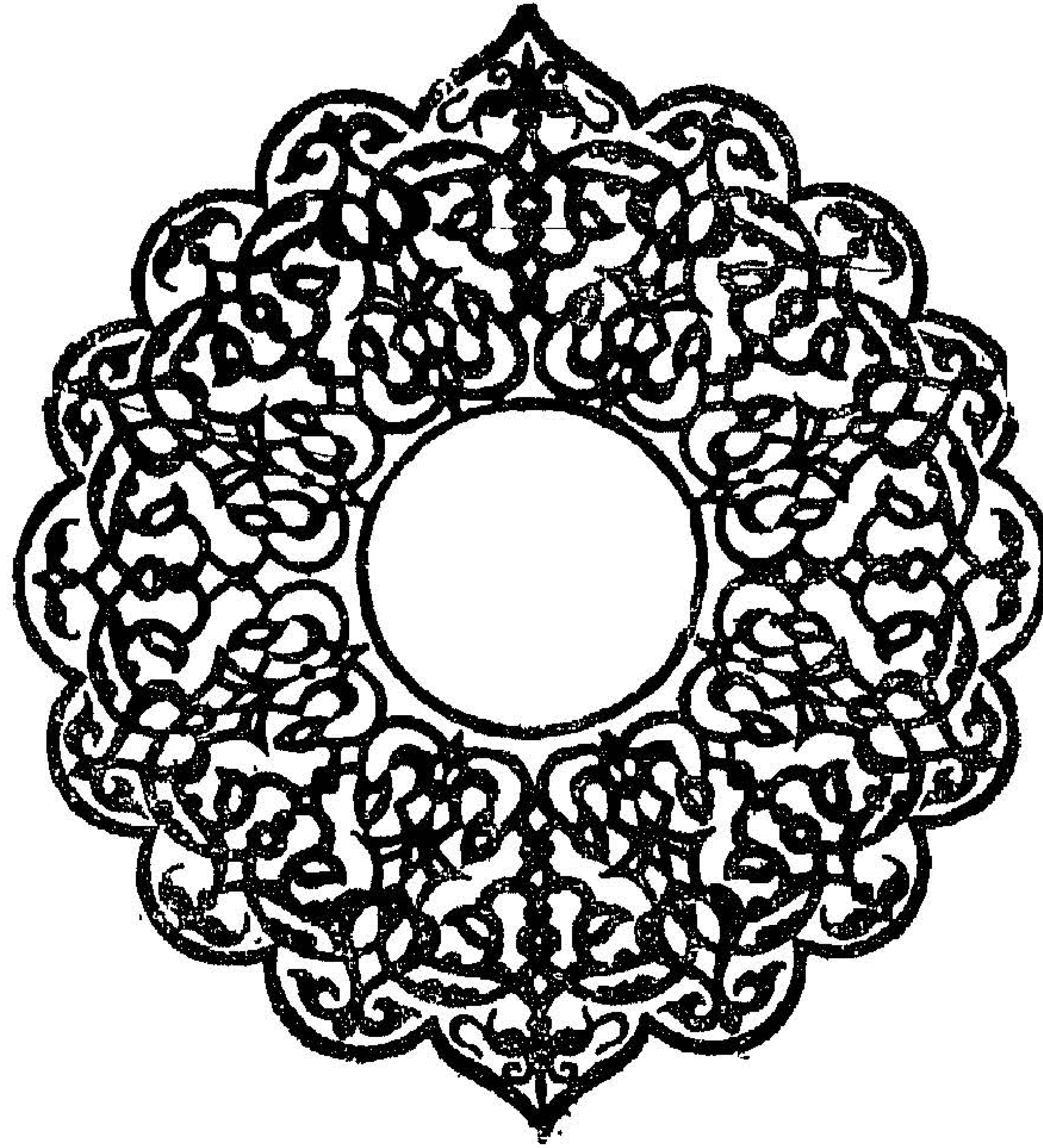
وكان — رحمه الله — فى كل ما تولى من عمل يضفى طابعه وشخصيته على عمله ، حتى يأتى صورة عملية متفقة مع

خلقه الرفيع ، ولقد تولى وزارة التربية والتعليم ، فكان لها نموذجا فريدا فى الجمع بين شخصية العالم وشخصية الإدارى على خير ما يكون ذلك توازنا واتساقا .

وإذا كانت ريادته العلمية قد رشحته لمجمع الخالدين الذى يكرم ذكراه إعزازا ووفاء ، فإن حياته الحافلة بمآثرها ترشحه لأن تكرمه مصر كلها ابنا قدّاء من أبنائها العاملين فى إخلاص وصمت وإنكار للذات ، وأن تكرمه العروبة فردا وقف فكره ودقته وجهده لخدمة العلم والمثل الكريمة .

وإنى إذ أعزى فيه المجمع ، والوطن والأمة العربية أدعو الله أن يتغمده بسابغ رحمته ، وأشارك أسرته فى مصابها به ، ذاكرا أنه ليس عضوا فى أسرة صغيرة ، وإنما هو عضو عظيم . فى أسرة الوطن الكبير . وسوف تكون ذكراه معلما واضحا لنا على الطريق إلى أنبل الغايات وأكرمها.

وسلام عليه فى الخالدين



كلمة الأسرة لصهر الفقيد الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية:

العالم الجليل الأستاذ على النجدى ناصف:

الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع :

أتقدم اليكم جميعا بجزيل الشكر وخالص التقدير ، لعقد هذه الجلسة تأبينا الفقيد المجمع المغفور له الأستاذ محمد رفعت

إن أسرة فقيدنا الكبير ، سواء منهم من استطاع شهود هذه الجلسة أو من حالت ظروف عمله وإقامته خارج القاهرة او ظروفه الصحية دون شهودها ، لتتلقى كلمة الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع فى افتتاح هذه الجلسة بكل تقدير وعرفان . فهى كلمة عالم جليل يؤبن عالما جليلا . . وهى كلمة صديق وفى يرثى صديقا وفيا . . وقد كان فقيدنا فى بيته وبين أولاده يذكر الأستاذ الكبير رئيس المجمع ذكرا حافلا دائما بالتقدير ، وبالإعجاب وبالاعتزاز بأنه يعمل مدة فى هذا المجمع الرفيع

وإن الأسرة لتتلقى أيضا بالتقدير والعرفان كلمة العالم الجليل الأستاذ على النجدى ناصف . فهى كلمة زميل كريم شاركه فقيدنا بعض أعمال المجمع . وهى كلمة أستاذ كبير فى مجال العلم والتربية ، عدد فيها مآثر فقيدنا الذى أمضى شطرا كبيرا من حياته فى محراب العلم المقدس . والكلمة على إيجازها ، قد ألمت بحياة مديدة أمضاها فقيدنا فى عمل دائب ونشاط مستمر أستاذا ومربيا وكاتبا ومحاضرا ومؤرخا ولغويا . . فضلا عن مشاركته فى كثير من الأمور العامة على مدى سنين طويلة تولى فيها العديد من المناصب الهامة كان من بينها منصب وزير المعارف العمومية . وهى الوزارة التى تحمل أمانة التعليم فى مصر .

إن هذه كلمات متواضعة اقدمها لكم أيها الأساتذة العلماء الأجلاء ، نيابة عن أسرة فقيدنا وتعبيرا عن شكرها وتقديرها وامتنانها . . وأستأذن فى أن أقول إن الأسرة أنابتنى عنها ، لأن الله قد جمع بينى وبين الفقيد العزيز بصلتين من أشرف الصلات : أولاها : صلة التلمذة وثانيها صلة المصاهرة : ومن الممكن أن أقول إن صلة المصاهرة كانت امتدادا لصلة التلمذة ، فقد كان رحمه الله ، أستاذا فى بيته مثلما كان أستاذا فى دور العلم التى تولى التدريس والمحاضرة فيها وكان اولاده وبناته ، وأحفاده وأسباطه ، وأهله وأصهاره يقعدون منه للسمع ينهلون خلالها من فيض علمه وغزيرا

أدبه وكريم نصحه، فكان مثلا يقص علينا أشياء عن حياته أيام التلمذة في مصر أو في إنجلترا .. أو يذكر شيئا عن عمله في مناصب التعليم والتربية التي درج على سلمها من سفحه إلى قمته .. أو ينتج موضوعا جادا للمناقشة وتبادل الرأي .. أو يشير إلى كتاب عربي أو إنجليزي في مكتبته ويطلب إلى أحدهم أن يقرأ شيئا للتذكر والاسترجاع .. وكل ذلك في جو أسري يشيع فيه كثير من المرح الهادئ فقد كان بطبيعته يحب المرح والفكاهة .. وتسوده الأبوة الحانية العطوف ، والبنوة المؤتلفة البارة .. فما كنا ننصرف من أمسية نمضيها حوله .. أو دعوة إلى غداء أو عشاء إلا وقد سعدنا ، وأفدنا وننصرف ونحن نتعجل الساعات أن تمر حتى نعود إلى لقائه من جديد .

وكانت تلك الجلسات عادة في غرفة مكتبته وهي غرفة تغطي جدرانها الأربعة كتب التاريخ والأدب والمعاجم ودوائر المعارف بل تكاد الكتب أحيانا تمتد من الأرض إلى السقف . . وليس فيها مكان يخلو من الكتب إلا ليضع صورا صغيرة لأولاده وأحفاده .. وصورة واحدة كبيرة هي صورة سعد زغلول وأم المصريين . . فقد كان رحمه الله من أبناء ثورة سنة ١٩١٩ وكان له دور مشهود في حركة المدرسين إبان تلك الثورة ، وكانت له فيما بعد مواقف وطنية جرت عليه بعض المتاعب . . وكان يروى لنا أحيانا شيئا عن دوره في أيام الثورة وما بعدها . . ولكنه كان يبتعد بكلامه عن كل ما يبدو زهوا أو ادعاء ويقصره على ما يفيد في توجيهنا توجيها صالحا . والحق أني قد تأثرت كثيرا مما كان يصدر عنه من آراء ، تدعمها الوقائع شأن المؤرخ المحقق ، في فهمي لأحداث مصر والعالم العربي وأحداث العالم الذي نعيش فيه .

وأيضاً فقد تأثر ابنه اللواء أشرف رفعت قائد العمليات في السلاح البحري مما سمعه معنا مرارا من أنه عندما دخل نابليون مصر كان أول ما فعلته إنجلترا أن استولت على جزيرة بريم عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر . . وكانت هذه هي أول بقعة تستولى عليها إنجلترا في العالم العربي كله .. . وقد عرفنا منذ سنتين أن استخدام جزيرة بريم لوقف الملاحة الإسرائيلية كان من أهم العمليات الناجحة التي قام بها السلاح البحري المصري في حرب أكتوبر ١٩٧٣

وكان رحمه الله يقضي وقته في مكتبته العامرة بالبيت ، اللهم .. إلا حين يخرج ليحضر جلسات المجمع أو لجانه التي يشارك فيها . . وحين كان يذهب إلى معهد الدراسات العربية العليا ليلقي محاضراته في التاريخ المعاصر .. أو حين يجلس إلى التلفزيون في لحظات الاسترواح يشاهد

بعض براجه بين أولاده وأحفاده، فما عدا هذا كان يقضى النهار كله ممتدا إلى شطر طويل من الليل ، عاكفا على القراءة والكتابة وعاكفا على إعداد ماينهض به من أعمال المجمع ، وما يؤديه فى معهد الدراسات العربية . . ومخصصا جزءا من وقته كل يوم ليكمل كتابه «يقظة مصر الحديثة» :-

The Awaking of Modern Egypt:

فأعاد كتابه الجزء الأول منه الذى طبع فى لندن قبل الحرب العالمية الثانية . . ثم كتب الجزء الثانى فأتم هذا الكتاب الق يم منذ ثلاث سنوات ... وقد رحل إلى رحاب الله وفى نفسه أمنية عزيزة ، هى أن يطبع هذا الكتاب كاملا بجزأيه ، فى إخراجه للناس خير جزاءله عن عمل بذل فيه جهدا كبيرا وعناء متصلا سنين عدة .

وأعتقد أننى لا أتحيز حين أقول إن هذا الكتاب هو من أقيم إن لم يكن أقيم ماكتب باللغة الإنجليزية عن تاريخ مصر الحديث ، لوفائه بالموضوع وعرضه فى أسلوب يتسم بالطلاوة والاسترسال . وقد تناول فى جزئه الأول تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى الاحتلال البريطانى، ثم أمضى أربع سنوات فى سن الشيخوخة فى عمل متصل حتى أنجز الجزء الثانى الذى يتناول تاريخنا المعاصر منذ الاحتلال البريطانى حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . هذا من ناحية شمول الكتاب ووفائه بالموضوع ، أما من حيث أسلوبه فان الذين قرأوا الجزء الأول الذى طبع فى الثلاثينيات قد بهرهم أسلوبه الرصين ومافيه من سمات أساليب المؤرخين الإنجليز الكبار أمثال ماكولى وستراتشى وكارليل .

وقد حملت مسودة هذا الكتاب إلى أمريكا ، وأعطيته للأستاذ جون بارو الذى كان مديرا للجامعة الأمريكية فى القاهرة وسفيرا لبلاده هنا .. وكان فى ذلك الوقت أستاذا بجامعة كولوب الأمريكية . فكتب مستر بارو للمؤلف رحمه الله كتابا حمل تقديره لهذا الكتاب ، وأشار فيه أيضا إلى أنه يسعده أن يعمل على نشره فى امريكا إذا وافق المؤلف على اختصاره قليلا لأن حجمه ربما يزيد على ستمائة أو سبعمائة صفحة .. ولكن المؤلف اعتذر عن هذا فقد عز عليه أن يحذف منه أشياء تعب وسهر فى تمحيصها وتأليفها.

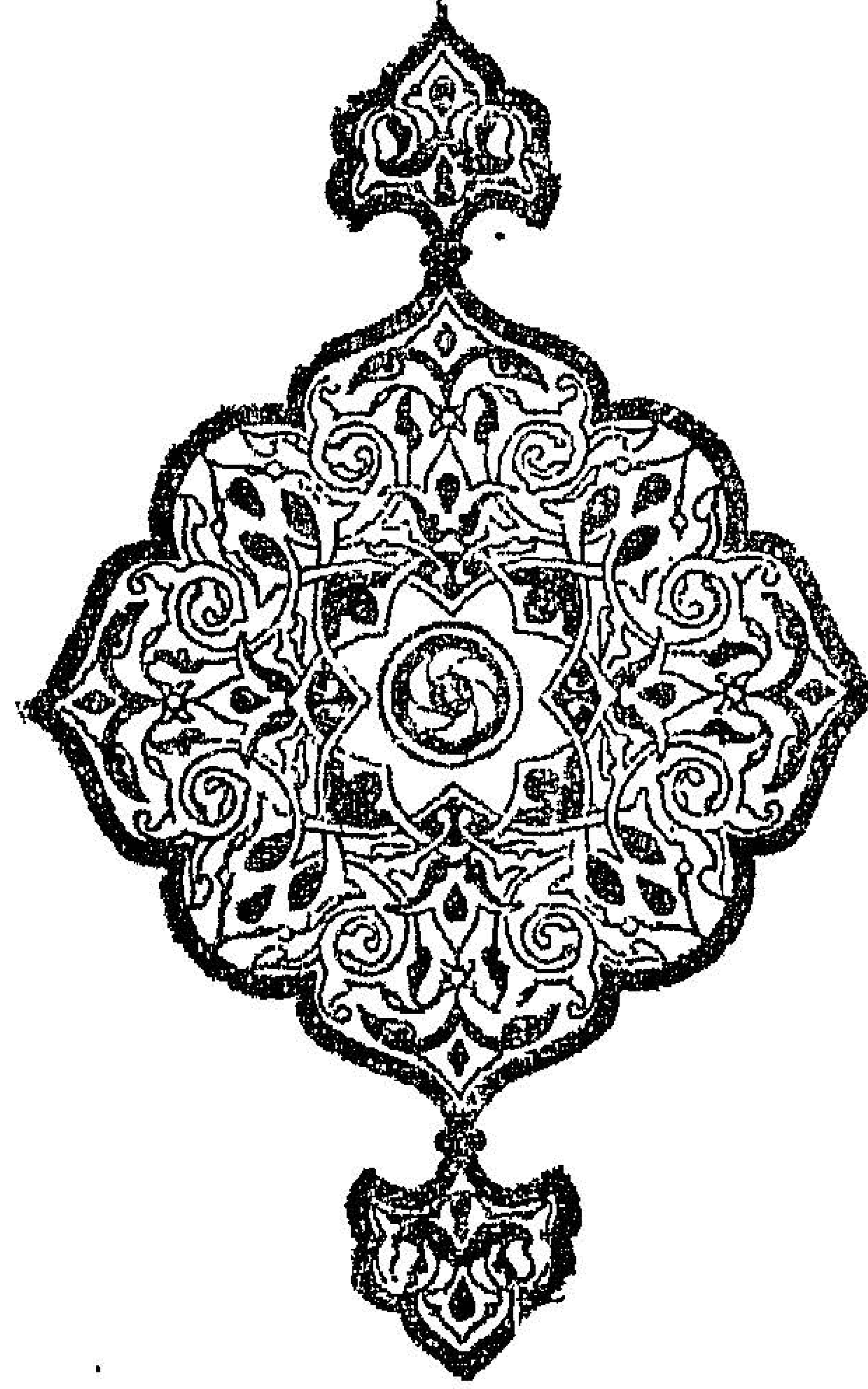
وعندما التهمت النار منذ شهور قليلة أكثر ماكان فى مكتبته ، كان عزاؤه أنها لم تمتد إلى مسودة هذا الكتاب التى احتفظ بها فى أحد أدراج مكتبه .. ومازالت قابعة فيه تنتظر يوما تخرج فيه إلى النور كتابا يبصر العالم الغربى بتاريخ مصر الحديث، كما يراه مؤرخ مصرى .. عاطفته مصرية ، ولكن عقله المؤرخ المحقق الذى يعنيه اول مايعنيه وقائع التاريخ وحقائقه

السيد الرئيس :

السادة الأجلاء أعضاء المجمع :

أرجو المعذرة إذا كنت قد خرجت عما كنت أريد أن أقوله فى هذه الكلمة .. وهو أن أقول شيئا وجيزا عن فقيدنا فى بيته وبين أهله وذويه الذين أنابونى عنهم فى أن أقول كلمة أحملها كل عبارات الشكر والتقدير لكم أيها الأساتذة الأجلاء يامن اجتمعتم اليوم لتأبين فقيد المجمع المغفور له الأستاذ محمد رفعت .. فشكرا جزيلا لكم ، ودعاء إلى الله أن يهبكم جميعا الصحة الطيبة والعافية ، وأن يمد فى آجالكم لتخدموا لغتنا الفصحى ، وثقافتنا الأصيلة ، بعلمكم وجهدكم وفضلكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور :

سيداتي ، سادتي :

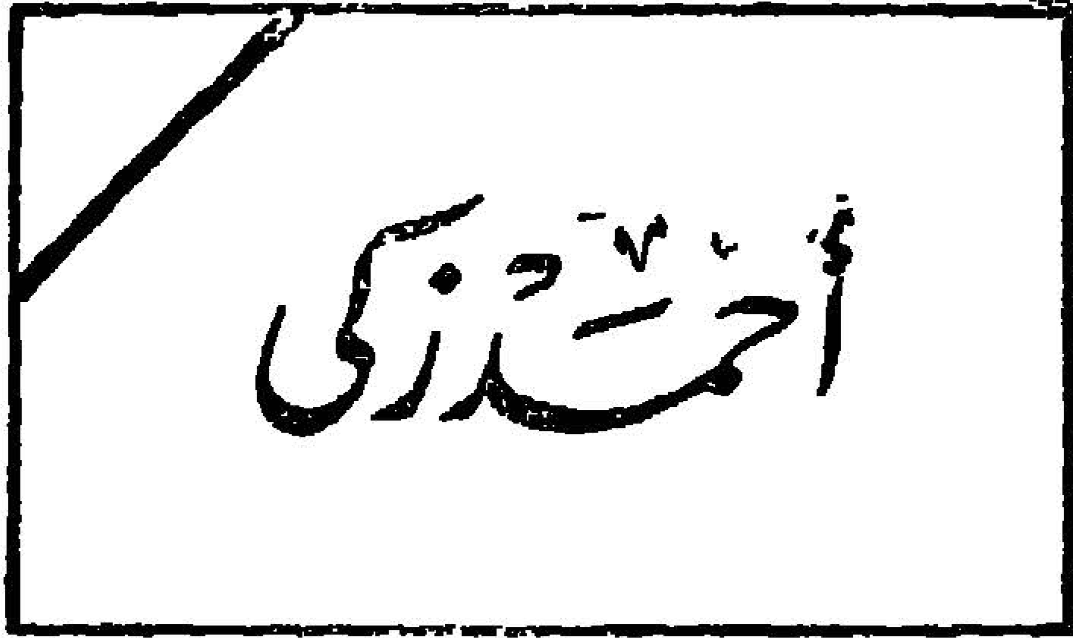
في ختام الجلسة أتقدم بخالص الشكر لكل الذين تفضلوا بمشاركتنافي هذا الحفل، ولـ ل من نافلة القول أن أعود فأتحدث عن مناقب الراحل الكريم ، ويكفي أن أقول: إنه لحق بركب الخالدين ، وانضم اليه بفضل مابذله من جهد في خدمة العلم ، فهو لم يبخل قط بشيء في سبيل العلم ونهضته ورفعة شأنه ، وإذا كان المغفور له الأستاذ محمد رفعت قد رحل إلى دار الخلود فإنه قد استطاع أن يترك ذكراه الطيبة في قلوب أصدقائه ومحبيه ، أولئك الذين عرفوه رجلا صديقا صدوقا، يحمل أمانة العلم بصدق وإخلاص حتى أدى الأمانة على أكمل وجه وعزاؤنا فيه ، أن نستعيد دائماً ذكراه ، ذكرى ذلك الرجل الذي كان محبا لوطنه ، وفيا لأمته،وقد بادله الجميع حبا بحب، ووفاء بوفاء .

ورفعت الجلسة ، وشكرا لكم .

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١٤ من ذي القعدة سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٧٥ م أقام المجمع حفل تأبين المرحوم الدكتور أحمد زكي عضو المجمع .

وفيما يلي ما ألقي في الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع في تأبين المرحوم الأستاذ



سيداتي ، سادتي :

يعز على النفس ، بعد طول العشرة ، ومداومة اللقاء ، أن تودع ، أحباءها واحداً بعد الآخر ، ولكن هذه هي الدنيا ، وهذه سنة الحياة والحق أن الراحل الكريم الذي نؤبنه اليوم هو واحد من الأعزاء الأخيار الذين جمعتني وإياهم زمالة طويلة قوية عميقة ، تضرب بجذورها في أعماق الزمن الذي شاء أن نكون اثنين من عشرة جدد دخلوا المجمع في عام ١٩٤٦ ففي الثاني عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٦ استقبل المجمع هؤلاء العشرة ، وقدر أن يكون المستقبل للدكتور أحمد زكي في هذه المناسبة الدكتور أحمد أمين الذي قال كلمة لازلت أذكرها فقد قال عنه : « إنه كيميائي عظيم ، وأديب كبير مزج بين العلم والأدب كما يمزج السكر والماء ، فبينما نراه في معمله بين الأنابيب والمحاليل ، نراه في مكتبه يحلل الكلمات ويستخرج المعاني ويصوغ الأفكار »

تلك هي الصورة التي قدم بها أحمد أمين صديقه الدكتور أحمد زكي ، وقد دلت الأيام على صدق هذه الصورة ودقتها ، فقد رأيناه نحن في مجمع الخالدين يحلل الكلمة العلمية تحليلا أميناً ، كما يحلل الكلمة الأدبية تحليلا بليغاً ، وإذا كانت السنوات الأخيرة قد حرمتنا من متعة اللقاء به والاستماع إلى مناقشاته الخصبة الممتعة ، فإنه لم يغب عنا بمقالاته وأبحاثه التي كان يوالي نشرها في مجلة « العربي » التي اضطلع بمهمة رئاسة تحريرها ، واتخذ من « الكويت » التي تصدرها منزلا ومقاماً له ، طوال الفترة الماضية ، ولم ينقطع قط عن خدمة العلم طوال فترة إقامته بالقطر الشقيق .

وللراحل الكريم الدكتور أحمد زكي جوانب كثيرة سيتحدث عنها الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر الذي يلقي الآن كلمة المجمع في تأبين الفقيد الكبير .

كلمة الدكتور حامد جوهر :

(عضو المجمع)

سيادة رئيس المجمع :

سيداتى سادتى :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد

فهذا يوم عصيب وإنه ليوم حزين حقاً ؛ لقد مات أبو العلمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وياله من نبأ مروع مفزع ، لقد كان أباهم علماً ومكانة واحتراماً . كان رحمه الله راجح العقل واسع الخبرة متعدد الجوانب عالج معضلات جمة فى شتى التخصصات العلمية والاجتماعية والأدبية . لقد كان أمة تمثلت فى رجل بل كان أمماً . فقد أضاء بعلمه وفكره البلاد العربية من المشرق إلى المغرب وترك تراثاً كبيراً سيبقى أبد الدهر ، وكان أجيالا من العلماء يرفعون اللواء من بعد ممات أبى العلمين ، حقاً :

كل حى إلى المنيـــة غـــــادى
يتهـادى الركاب والموت حادى

ولكن لعل من قسوة القدر أن يقع على أمر تأبينه ، وليس أشق ولا أقسى على النفس من أن يكون من قدرى أن أقف هذا الموقف من شخص حملت له منذ عرفته كل حب ومودة وإعجاب ، بل كان هذا الرجل بالنسبة لى أستاذاً ورائداً وصديقاً وزميلا . ولعل الأقسى من كل ذلك أن أعلم أن فقيدنا الراحل كان عملاقاً ، وهيهات لى أن أوفيه حقه مهما حاولت ومهما بذلت من الجهد .

ولكن مما يعزينى أن فقيدنا تغمده الله بشآبيب رحمته كان سمحاً كريماً عزوفاً عن الظهور ، ولا بد أن روحه الطاهرة التى ترفرف علينا الآن فى هذا المكان سوف تغفر لى هذا القصور ، وحسب هذا الرجل أن ظل ردحاً طويلا من الزمن ملء الدنيا وملء العيون والقلوب . كان أستاذاً لأجيال النهضة المصرية منذ بدئها ، فكان أحد الدعائم القوية لهذه النهضة .

ولد المغفور له الدكتور أحمد زكى فى ثغر السويس عام ١٨٩٤ وعاش به إلى أن بدأ تعليمه الابتدائى بمدرسة السويس الابتدائية ثم انتقل إلى القاهرة حيث تابع تعليمه بمدرسة أم عباس الابتدائية ، ونال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٧ . والتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية ومنها نال الشهادة الثانوية سنة ١٩١١ فالتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وحصل على دبلومها سنة ١٩١٤ مع نخبة من الجهابذة أمثال عبد السلام الكردانى وفريد أبو حديد ومحمد عوض محمد والغمراوى وشفيق غربال وعبد الحميد العبادى وخلاف ومحمد بدران وكامل سليم ، الذين كانوا بعد ذلك من أساطين النهضة الحديثة فى وزارة المعارف والجامعة .

وعين مدرساً بالمدرسة السعيدية الثانوية ثم ألغى التعين بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى ؛ وللسبب ذاته تأخر سفره فى بعثة علمية إلى إنجلترا فى السنة نفسها .

هنا عمل مدرساً بالمدارس الإعدادية الثانوية إلى أن اختير ناظراً لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق سنة ١٩١٨ ، وفى سنة ١٩١٩ استقال من هذه الوظيفة وسافر إلى إنجلترا إشباعاً لنهمه إلى الاستزادة من علم الكيمياء ، فكان من الرعيل الأول لهذا العلم فى مصر ، ونال درجة البكالوريوس فى العلوم سنة ١٩٢٢ ، ثم درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى الكيمياء سنة ١٩٢٤ ، ثم انتقل إلى جامعة منشستر حيث أمضى بها عامين مشتغلا بالبحث العلمى ، ثم أتبعها بعامين آخرين قضاهما فى البحث العلمى أيضاً فى جامعة لندن ، التى منها حصل عام ١٩٢٨ على درجة الدكتوراه فى العلوم : أرفع الدرجات العلمية التى تمنحها الجامعات . وكان ثالث مصرى يحصل على هذه الدرجة الرفيعـــة .

فرجع إلى مصر ولم يكن فى الدولة آنئذ من مكان يكون فيه أنفع منه فى كلية العلوم لينضم إلى كبار هيئة التدريس بها . فعين أستاذاً مساعداً للكيمياء فى مطلع الثلاثينيات ، وآنذاك عرفت فقيدنا الكبير أول ما عرفته وكان جل هيئة التدريس فى ذلك الوقت من الأجانب ، فكان طبيعياً أن نتلهف على أى مصرى يعين فى هذه الهيئة ليشد أزر المصريين فى الكلية ، ولم يمض وقت طويل حتى رقى أستاذاً للكيمياء العضوية . ولم أسعد بالتتلمذ على يد هذا الأستاذ الكبير ، فكنت قد تخرجت وعينت معيداً بالكلية قبل أن يجىء إليها ، ولكنى فى الواقع نهلت من فيض علمه قبل ذلك ، إذ درست الكيمياء ، أول مادرستها فى تعليمى الثانوى ، فى كتابيه اللذين ألفهما بالاشتراك مع زميله وصديق عمره الأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى ، وقامت بنشر كتابيهما لجنة التأليف والترجمة والنشر ، تلك اللجنة التى كان لها باع طويل وفضل عظيم فى نشر العلم والمعرفة والثقافة ردحاً طويلا من الزمن . كما أنهما اشتركا فى إنشائها سنة ١٩١٤ وهما بعد طالبان فى السنة النهائية فى مدرسة المعلمين ، وقادهما فى هذه اللجنة أول رؤسائها المغفور له الأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين العضو السابق بمجمعنا هذا .

وقت أن عرفنا المغفور له الأستاذ الدكتور أحمد زكى كنا معيدين فى الكلية وكأغلب الشبان كان فينا طموح شاعرين بحاجة البلاد إلينا ، وكان يبدو لنا أن أساتذتنا الأجانب لا يهتمون بإعدادنا لحمل الأمانة أو القيام بالدور الذى ينتظره الوطن منا ، وكان طبيعياً أن نأنس إلى المصريين القلائل من كبار هيئة التدريس نبثهم آمالنا ونسألهم النصح والإرشاد ، وكان فى مقدمة أولئكم فقيدنا الكبير ، وهنا ازددت معرفة به وقد وجدت دائماً عنده الرأى الصائب والرؤية

الصافية والنصح المخلص الأمين والصراحة التامة والبعد عن تزيين الحقائق المرة وتزييفها وكان يواجهنا بمواضع الخطأ فى تفكيرنا إذا رأى شيئاً من ذلك ولا يأبه لما يترك ذلك من أثر غير محمود عند من يفضل أن يزين له القبيح ويشجع على المضى فى الخطأ وفى الواقع كان من أكثر ما أحببت فى فقيدنا الكبير تلك الصراحة التى كان يقابلنا بها ، وبخاصة ولم يكن ليعوزه الأسلوب اللبق المهذب للتعبير عن رأيه .

وكنا نقدر فيه أسلوبه فى الكتابة العلمية وما كان يطالعنا به بين الفنية والفنية ، وبخاصة فى مجلة « الرسالة » من مقالات علمية فى وقت كنا نظن فيه أن اللغة العربية لا تصلح للتعبير العلمى الدقيق ، فأثبت لنا الدكتور أحمد زكى عن غير قصد خطأ رأينا .

وفى سنة ١٩٣٣ ، وكنت فى ذلك الوقت رئيساً لجمعية خريجى كلية العلوم (كلية العلوم الوحيدة حينئذ) ، أنشأنا مجلة « رسالة العلم » ومولناها بمعرفة مالية من الجامعة ولمحت رغبة الكلية فى وضع رقابة عليها حتى حتى لا تنحرف بها عن هدفها الذى أعلناه وهو العلم . فكان أن اخترنا المغفور له الدكتور أحمد زكى مستشاراً للجنة هذه المجلة وبهذا فوتنا فرصة وضع رقيب علينا قد يعرقل تقدمنا ، وظل الدكتور أحمد زكى مستشاراً للمجلة إذا استنصحناه نصحاً وأخلص النصح وإلا فلم يكن يتدخل فى شئوننا بأى شكل من الأشكال ، ولعله أراد أن نحمل العبء ونتعود على حمله أو كأنما ، وهو بعد لم يزل شاباً ، كان يحس بطموح الشباب فيشجعه ويرشده عن بعد دون أن يقف فى سبيله . ولاشك فى أننا حين اخترناه إنما هدينا إلى اختياره لما لمسنا فى جميع أعضاء الكلية أساتذة ومدرسين وطلاباً من تقدير وحب له . وبهذه المناسبة أقول : إنه كان الوحيد الذى حصل فى انتخابات عمادة الكلية على إجماع الأصوات.

وفى سنة ١٩٣٦ عين مديراً لمصلحة الكيمياء بوزارة المالية وكان أول مصرى يتولى هذا المنصب . وقد نهض بهذه المصلحة وأعاد تنظيمها ووسع مجالها .

وحينئذ ، وقد بعد شكلا عن الكلية ، وكانت جمعية الخريجين قد استقر لها الأمر فى «رسالة العلم» – رأى أن يتنحى عن مكانه كمستشار للجنة هذه المجلة ، وأصر على ذلك بما لم يدع مجالا إلا النزول على رغبته ولم نر داعياً لإحلال آخر فى مكانه .

وفى سنة ١٩٣٦ أيضاً أنشىء المجلس الأعلى للبحوث يضم أساطين العلم والصناعة والاقتصاد ، وكان المغفور له الدكتور أحمد زكى أول سكرتير لهذا المجلس وأول مدير له ، واستمر اتصالنا به عن طريق المصلحة والمجلس ، وكان يجمع بينهما ، وتوثقت بيننا أواصر التعارف ثم الصداقة فكنا نتردد عليه زائرين له فى عمله وفى منزله الذى كنا ندعى إليه أحياناً ، وليس يخاف أن للدكتور زكى الفضل الكبير فى إنشاء هذا

الذى سمى فيما بعد وفاة الملك فؤاد : « مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث » ، كما أن له الفضل الأكبر فى نفخ الروح فيه ، فقد دأب على حفز أولى الأمر فى ذلك الوقت على الاهتمام به ، وإخراج مراكز البحوث إلى الوجود ، وقد شاعت له دقته العلمية وسمو همته أن تكون هذه المراكز على أحدث ماوصلت إليه العلوم والفنون . فرأى بثاقب فكره وقوة إرادته وحسن إدارته أن يبدأ من حيث انتهى من سبقونا . ولهذا الغرض كانت رحلاته فى أنحاء الدنيا القديمة والحديثة ، نزور كل المعاهد والمؤسسات العلمية والصناعية والجامعات وكل مكان يكون للبحث العلمى والتطبيقى فيه شأن ، حتى جاء مجمع المراكز القومية للبحوث آية فى الإبداع والكمال ، وظل دليلا عملياً ساطعاً على ما اتصف به فى جميع أعماله له من دقة علمية متناهية فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا وأولاها ما تستحقه من العناية والاهتمام .

ولعل أعظم فرصة أتيحت لى للتعرف على فقيدنا الجليل عن كثب كانت فى خريف سنة ١٩٤٦ حين التقينا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهو فى رحلات طويلة جاب فيها تلك البلاد طولا وعرضاً شمالا وجنوباً شرقاً وغرباً ، وكل مكان فيه معاهد أوجامعات أو مراكز للبحوث من أى نوع ، أكاديمية كانت أو طقنية ، وكنت أنا فى مهمة موازية وإن تركزت على النواحى البحرية .

ولذلك صحبته فى القليل من رحلاته ودامت هذه المدة شهراً أو بعض شهر أمضيناه فى فندق واحد فى نيويورك .

هنا أيضاً عرفت الدكتور أحمد زكى الإنسان ، الدكتور أحمد زكى الفيلسوف، هنا عرفته رجلا جم النشاط لا يكل ولا يمل ، منظماً فى معيشته فى بساطة ، بعيداً عن المظاهر ، حاضر البديهة حلو الفكاهة .

وإنه ليحز فى النفس أنه الآن إذا ذكر البعض المركز القومى للبحوث تناسوا الدكتور أحمد زكى منشئه الحقيقى . بل إننى لا أغالى ولا أظلم أحداً إذا قلت : إن إغفال اسم الدكتور أحمد زكى كان أحد الدوافع لتغيير اسم مجلس البحوث ، ولعل الدافع الثانى هو تهيئة الفرصة لاستئثار فرد بالسلطة ، دون الخضوع لرأى مجلس ما . وقد نرى البعض يدعى أن المركز القومى للبحوث أنشىء فى عام ١٩٥٤ ، رغم أنه فى تلك السنة لم يتم شىء فيه إلا تغيير الاسم ، إن أمثال هؤلاء لا ينكرون ضوء الشمس فحسب ، بل ينكرون وجودها أصلا .

وإنى لأستعمل هنا اسم « مجمع مراكز البحوث » ، لأنه فى الواقع عدد من مراكز البحوث اجتمعت فى موقع واحد ، وهكذا قصد فقيدنا الكبير عندما فكر فى إنشائها ولقد توخى قبل أن يتم وضع برنامج المجمع ورسومه ومواصفاته أن يتم ذلك عن طريق مسابقة دولية عالمية ، اشتركت فيها البيوتات الدولية المشهود لها بالخبرة والكفاية والامتياز.

ثم جاء دور الاختيار من بينها فوكل أمر ذلك إلى هيئة عالمية ممتازة من العلماء اختارها لهذا الغرض بخاصة . فإذا جاء دور التنفيذ كان سبيله إلى ذلك مناقصات دولية عالمية ، اختيرت من بينها الهيئة الأصلح والأقدر على ذلك . وأشرفت على التنفيذ هيئات خاصة أيضاً لم يكن اختيارها بدون الدقة نفسها التى نالتها عمليات أخرى . وعلى الوتيرة نفسها تم تجهيز هذه المراكز .

وكان هو فى هذه الأعمال العقل المفكر المدبر المنسق المؤقت ، وقد راعى فى كل ذلك حركة التطور السريع التى يشهدها العلم فى هذا العصر ، وأهمية نماء العلم والبحوث العلمية والتكنولوجية للجيل الذى كان يعيش فيه والأجيال التى تليه .

لا غرو إذن إذا جاء «مجمع البحوث» آية فى الإعجاز ومثلا أعلى لما تكون عليه المشروعات العلمية فى عصر الفضاء ، قبل أن يأتى هذا العصر .

ولقد كان فقيدنا الكريم عالماً بسجيته يتشبث بالعلم فى كل حركاته وسكناته وكان يؤمن بأهمية العمل الجماعى ودور الجماعة والفريق فى حل المعضلات المعقدة بل كان يؤمن بالفريق ليس من الأفراد فحسب ، بل أيضا من المؤسسات والمعاهد ومراكز البحوث كذلك ، وكان يؤمن بضرورة إشراك الجامعة والجامعيين فى البحوث التطبيقية التى يضطلع بها مجمع مراكز البحوث ، ولذلك كان أهم ما شغله فى إنشاء هذا المجمع أن يكون على مقربة من جامعة القاهرة ، الجامعة الأم ، وقد بذل فى ذلك جهوداً جبارة ، لا يقدرها إلا من اتصل به عن كثب فى أثناء هذا الطور وكانت ثمرة ذلك الجهد الموقع الحالى الذى يلتصق بأراضى الجامعة ، ولم تكن جهوده بأقل فى إعداد هذا الموقع واستصلاحه وتجميله .

وكان المغفور له الدكتور أحمد زكى واحداً من عشرة أسسوا الأكاديمية المصرية للعلوم سنة ١٩٤٦ ، والتى كان لى شرف الاختيار لعضويتها سنة ١٩٤٨ . ثم كان أن انتخب رئيساً للأكاديمية ، وأعيد انتخابه سنين عدة ، دفعها دفعاً قوياً ، ووضع لها تقاليد رفيعة ، ويكفى أن أقول بدون أية مغالاة : إن الأكاديمية عاشت عصرها الذهبى فى ظل رياسته ، ولا اظن أن سيظهر مثيل له بسهولة فى هذا المجال .

وفى سنة ١٩٥٢ عين وزيراً للشئون الاجتماعية إلا أن عهده بها لم يطل ، كما أننى لست ملما بنواحى نشاطه فى هذه الوزارة .

وعاد إلى جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ مديراً لها . وكنت عضواً بمجلس الجامعة ولعل أهم ما أذكر له فى تلك الوظيفة وهذا المجلس ، ما امتاز به دائماً من حب لحرية الرأى التى لم ينكرها عليه أحد . فكان

مثلاً ممتازاً فى إدارة اجتماعات مجلس الجامعة . وكان واسع الصدر يعطى كل من شاء الحديث من الأعضاء فرصته فى التعبير عن رأيه ، لا يقاطع أحدا ، ولا يتململ من حديث أحد مهما طالت الاجتماعات . فكان فى ذلك مثلا للديموقراطية الحقة .

أما الشئ الآخر فهو أنه أول من فكر فى تشكيل لجان علمية دائمة من كبار أساتذة الجامعات السابقين منهم والعاملين لفحص الإنتاج العلمى للمتقدمين لوظائف الأستاذية .

أما مكانته بين الكيميائيين فى مصر ، أولئك الذين يشاركونه حب علم الكيمياء فكلهم من تلاميذه وأتباعه ، وقد حمل فيهم دائماً لواء القيادة ، وحملوا هم له كل حب وتقدير وإجلال فلا عجب إذن أن يتولى رياسة الجمعية الكيميائية المصرية ، منتخباً سنة بعد أخرى ، على مدى ربع قرن من الزمان . ولم يتنح عن رياسته إلا حين تشعبت مسؤولياته ، ثم حين ترك مصر ليقيم بصفة دائمة فى دولة الكويت تلك الدولة التى استأثرت به ، ورأت أن تنفع بعلمه سائر الأقطار العربية .

أما صلته بمجمعنا فأنتم أعلم بها ، فقد اختير لعضوية المجمع سنة ١٩٤٦ على إثر زيادة عدد أعضائه إلى أربعين عضواً ، فهو واحد من « العشرة الطيبة » ، تماماً كما كان واحدا من « العشرة الطيبة » فى تأسيس الأكاديمية المصرية للعلوم . واستقبله فى المجمع صديقه وزميله المغفور له الدكتور أحمد أمين الذى قال فى مناسبة أخرى عبارته المشهورة البالغة البلاغة فى إيجازها وفى ضخامة دلالتها ، وتمام انطباقها حيث قال فيه إنه «أدب العلم وعلم الأدب» فهذا أصدق تعبير يصف فقيدنا الكبير . فقد كان فى العلم بحراً زاخراً أو محيطا خضما طامى العباب . فإذا كتب دان له القلم واسترسل فى أسلوب سلس شائق . ومن منا لا يعرف مقالاته فى مجلة «الرسالة» ثم فى مجلة «الثقافة» ثم بعد ذلك تحريره لمجلة «العربى» التى تولى إخراجها فى دولة الكويت منذ سنة ١٩٥٨ ، وأصبحت بفضله مثلا أعلى لما تكون عليه المجلات ، إلى غير ذلك ، مما يدل على نزعات للتجديد ، وملكات للتفكير العلمى المنطقى المتسلسل .

لقد كان حقا كاتباً ممتازا ، جزل الأسلوب رصين العبارة ، دقيق اختيار الألفاظ ، يقيم لكل لفظ وزنه ، طاوعته اللغة على نحت الألفاظ والمصطلحات الأصيلة المبينة . ولعل من بعض فضله على العربية أنه من أول من نادى بضرورة الاهتمام بالعربية الفصحى دون هوادة ، وبخاصة فى أدوات الإعلام من صحف وإذاعة وتليفزيون ، وهاجم الأخطاء اللغوية التى تصدر عن المشتغلين بهذه الأجهزة .

أما تراثه العلمى والأدبى فقد انتشر وشمل مناطق متعددة من مصادر العلم والثقافة والمعرفة، كما تناول شتى نواحى الحياة والعلوم، كثير منها إنتاج أصيل، منه ما كان فى علم الكيمياء مما لست ملما به. ولذلك فإنى تاركه لرجال الكيمياء، ومنه ما كان إنتاجا ذهنيا لمس علوما شتى، واتصل بنواح متعددة من حياتنا العصرية، ومنه ما تناول موضوعات ثقافية على مستوى عال يتناول فيها ما استحدث من استخدامات للعلوم والتكنولوجيا الحديثة. وما يتصور أن يستحدث منها فى المستقبل القريب والبعيد، ومن إنتاجه أيضا ترجمات للممتاز من من الكتب العلمية والأدبية. وإنى ذاكر بعض مؤلفاته وترجماته:

مع الله فى السماء

جان دارك

مع الله فى الارض

مرجريت أو غادة الكاميليا

سلطة علمية

قصة الميكروب

بين المسموع والمقروء

كتب فى علم الكيمياء

.. اتق وأنابيق

ولعل أهم إنتاجه ما ظهر له فى مجلات: العربى، والرسالة، والثقافة.

هناك ناحية أخرى أحب أن أذكرها قبل أن أختم حديثى: ذلك أن فقيدنا كان إذا وقف فى الناس محدثا، أو إن شئتم قلت خطيبا، كان له أسلوب خاص، ولصوته رنة خاصة، ولألفاظه نبرات خاصة، فتظهر فى أسارير وجهه تعبيرات خاصـــة، أيضا. وكان البعض ممن يستمعون إليه يعتقدون، وهم فى ذلك مخطئون، أنه «يتقنزح» فى كلامه، أو يتعمد التحذلق فيه، أو يتصنع حركات وجهه، وهم ناسون أنه كان فنانا؛ وكان مرهف الحس فى اللغة، فكان لكلامه موسيقية متنوعة الأدوات من ألفاظ إلى مصطلحات إلى أساليب. وكان هو «المايسترو» يتحكم بذلك فى الإيقـــاع، واختيار الكلمات وفى حسن تجانسها وتآلف معانيها، فخرج ذلك كله «سمفونية» من الألفاظ والمعانى يطرب لها الوجدان ويتغذى بها العقل.

سيادة الرئيس:

ليس فى وسعى أن أوفى ذلك الرجل العظيم حقه مهما بذلت من جهد ولذلك فلابد من أن أكتفى بهذا القدر اليسير من بعض نواحى حياته. إذ لاأستطيع أن أُلم بجميع جوانبه: ولذلك اكتفيت بالقليل منها.

سيداتى ، سادتى :

إنكم تقدرون معنا مدى الخسارة الى لحقت بنا بفقد هذا العلم – وذلك الرجل الفذ ، وتقدرون معنا أن الزمن لن يعوضنا عنه بسهولة : فندعو الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة ويسكنه فسيح جناته ، وأن يلهمنا جميعاً الصبر والسلوان ، وأن يوفق الجيل الحاضر إلى اقتفاء أثر هؤلاء الرجال الأفذاذ .

وإنى لأشكر لكم من أعماق القلب مشاركتكم لنا ؛ وأدعو الله أن يجنبكم كل مكروه وأن يوفقكم ، كما أقدم العزاء خالصاً إلى أسرة الفقيد الكريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الدكتور عبد المنعم ابو العزم :

(رئيس اكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا)

يا أيتها النفس المطمئنة .

يا أيتها الروح التى سكنت إلى بارئها ومازالت تنشر فوق الحياة ظلالها ، ياأيها الغائب الحاضر والراحل الخالد ، سلام عليك من مجمع الخالدين .

السيد الرئيس :

السادة الأجلاء :

قلة « نادرة » من البشر هؤلاء الذين بلغ علمهم مبلغ الريادة والقيادة . . فاستحقوا لقب العالم بحق ، وقلة « نادرة » من بلغ منهم من الأدب مبلغ الروعة والأصالة ، فاستحقوا لقب الأديب بصدق . وأقل من القليل .. هؤلاء الذين حباهم الله نبوغ العالم ، وروعة الأديب فهولاء لا يصلون إلى تلك المكانة إلا بعد لأى وعناء . . وصبر وتمرس ، إنها مكانة ما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم .

وقد تلقاها بفضل الله وبفضل المثابرة عالمنا الراحل وأديبنا الخالد : الدكتور أحمد زكى :

سيداتى سادتى :

إذا كان العرف قد جرى بأن يكون حفل التأبين تخليداً وذكراً لمآثر الفقيد الراحل ، ومجالا نجلو فيه سر عظمته ونسير نحوها ، ونستكنه حقيقتها — فما أيسر ذلك عليكم بصفة عامة لأنكم خالطتموه عالماً ، وصحبتموه أديباً ، وعرفتموه باحثا . .

ولعل هذا المكان الخالد قد شهد للدكتور أحمد زكى ،واعترف له بما وصل إليه من مكانة سامية ومرتبة سامقة مهمة فى العلم والأدب والبحث والفكر واللغة

وما أيسر ذلك بالنسبة لى بصفة خاصة فقد بدأت الصلة بيننا منذ كنت طالباً .. أتلقى منه وآخذ عنه . وكنت مع الكثير من علماء اليوم نقعد منه مقاعد للسمع .. نتحرى منه الرشد والتوجيه .

« رحم الله الدكتور أحمـــد زكى » . أول مرة ردد لسانى هـــذه الجملة غبت فى أعماق ذكرياتى ، وتذكرت يوما لم ولن أنساه .... كنت أنصت إلى المذياع .. وتناهى إلى مسمعى صوت يقول : « رحم الله أم سكينة » .. جـــذبنى الصوت فكم ألفته .. والتفت نحوه فقد عرفته ..

كان صوته : وراح يسرد قصة أم سكينة : سيدة ريفية أحكمت غلق الحجرة ومعها حفيدان ، وأوقدت ناراً ، ولما طالت غيبتها عن أهلها فتحوا الباب ليجدوها وحفيديها قد فارقوا الحياة، ويشرح السبب : المادة العضوية عندما احترقت أنتجت أول أكسيد الكربون وثانى أكسيد الكربون والأول سام وثقيل — تسممت الجدة وحفيداها وفارقوا الحياة .

.. واستمعت إلى قصة «أم سكينة».. والتعليق العلمى الذى على به . . وقلت عندئذ : أى فلاحة بسيطة تسمع هذا الحديث ولا تعى الدرس .. فى صورة مبسطة محببة إلى النفس! أى عالم ينصت إلى هذا القول ولا يشعر بالدهشة لهذه القدرة النادرة على تبسيط العلم وتقديمه فى صورة مبسطة محببة إلى النفس!

إن مشكلة العالم — وبخاصة علماء الطبيعة والكيمياء والطب وغيرهم — هى :

كيف يستطيع أن يضع فكرته فى وعاء ملائم من اللغة ،وفى اختيار الكلمة ،

وفى صياغة الفكرة وفى التعبير الدقيق الذى يفى بمضمون الحقائق ، ولكن فقيدنا ضرب لنا المثل فى هذا المضمار فكان بلاشك واحداً من أبرز المفكرين والعلماء ..وأبرع الكاتبين والأدباء .

وأعود فأقول : لقد كان أستاذاً ورائداً..

عرفت للعلم كرامته، وللعلماء مكانتهم . ترفع عن الدنيا .. وإباء للضيم، ورفض لكل مايمس كرامة العلم والعلماء وما أكثر الأمثلة التى تساق دليلا وبرهانا . وكان فى ذلك عظيما كل العظمة ، فهو لم يسق الحديث دفاعاً عن نفسه ، وإنما سما بدفاعه عن الذاتية ،واتجه إلى الموضوعية التى يتسم بها فكر العالم، ويرتفع إليها قلم الأديب الحر .

ذات يوم من سنة ١٩٥٣ زار أحد المسئولين مبنى المجلس الأعلى للبحوث (المركز القومى للبحوث حاليا) .. وأبدى ذلك المسئول فى حديثه شيئا يشير إلى امتهان مكانة المجلس : . فما كان من أستاذنا الراحل إلا أن رد على ذلك فى كتاب كامل سماه « المجلس الأعلى للبحوث : ماضيه القصير وحاضره ومستقبله » تحدث فيه عن العلم ، وعن الأمم المتقدمة والمتخلفة .. وتحدث كثيراً عن العلماء وعن كرامة العلم والعالم . . ولما جاء مجال الحديث عن نفسه قال :

« تمرس مدير المجلس بالبحث العلمى البحت فى أوربا، ، إذ قضى بها نحواً من من عشر سنوات، ثم أستاذاً للكيمياء بالجامعة ثم انتقل إلى مصلحة الكيمياء مديراً لها ، فلمس بها الجانب العلمى ، وأضيفت إليه أعمال مصلحة الصناعة فزادت خبرته بالجانب العملى منها، فلما جاء دوره ودخل المجلس ، أحس برغم هذا كله بمقدار من الجهل عظيم فيما يتعلق بأنظمة هذه البحوث وأحدث الطرق والتنظيمات التى تجرى عليها ».

وهناك جانب لا يمكنني – وأنا بصدد الحديث عن مآثر الفقيد – أن أغفله وهو: رعايته لشباب العلماء.. وتنشئتهم على الخلق العلمى القويم، وحرصه على استقلال الفكر وإبداع العالم، وابتكاره، وفي الصدد.. أذكر حادثة وقعت لي:

فقد ذهبت إليه وأنا على أهبة السفر إلى البعثة التي اختارني لها.. فبادرني بقوله:

«أظنك قد أتيت إلى لسماع نصيحة مني، ونصيحتي لك: ألا تسمع لنصيحة من أحد عما ينبغي أن تفعله بالخارج؛ عليك أن تختار لنفسك الأسلوب الذى يوائم طبعك، ويلائم ظروفك، وأن ترى بنفسك وبعينك ما في هذا المجتمع الجديد من جديد، وما يمكنك أن تتعلمه من هناك دون أن تحاول معرفته من هنا..».

وعند عودتي من الخارج قدمني في محاضرة عامة بقوله:

«من شبابنا العائدين أقدم (فلانا) وحكمي عليه لن يكون بما حققه في الخارج من نجاح أو تفوق.. فإن غيره قد أصابوا مثل هذا النجاح، ولكني أحتفظ بحكمي عليه حتى يحقق في بلده وفي ميدان تخصصه شيئا نذكره له، ونتحدث به عنه».

سيداتي وسادتي:

إن الدكتور أحمد زكي لم يكن مجرد عالم أو أديب. فما أكثر العلماء والأدباء، ولكنه كان ظاهرة علمية وأدبية. والظواهر فلتات لا تتكرر، وخوارق لا تتيسر.. وللظواهر خصائص تتميز بها، وللخوارق سمات تعرف عنها: ومن حق الوفاء أن تكون هذه الظواهر وتلك الخوارق موضع البحث والدراسة.. وأن تظل مثالا حيا نابضا رائدا، خالدا لكل دارس وباحث.

وهذا هو واجبنا.. بل هو واجب الأمة:
فيأيتها النفس المطمئنة.

ويأيتها الروح التي سكنت إلى بارئها؛
ويا أيها الراحل الخالد:

سلام عليك من مجمع الخالدين.